الإمام الخميني قدس سره

تجسيد الخلق الإسلامي

السيد فاضل النوري

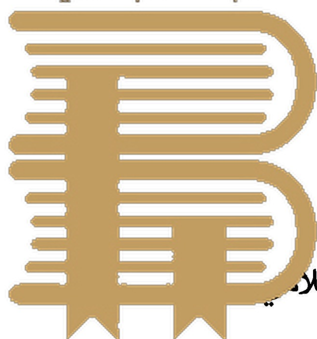



بسم الله الرحمن الرحيم

السيد فاضل النوري

الإمام الخميني

تجسيد الخلق الإسلامي





منظمة الاعلام الاسلامي

٣٧٧



اسم الكتاب : الامام الخميني تجسيد الخلق الاسلامي

اسم المؤلف : السيد فاضل النوري

الناشر: معاونية العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي

الجمهورية الاسلامية في ايران ــ طهران/

ص.ب ١٤١٥٥/١٣١٣

المطبعة: العلاّمة الطباطبايي

التاريخ : الطبعة الاولى ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م

طبع منه : ٥٠٠٠ نسخة

مقدمة الناشر

امتازت شخصية الامام الخميني بأبعاد كثيرة، ووقف الكثيرون أمام سعة هذه الأبعاد وعمقها متحيِّرين ومعجبين بهذه الصياغة الاسلامية الفريدة.

في حين هامت بها الجماهير وذابت في حبِّها إلى حدٍّ خياليٍّ لا يوصف. وما مظاهر الحبِّ والهيام التي أبدتها حينما ٱستقبلت عودته إلى إيران قبيل ٱنتصار الثورة الإسلامية، وحين ودَّعت جثمانه الطاهر إلى مثواه الأخير توديعاً مليونيّاً لم يسبق له نظير في التأريخ كله، ما كلُّ ذلك إلّا مظهر من مظاهر الهيام والوله بهذا الإمام العظيم، وبما حمله من صفات إسلامية يقلُّ ٱجتماعها بهذا العمق وهذا الصفاء في شخصية رجل.

وهذا الكتاب سطور كتبها أديب هائم واله، حاول بها أن يعبر عن ما يجيش في صدره تجاه الإمام الخميني الكبير وما يتسامى في فكره من أبعاد تلك الشخصية الفذَّة.

وفقنا الله تعالى للسير على خطى الإمام وتطبيق تعليماته الرشيدة.

معاونية العلاقات الدولية

في

منظمة الاعلام الاسلامي

الإهداء

سيّدي روح الله .

يا مجدّد الإسلام وحامي حماه،.. وهازم الكفر وماحي دجاه،..

يا طلعة النّور في كثافة الديجور،.. وطليعة الفتح في عصر الظهور..

يا بسمة الحبور على أفواه الثّاكلات،.. ومشعل الهدى في الفتن الدّاجيات..

يا كهف اليتامى وموئل المحرومين،.. وعبقة الخير في حياة المجدبين..

يا بضعة الحسين الشّهيد،.. وباعث كربلاء من جديد.

يا وارث الوتر والثّارات،.. وطالب الذحول والترات.

يا شموخ (بدر) ووجه علاها المبين،.. وضحكة النّصر في (الخندق) و (الفتح) المكين.

يا رائد الثورة العصماء،.. وباني الدّولة الغرّاء.

يا مذلّ المردة المستكبرين،.. وقاهر الطّغاة المتجبّرين.

يا إمام المسلمين،.. و قائد المستضعفين.

كلمات واهنة كليلة تقصر عن بلوغ معشار مداك ، وتضعف عن بيان الأقل الأقل من شأن مجدك و علاك ، أُهديها اليك يا ابن الزّهراء البتول، راجياً لها عندك حسن الرّضى والقبول، يشفع لي فيها حبّ لا ينتظم وصفه البيان، و إكبار يعجز عن أن يحيط به اللّسان.

المقدمة

قد كان يحجزني عن الكتابة عنك أمران، استعظامي لشأنك الرفيع، واستخفافي بما يمكنني أن أُوديه ممّا هو الحق والواجب على من يكتب في شأنك.

ولقد صرفني ذلك حينا من الدهر لأجمد ساكنا يلفُّني الخشوع لجلالة قدرك، فلا أنبس ببنت شفة ولا يخط لي يراع، وقد راح القلب ينطق بالكلام البديع حبّاً وخشوعاً وقداسة، وتتغشّاني الحيرة لعظمتك المفرطة فتفوه الأحاسيس والمشاعر بالمجد والثناء، وتنطلق الروح في آفاق العجب بك ومنك، هائمة تذوب في سبحات المحبَّة والولاء.

ولقد دعّني دعّا عن الخوض في أمرك أنه كالبحر المتلاطم العباب لا ساحل له فيُستقصىٰ، ولا لين في عمقه فيُسبر أو يُستشف، ولا سهولة في ظاهره فيوصف على حقيقته إذ يوصف.

ولقد كنت أحسب أنني إن كتبت عنك فلم اوُفّك حقك لقصوري أو جهالتي، فإنَّما أكون بذلك قد ظلمتك وظلمت الحقيقة، وظلمت عُشَّاقك المتيَّمين بك، الذين أرمضهم حرُّ الأشواق، فباتوا ظِماءً صادين الى ما يبلّ غلّتهم من سلسبيل العرفان بك أيُّها المعشوق الكبير، يا من أهوت إليه القلوب الوالهة تشمُّه وتلثمه فلا يزيدها هذان إلّا صبابة وولها، لأنها إنّما أحضنت على معناك الزكي، ولا رِيَّ في عالم هذه المحبة الفائقة إذا ظمئت القلوب، ولا بُلُول غلة إذا صديت النفوس.

ومالي لا أكون كذلك مصروف الفكرة بالرهبة أو الضعف عن

الخوض في شأنك الجسيم، محجوزا بها عن الحديث عن عليائك الأخّاذة، محجما كل الاحجام عن أن أُعالج أمراً أحسب أن مغالبة التيّار المزبد الثائر، ومساورة الأسد الكاسر، ومشاورة الريح الزعزع، ومطاولة الجبل الأشمِّ الأرفع؛ أخفُّ وطأةً من وطأته الخشناء، وأيسر جهداً وعناءً من جهده وعنائه البالغين، وأقرب للمنال من نيل ما يناظر المحال، وقد دُهِشَت الدنيا لطلعته الفاتنة حتى قعدت رهينة الذهول والحيرة، وصعقت لمرآه الآسر فانكفأت يأكلها الحسد والغيرة، وراحت تتجاوب أنحاؤها من كل صوب كلمات الإكبار والإعظام، وتردد أوصالها من شتّىٰ الأنحاء نداء الإطراء والثناء، صراحاً جهاراً بثوبه المعهود، أو مضمراً دفينا تنمُّ عنه كثير من صور الواقع المشهود، حتى هذه السيوف الباترة المسعورة صورة لذلك الأمر هي أروع صورة.

وأولىٰ لي يا سيدي أن أتأخر أزاء هذا الهول، وأنكص على عقبي وهي نفسك الزكية الطهور وأخلاقك الرفيعة الرضية، ومحاسنك الغلّابة القاهرة، ومحامدك الزاهيات الحسان، وفضائلك المشرقات المضيئات، وخصالك الساميات العاليات، كل أُولئك حقيقة العظمة التي تجلْبَبْتَ رداءها، وطرتَ بها إلى آفاق المجدِ والعلاء، وسرُّ هذه الكرامة التي ظَفرتَ بها وقد حُجزَتْ عن غيركَ حَجزاً، وصُدَّتْ عن سِواكَ صَدّاً، كأنما هي قدرٌ لك مقدور قد خُطَّ في اللوح من دهر الدهور، ومَدْعىٰ هذا الشموخ الذي حباك الله به فارتقيت ذرى المجد، وسَموْتَ به إلى ما يحار الفهم في إدراكه من سمو المكان وعلو المنزلة وبُعد المقامِ، وما يعجز اقتدار الفطنة عن الفكر في شأنه من الجلالة والقداسة.

هذا الأمر العُجاب هو الذي سوَّلت لي نفسي أن ألج دنياه المتمادية الممتدة، وأن أجهد في سبر أغواره المتشعبة العصية، وأن أُطيل الشخوص متعرِّفا ببصري في شموس العجائب الخلقية في عالمه الرحيب، وأن أحدّق مستجليا في أنوار الفضائل الإنسانية لهذا الخلق البشري العجيب.

وأنّىٰ لي بالحول الذي يطير بي جناحاه في تلك الآفاق الرهيبة اللّامتناهية، وتنهض بي قواه على ما أشبهه بالتنقيب في بطون الجبال، وحمل القلل، أو آستقصاء جذور هذا الكوكب وأوتاده، ويتيح لي قدماه وساعداه حمل هذه المهمة الكبرى بثقل الأرض فلا ينقصم لي ظهر، ولا تكبو لي قدم، ثم لا أُذَمُّ علىٰ ما فعلته ولا أعاب على ما أتيته.

ومالي لا أقدِّرُ الأُمور بأقدارها وأرِدُ عليها من حيث أقدرعلىالإفادة منها وبها؟ فلا أُكلِّف نفسي الدخول في ما لا تحمد عقبى الدخول فيه حيث العجز والإعياء أو التيه والضياع، فالخيبة والحسرة والندامة بالهزيمة حيث كنت آمل الظفر المبين، والانكسار حيث رجوت أن لا أأُوب إلّا منجحا فاتحا.

ولقد كنت أُعلِّل نفسي بعد قعودي عن الأمر الخطير ذاك بما كان يعلِّل به نفسه (المتنبِّي) بعد قعوده عن الثناء على وصي الرسول من أنَّ من مدحوا الشمسَ لم يأتوا بشيء لأنَّ صفات ضوء الشمس تذهب باطلا، وتكون عبثا، ويكون الحديث فيها لغوا كأنه الهذيان، وحسنا صنع المتنبِّي، ولقد كانت كلمته تلك أروع من كثير ممّا قيل في مدح صنو المصطفى مع كلِّ ما آحتوىٰ عليه من فنون البيان وآيات الجمال.

ولست أدري كيف يراودني مع ذلك بل يرتفع في أعماقي صوت هاتف مُلحّ متّصل يقول لي: إذا كانت الامثال تضرب ولا تقاس، فما بال أُولئك الذين مجدوا الله على علوِّ قدره، وقدَّسوه بألسنتهم، فكانوا عابدين مثابين؟ وما خطب أُولئك الذين أثنوا عليه وأطروه مع آستعصائه على غوص الفطن بأفواههم فكانوا عنده مرضيِّين؟ وما بال أُولئك الذين كرَّموا أنبياءه وأولياءه بالثناء والإطراء فباتوا عند ربِّهم مأجورين ممدوحين؟

ألا ترى الكلام في أمر واضحا كان أم مستعصيا لا يَرِد إلَّا على غايات ثلاث!، تنبيه للغافلين، أو تفهيم للجاهلين، أو تذكير للعارفين. وثمة في الورى من يجهلون الكثير ممَّا يشبه الواضحات ويُحسِنُ إليهم من يعرِّفهم

إيَّـاها، ولوكان لا يرىٰ نفسه قـد صنع شيئاً، وفيهـم من لا يدركون الـحقائق الكبيرة فيثنون على من يُدنيهم منها ولوكان هو لا يرىٰ أنه قد أعطاها حقها.

ولا يزال هذا النـداء ممتـدّاً واصباً مكروراً، يصرفنـي الـحـق فـيه رويداً رويداً عمّا كنت عـليه من الرأي، فإذا به قد ذهب في الفضاء شعاعاً، فأُمسك القلـم لأكتب في أمر كنت أرهب أن أكـتب فيـه، لأنّـي قد عرفت الآن أنَّ الرهبة تلك ضـلال عـن الـحـقيقة، وذهاب عن الـرشـد والصواب، وأنَّ الـخير بعد ذلك حـاصل في تحاشـي تـلك الـرهبة على كـل حال، وأنَّ الشرَّ مصروف كذلك.

من هوالإمام الـخميـني

الإمام في تأريـخنا الأصيل رجل قلّ له المثيل...

أشرق من فجر أمره للحياة وجه عظيم...

وأطلّ من عليائه شأن جسيم...

خشعت لها الدنيا، ودانت بالإجلال والإعظام...

فكان معجزة الإيمان الصدق، ومفخرة الدين الـحق...

الإمام في دهرنا المشـهـود بعد غياب القائم الموعود عجيبة العجـائب، ويتيمة الـزمان الآتـي والذاهب، قد عـقمت رحمه الولـود عن أن تنجب مـثله من جديد، وكلّت يده الصَّـنَّـاعُ عن أن تأتـي بمثل هذا الإبداع، بل تعايا عن أن يصل بخاطره الـلمّاح إلـى حقيـقة هذا الوجه الطالع الوضّاح، الذي تنفس في أحنائـه صبحاً مـنيراً ثـاقباً، وأزهر في قـفره ربيـعاً ضاحكاً مخصباً، يـفضح دياجيه المطـبقات، ويجـلو ليالـيه المغـدفات، ويمحو عـن صفحـة عيشه السوداء ظلمات الشقاوة والعناء.

الإمام في عالمنا الـتائـه الضليل صوت ونـداء، ومشعـل وضّاء، ورايةٌ ولواء، صوت الـحق، ونداء الـرشاد، ومشـعل البصيرة في ليل الـفساد، وراية الـقـيام ولـواء الـجـهاد، قـد نطـق بالـحق في كـشـافات الضـلال وقـد سكـت الآخـرون، وأطلـع مـنـار الهـدى في غـيـاهـب الـغـيِّ حيـث خـنس الـبـاقون، وانتضـى حسام البأس ثائراً علويّـاً حيث قد خنع أو داهن السا كتون.

الإمام في حياتنا الهامدة صرخة دوّت فتجاوبت بها الأنحاء صرخة رفض وإباء، حيث أعلقت شراك الذل والاستخذاء، وصيحة دوت كالبركان هدرت من فم القرآن، تقلع أوتاد الشيطان، وعزمة ثاقبة عنود، راحت تكسر الأصفاد والقيود، وتبعث الحياة في رهائن الموت والخمود، وبأس صائل جسور، له صيال الأسد الهصور، يشد على ذؤبان البغي والشرور.

الإمام هو وصف جده أميرالمؤمنين، ناجاه الله في فكره، وكلّمه في ذات عقله فاستصبح بنور يقظة في السمع والبصر والفؤاد يُذكّر بأيّام الله، ويخوِّف مقامه، يأمر بالقسط ويأتمر به، وينهىٰ عن المنكر ويتناهىٰ عنه، مصباح في الظلمات، ودليل في الشبهات، علم الهدىٰ وضياء الدجىٰ.

الإمام رجل ربّانيٌّ ميمون الرأي راجح العلم، مقوال بالحق، متراك للبغي، مضىٰ قدما على الطريقة، وأوجف على المحجة فظفر بالعقبى.

أليس هو روح الله؛ التي انبعثت من تحت دثار القرون كالشمس تنبعث من أحناء الليل الأيهم، روح محمد وعلي والحسين، روح الهدى والخير والرشاد، روح العزم والصلابة والاقتدار، روح التضحية والفداء والشهادة؟

أليس هو روح الله؛ روح المعاني السامية التي تجسدت خلقاً ملكوتيا، وروح الفضائل العالية التي تمثلت على الأرض بشراً سويا، وروح المحامد والمكرمات هبطت من مكانها في ذرى العلياء لتحل في الارض إنساناً عليّاً؟

أليس هو روح الله؛ الروح التي تنزّلت من السماء بأفانين الآلاء، لتعمر الأرض بالخير والهناء، تضم المستضعفين إلى أحضانها الدافئة الرؤوم، تنعش صدورهم، وتجلو غمومهم، وتفتح أمامهم أبواب العزّة والرفاهية والسؤدد؟

أليس هو روح الله؛ العذاب الواصب الدائب الذي تفجَّر حمما من تحت أقدام الطغاة والمستعبدين، وانصبَّ بلاءً طاغياً من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ليجدوا أنفسهم في الموج الطاغي للبلاء؛ قد أحاط بهم فلا حيلة، وأخذ بخناقهم فلا منجى، وتكنفهم فلا سبيل سلامة؟

أليس هو روح الله؛ العجب الآسر القاهر الَّذي طاف بالشرق الكفور في عوالم الحيرة الطاغية؛ حيث بدد زيف المزاعم بأفيونية الدين حين فجَّرها ثورة لم تنطوِ أحشاء التاريخ على نظيرها، الله غايتها، والإيمان قوَّتُها، والدّماء الزاكيات وقودها حدوثا وبقاءً؟

إنَّه روح الله؛ البأس الفائق الذي نابذه الغرب العقور وصاوله وطاوله، وجاءه بغرائب الكيد والمكر وفنون العدوان والشرّ، لكنه انكفأ خاسئاً مدحوراً، ونكص على عقبيه ذليلاً مقهوراً، يلعق جراحه النازفات، وينادي بالثبور والويلات، وقد شربها كأسا مترعة من العذاب، وذاق طعمها مهانةً أمرَّ من الصاب.

إنَّه روح الله؛ من تعرَّى بحقيقته الغراء أدعياء الإسلام من أثواب الادّعاء، وتكشَّفوا لأعين الورى أعدى أعداء الهدى، أولياءَ الكافرين، وأُجَرَاء الظالمين، أعداء الأُمَّة وعبيد الظلمة.

إنَّه الإمام؛ تلك اليد العلوية الحانية التي امتدت من عالم الغيب، لها جلال ومهابة وإشراق، تشير للضعفاء العانين المستذلين في داجيات الذل والاستعباد، إليَّ، اليَّ أيُّها المستعبدون أُخرجكم من وهاد الضيم والشقاء إلى شواهق العزّة والهناء، لتكونوا سادة فاتحين بعد أن كنتم عبيداً مستَرَقّين.

الامام هو بضعة الرسول، وابن الزهراء البتول، سلالة الحسين السبط الشهيد، وعترة الإمام المسموم الفقيد، وليد النبوة والإمامة، وفرع العلياء والكرامة، وريث الزعامة والريادة، وحفيد الجهاد والشهادة.

نعم، إنَّه روح الله وكفى، فما ألصق الاسم بمسمَّاه، وما أصدقه عليه، وما أجدره وأليقه به، وما أحقَّه بمعناه، كأنَّما فاه به الوحي الكريم اَسما لهذا المخلوق العظيم، مشيراً إليه، معرِّفاً به، دالاًّ عليه، وهو بعد في حضن أُمه وليدا، قبل أن يكبر ليكون قدراً مبيناً، يصنع عظائم الأُمور، ويملأ بالدهشة ما بين جوانح الدهورعليك تحيات الله وبركاته أيُّها الفاتح الأكبر، يا كاسر الأصنام لهذه الجاهلية الجديدة، يا صانع دولة القرآن، وناشر لواء التوحيد والإيمان بعد أن يئس اليائسون وقنط القانطون.

وثورة الإمام وسعيه الهمام، أمران طارفان لم تتضمنها أحشاء الزمان. أرأيت كيف يفعل الإيمان؟ إنّه ليكفيك من الخبر العيان، وحسبك من السماع المشهد، فهذه وثبته المبدعة تبث في الأرض أفانين الإعجاز، وتبعث فيها ألوان العجب، وتنحو بها شطر الإبداع في فصولها.

الخميني والمؤمنون المستضعفون معه — على الضعف البادي، والعجز عن كل شيء، والحرمان من كل سبب ظاهر الى المنعة، والهول المتلاطم كالخضم من حولهم، والبغضاء المستعرة في كلِّ صوب من دنياهم، والعزم الشامل من كلِّ من سواهم على حربهم — يفتحون الباب إلى الحياة السامية بقوة صُبَّتْ فيهم ولم يألفوها، وعزم أُوتوه ولم يكن يشهدهم.

ثورة الإمام كربلاء مكرورة منصورة، وعاشوراء مجدَّدٌ مسدَّدٌ، وراية حمراء مضمَّخة بالدماء ركزت حيث تشاء، نصراً مؤزَّرا ميموناً، وفتحاً مكلَّلا مبيناً، أمرين لم ترهما من قبل عين الدهر، ولم يبلغهما سعي الخيال، ودأب الفكر.

ثورة الامام واقع تجسَّد بعد أن كان حلما تجيش به قلوب الهداة الميامين، ومرغوبٌ قد نِيلَ وهو مهوى أفئدة الأجيال، كانت تحول بينها وبينه ظروف وأحوال، وضالَّة مطلوبة وُجِدَتْ بعد ما حفدت صوبها عزائم الساعين عبر القرون، قد سترتها عنهم شؤون من دهرهم وشؤون.

انها من نبوءة الوعد الإلٰهي للمستضعفين، والعاقبة المرسومة للمتَّقين،

والـخـلافة الموعودة للمـؤمـنين الصالـحين، يُمكَّنون فيهـا بـعد العذاب المرِّ هُداةً إلـى الدين الرضـي، ويُستبدَلون فيها الأمن بعد المخافة في الهول العصـي.

جهاد النفس

مجاهدة النفس في حياة الإمام أمر عجيب تُجسّد لنا حقيقتُه حقيقةَ المطلوب في جهاد الأنفس، ومنابذة أهوائها، ومقارعة شهواتها، وعدم الركون إليها، والاستسلام لرغباتها، وتُصوِّر لنا مجاهدةُ الإمام لنفسه، ذلك المدى الواسع الكبير الذي غاب عنه الكثير للآية المباركة «**إنّ النفس لأمّارة بالسّوء**» وتبيِّن لنا بالتجسيم الماثل، قضية النَّفس المجبولة على الفجور، المطبوعة على الفساد كما يذكرها القرآن «**ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها**» فنحن نجد النَّفس عند الإمام في تحذيره منها، وتخويفه من الوقوع في حبائل مكرها، في كل ما قاله وكتبه في جهاده الأكبر وسواه وهو كثير وفير، وفي واقعه وسلوكه، قد انصرف عن نفسه، وعزف عن دنياها، وباينها مباينة لا تُبعِدُها عنه ولا تُدنيها، نجدها من هذين الأمرين في حياة إمامنا عدوّاً لدوداً، وخصماً عنيداً، قد عبَّأ قواه، وأجلب خيلَه ورَجِلَهُ، وشحذ بواتره، وحاك شراكه، وبثَّ شياطينه وخنّاسيه ليفتلوا هذا الانسان عن هداه وسداده، ثم يُركسوه على رأسه في هاوية العمى، ليقتلوه بعد ذلك قتلاً أنكى من القتل بالنصال، قتلاً لا تكافئه ألف قتلة بالسيف، ضلالة قائمة، وشقاوة دائمة، وعذاب واصب، وبلاء ثاقب، وخسارة الآجلة بعد ضياع العاجلة.

الرجل القرآني وحده هو الذي يستطيع أن يتفهَّم حقيقة السرِّ في النهي الإلٰهي الشديد عن متابعة النَّفس، والتسليم لها، والتركاض خلف داعيها، والأمر الأكيد بمحاذرتها ومجانبتها، والخوف من الانقياد لمطالبها، فلا عجب بعد ذلك أن نرى إمامنا الربّانيَّ موصول النداءِ دائبه، يحذِّر من غوائل

الهوىٰ، ويخوِّف من مضلّات الرغبات، وينهىٰ عن السماع والاستماع لداعي النَّفس الأمّارة.

ومن يقرأ الامام فعلاً وسلوكاً حيث لا يجد لأهواء النّفس مسرباً إلى عالمه الرفيع الطاهر الوضّاء، ولا لرغباتها سبيلا إلى حياته النقية القدسية، ولا لداعيها أُذُناً سامعة أو واعية. قد تمحّضت عزوفاً عن مطالبها، وتنكُّباً لطريق يؤدِّي إلى الالتقاء بها، وتعريجا على كل ما يخالفها ويضادُّها، ومناوأة لها ومحاربة، هي في ميزان الحماسة والمناضلة والمصاولة أضرى من حرب ضروس، وأورى من نار غوّالة أكول، وهذا سرُّ تلك التسمية المباركة لحقيقة جهاد النفس (بالجهاد الأكبر) وتسمية الحرب والطعان، وملاقاة الأقران، ومنابذة الفرسان (بالجهاد الأصغر)، وتسمية الشجاع الهمام بأنَّه من يغلب هوىٰ نفسه ولا يغلبه، ويقودُها بخطامها ولا تقوده.

ومن يقرأ الإمام في كلماته القدسية، ومواعظه الإلٰهية حيث النداء والرجاء والدعاء، نداءُ الحذر من غوايات الأهواء، ورجاء الإستقامة على خط الإيمان والعقل، ومجانفة طريق الشهوات، ودعاء الشفيق بالتوفيق إلى غلبة البصيرة على الهوى، وٱنكسار النفس في الحرب العوان بين رغائب النفس ومطالب الايمان.

«ينبغي أن تكونوا قبل كلِّ شيءٍ بصدد تهذيب أنفسكم وإصلاحها، وينبغي أن يكون هذا محل اهتمامكم»، «إسألوا الله أن لا تصبحوا ذوي مقام اجتماعي قبل أن تتمكَّنوا من تربية أنفسكم وتهذيبها وإصلاحها، لأنكم حينئذ سوف تخسرون كل شيءٍ، سوف تضلُّون، فٱبنوا أنفسكم وأصلحوها قبل أن يفلت الزمام من أيديكم، كلما خطوتم خطوة علمية عليكم أن تقرنوها بخطوة في تهذيب النَّفس وإصلاحها، وٱستئصال الأهواء النَّفسية الخبيثة، وتنمية القوى الروحية، وٱكتساب مكارم الأخلاق، وتحصيل التقوى»، «عليكم أن تهذِّبوا أنفسكم حتَّى إذا أصبح أحدكم رئيس قوم، اشتغل في تهذيب نفوسهم»، «إنَّ كمال

الانقطاع لا يحصل ببساطة، إنَّه يحتاج إلى ترويض للنفس غير اعتيادي»، «حاربوا هوىٰ أنفسكم، ويجب أن تظل هذه المحاربة مستمرة في بواطنكم».

من يقرأ الإمام في قوله وفعله، في كلماته وواقعه، فيما يفوه به وما يجسّده من حقيقة (**جهاد النّفس**)، يقرأ رجلا سماويا قد صفت نفسه من أوشاب الأرض وزخارفها ومغرياتها، وشفَّت حتى غدت ملائكية لا تربطها بالطين الواهن رابطة، وتسامت متعالية حتى حلَّت مكانها الرفيع بين خلق الله البديع في السماوات العلى.

يقرأ رجلا قد قلَّ نظيره ومثيله في نبذ الهوى، وسما على من يباريه في خصلة الاعتصام من زلل الاهواء بذمام البصيرة والنهى، ومن يجاريه في خلة التمسك — في عرامة الرغبات ودعارة الشهوات — بحبل القرآن وحقائق الإيمان، فالنفس معه في حلبة السباق مغلوبة مقهورة، خاسرة مدحورة، قد خسئت وذلَّت، وباءت بالبوار والتباب بعد النكوص الدائم على الأعقاب، فلم تعد ثمة للإمام نفس أمَّارة، ولا أهواء خادعة، ولا شهوات مضلَّة ولا رغبات مغوية، إنَّما هي نفس هذَّبها ونزَّهها وزكّاها، وعَلَّمها وربَّاها، قد صهرها بالمجاهدة الدائبة، وصبَّها في قالب الإيمان المحض، فخرجت نفساً قرآنية قد خلت من شوب الهوى، وسلمت من أدواء النفوس، وطارت على جناح تلك المجاهدة وذلك التهذيب إلى محلِّها الأسمى في عالم ما يشبه العصمة، وٱرتفعت متسامية إلى مقامها الأعلى حيث الاستقامة كما أمر الله، حيث تتجسَّد لك حقيقة العالِم الربَّانيِّ الذي جعله الله خليفة وحجَّة لأنه مثال «**صائناً لنفسه، حافظا لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه**» فلعباده أن يقلِّدوه ويعملوا برأيه ويطيعوه، فإنَّه لا يدلُّهم إلّا على الله، ولا يسير بهم إلّا الى ما يحبُّه ويرضاه، فليس لهم في ذلك مغمز، ولا لأحد منهم فيه مهمز، ولا يحجزهم عن إجلاله وإكباره حاجز معابة، ولا يقعد بهم عن طاعته والخضوع له ريب في الصدور.

هذا هو الإمام، فانظره حيث شئت من أدوار حياته العليّة، وأنّى شئت من مقاطع عمره الشريف؛ هل تجد إلّا إماما قد طلّق النفس الخؤون ثلاثاً لا رجعة لها بعدها إليه، مذ علم أنّها سكن لا يؤتمن، وعشيرٌ تُخشى بوائقه، وقرينٌ يُخاف من شروره، وصاحبٌ قد عدم سجية الوفاء، أُنظره في شبابه ورجولته حيث يقول له الهوى اَرِحْ نَفَسَك المكدود، لا تُعانِدْ خصمك المدعوم وأنتَ أعزل، لا تَبقَ رهن المناضلة وباب الفوز أمامك موصدة، إقعد كما قعد سواك وقد مالوا الى الدَّعة وادعين مسالمين فظفروا براحة الدنيا ورضى السلاطين، علام هذا العناء والبلاء؟ ولم هذه الآهة الحرَّى والحسرة الجمرية؟ إلامَ هذا العذاب الواصب مع الغموم والهموم والسهاد في الغربة بعيداً عن الدار في لُجّة التيار وزعيق الإعصار. لا تسمع غير واعية الضحايا على الطريق الدامي، ولا يصك سمعك غير نداء الظليمة من امتك ، من فرعون وجنوده، ولا ترى غير الأشلاء المتناثرة على الساحة الحمراء، وغير النار تأكل أحبّاءك الأوفياء؟! ألا ترى أنَّك قد خسرت الدنيا... لذّاتها... دعتها... أطايبها... بل أيسر شؤون العيش المطلوب فيها، فأنتَ مع كلٍّ ما تعانيه وتلاقيه في جهادك من الأتعاب والأوصاب زاهد... منصرف عن الدنيا... راغب عنها... قد حرمت نفسك من أقلِّ مرغوباتها، وصرفت عنها أقرب محبوباتها إلّا القليل الذي يظفر به المرملون، وينالها العانون، ويستطيعه المحرومون. فأنت مرمل عان محروم، قد فقت أُولئك في خلال البؤس بما تعانيه من هموم القيادة، وشؤون الجهاد، ووظائف النضال. وما أثقلها من هموم مبرِّحة، وأغلظها من شؤونٍ لا تطاق، وأقساها من مهام لا تتحمل.

ثم ٱنظره في كهولته، حيث دعته صارخة الهوى قائلة في إلحاح لم لا تعطي الدنيَّة من نفسك والحرب قد أكلت خضراء بلادك ، وأحابيل الكفر والنفاق قد استغلقت قضيتك ، والحصار الاقتصادي وسواه من أفانين الكيد لك قد راحت تعتصر قلبك ، وتضيِّقُ الخناق عليك ؟ ترفض الصلح

وفيه ظاهر صلاحك ، وترفض أمريكا والقوى المستكبرة، ولا عيش مأمون إلّا بالتبعيَّة لها، وترفض العلائق المذلَّة، وتأبى الأواصر (اقتصادية أو سياسية) لأن فيها حيفا على بلادك وأُمتك ، أو طمعا فيها ، وبدونها لا يستقيم ظاهراً أمر بلادك وأُمتك ، كل ذلك وسواه تقوله له نفسه فيجيبها (هيهات منِّي الركون إلى الباطل، وقد نُهيت عنه، هيهات منِّي السكوتُ على الضلال وقد أُمرت بمقارعته، هيهات منِّي ترك المجاهدة والنضال وقد ألزمني ربي بها ، هيهات منِّي اللُّهوف إلى رغائب الدنيا وأطايبها، ولي أُمَّة محرومة مستضعفة، هيهات منِّي أن أنشُدَ لنفسي الراحة والدَّعة، وأُمتي لا تذوق طعمها ، هيهات منِّي أن أذِلَّ للطغاة المتجبِّرين، أو أن أُعطي بيدي للغاوين المارقين، او أن أمدَّ – غير مضطر بقهر المصلحة الأعلىٰ – يد المسالمة والصلح للجناة الظالمين، أو أن أشتري الهوان والخضوع، وأبيع الكرامة والاستقلال والشرف بعرض الدنيا وزخارفها ومغرياتها وبهارجها) .

أستغفر الله ، إنَّ نفسه المبرَّأة من النقص، الزكية الرضية المصونة لم تقل له ولن تقول له شيئا من ذلك ، ولن توسوس في صدره او تسوِّلَ له، أو تأمره بالإثم، أو تُزَيِّنَ له السوء، إنَّما هي نفوس الأتقياء دونه، تريد أن تغويهم فيردعونها بالرفض الشديد، وتنشد لهم الشرَّ فيعا قبونها بالإباء والصدود.

وهلمَّ نختم الحديث في هذا الأمر، بوصية المجاهد الأكبر، لمسؤولي بلاده وحماتها، ومديري شؤونها ورعاتها، بجهاد النفس، ومحاربة الهوى:

«يجب أن تصونوا أنفسكم ولا تجعلوها تتدخل في أُموركم التي تديرونها، إنَّ الذي يريد أن يصير حاميا ومدافعا عن هذه الجمهورية يجب ألّا يكون هواه متدخِّلا في عمله، فيغيِّر وجه هذه الجمهورية كلكّم يجب أن تكونوا كذلك. أنتم أيُّها القائمون في الخدمة فعلا، وكذلك السفراء، ومن يذهبون للعمل خارج البلاد، وكذلك حرس الثورة، وكل القوى المسلحة ووكلاء المجلس والقوة القضائية والتنفيذية، يجب عليكم جميعا أن تراقبوا

أنفسكم وتصونوها».

التقوىٰ

التقوى هي حقُّ الله على عباده، وأرقى مصداق العبودية، وأصدق شاهد على حقيقة الإيمان، وهي كما يصفها إمام الأتقياء، دواء داء القلوب، وبصر عمى الأفئدة، وشفاء مرض الأجساد، وصلاح فساد الصدور، وطهور دنس الأنفس، وجلا عشا الأبصار، وأمن فزع الجأش، وضياء سواد الظلمة، ولقد كان الإمام ولم يزل أوفر اهل الزمان حظّاً من التقوى، وأكثرهم، وكان ولم يعتم ألصقهم بها، وأدناهم إليها، وأشدهم حرصا عليها، وتحلّياً بزينتها، وٱستمساكاً بركنها، وٱعتصاماً بحبلها، وتقرُّباً إلى الله بآثارها وشواهدها، ودنوّاً منه وعروجاً إليه بأحكامها وفرائضها، ونيل المقام العليِّ في رضوانه بتقواه، والعمل بأمره والازدجار عما لا يرضاه، فريضة من العقل والوجدان بحق الطاعة الكاملة، وأمراً من المعبود أن يُعبَدَ بما يريد كما يريد، وأن يُطاع بما يشاء كما يشاء، وألّا تخالف أوامره، ولا تُتَعدّى حدودُهُ لصلاح دنيا المربوبين وأُخراهم.

ولله درُّه حيث يقول:

«إذا آمن الانسان بالله تعالى ورآه بعين القلب كما يرى الشمس ببصره، فليس يمكنه بعد ذلك أن يرتكب أيَّ ذنب.»

«هل من الممكن أن تصدر المعصية من شخص معتقد بحضور الله ومراقبته.»

وشاهدنا على رفيع مكان الإمام في التقوى، وعظيم شأنه في عالمها، وعلو منزلته في درجاتها أُمور، مصاديقها وأفرادها... نتائجها وآثارها...

عطاياها ومواهبها، أُنظر الإمام حيث شئت هل تجده إلّا تقيّاً خائفاً خاشعاً، صائناً نفسه عمّا يسخط ربّه، حافظاً لحدوده، لا يخالفه في الكبيرة، ولا يتجرّأ على عصيانه في الصغيرة، ولا يتسامح أو يتهاون في أن يؤدي إليه كل حقوقه، ويطيعه بكل طاعاته التي فرضها، وينتهي له بكل نواهيه التي ألزم بتركها، مدركاً لعظيم حقّه، مبصراً بعين القلب (العارف) جسيم شأنه، وما هو أهله من الطاعة والعبادة، فعبده واتّقاه، وهابه وخشيه وسعى حافداً دؤوبا إلى مواضع رغبته ورضاه، حبّاً له وتعظيماً، وانقياداً وتسليماً، يريد أن يؤدي إلى صاحب الربوبية ما هو أهله لديه من حقيقة العبودية، لأنه السيد المعبود المهاب قبل أن يكون شديدَ العقاب، ولأنّه حبيبُ قلوب العارفين قبل أن يكون المثيبَ المجازيَ يومَ الدين، على سجية من جدّه المرتضى الذي ما عبد ربّه خوفاً ولا طمعاً، بل لحقِّ العبودية وحدَهُ.

وإنّنا لنسمعه يقول:

«لا تعبدوا الله لأجل الوصول إلى هذه الأُمور، بل اعبدوه لأنه أهل العبادة...

... حينها تخترقون حجب النور، وتصلون إلى معدن العظمة».

أُنظر الخميني في كفاحه المقدّس، هل تراه خالف الحقّ، وتعدّى حدود الشريعة، ليصل بذلك من أقصر السبل إلى غايته، وإن الطريق لتطول بالتقوى إلى الغاية الكريمة مع العدوّ اللئيم الفاجر؟ هل نأى عن طاعة الله أيّام قيامه على الظلم ليدكَّ عرش الطاغوت، فأمر بسلوك سبل الباطل للوصول إلى الهدف، وانتهاك حقوق الله لنيل المبتغى، والتجاوز على حرمات الرِّسالة ولو أدنى تجاوز لبلوغ المطلوب كما يفعل القادة المنحرفون سعيا إلى غاياتهم؟ أم تراه يأمر الناس ألّا يخرجوا عن حدود طاعة الله وتقواه وهم يجاهدون عدوَّ الله وعدوَّهم وألّا يخالفوا ربهم وهم يناوئون المردة العصاة، وألّا ينقلوا الخطى الملتوية وهم ينشدون طرد الضلالة، وألّا يحيدوا عن السداد طلباً لأوبة الرشاد.

ثم تلك الحرب المفروضة بكل ما هتنت به من الفضائع والويلات على إيران البريئة، والظلم الفادح الذي نزل بساحتها، وكل ما حمّلتها بها قوى الباطل من المتاعب والهموم، وشغلتها بها عن اهدافها العالية وأغراضها السّامية، من تثبيت دعائم حكم الاسلام، ورفع كلاكل الحرمان والاستضعاف عن كاهل الأُمة المسلمة في إيران، ونشر أنوار الرفاهة والهناء بعد ليالي الشقاوة والبلاء، وتصدير ثورتها إلى العالم بالحكمة والموعظة الحسنة، رغم ذلك كله، ورغم هذا الدم الزكي الذي تهريقه بواتر الجناة في هذه الحرب الغشوم، وهذه المهج البريئة التي تسفك ظلماً وعدواناً لا يعدوان الصغير ولا الكبير ولا الرجل ولا المرأة، وتلك الفضائح التي ٱرتكبت على ثراها الطهور يربأ منها هولاكو الطاغية، وتقشعرُّ لها جلود المغول القساة.

رغم هذا وذاك منعت الإمام وتمنعه تقواه من أن يردَّ الصاعَ صاعين، وهو يسيرٌ عليه، وأن يقابل الظلم بالظلم وهو عليه قدير، وأن يخرب بلاد المخرِّبين بإشارة بنان، وأن يكثِّف على الجاني ليالي البلاء، وأن يفجِّر من تحت قدميه حمم المصائب، وأن يصبَّ على رأسه مزن الفجائع، وأن يرميه بكل داهية نكراء، ويأتيه بكل ملمَّة فقماء، وأن يغرقه في بحر لجِّيٍّ متلاطم عباب لا ساحل له من المحن والويلات، يذوق فيه الموت أنفاساً، ويتجرَّعه على مهل مرير، لو أنه أباحت له نفسه أن يقابل المثل بالمثل أو فوقه كيفما كان، وأن يردَّ العدوان أنَّى ٱتفق، وأن يظفر بالنصر أنَّىٰ كانت السبل إليه، لكنها تقواه تصرفه صرفاً عن ذلك ، وتزعُّه زعَّاً عنه، وتحول بينه وبينه، وأنّه ليقول مقالة جدّه أمير المؤمنين:

(قد يرى الحُوَّلُ[1] القُلَّبُ وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه؛ فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في

---

(١) البصير بتحويل الأُمور وتقليبها.

الدين.)

وتدقق على الإمام تقواه فيأمر لها جنوده أن يكونوا صادقين كل الصدق في رواية أخبار الحرب وذكر أنبائها، وتقديم الإحصاءات عن خسائرها في الطرفين، وذلك أمر قلَّ من فعله من قبله وقليل من يفعله من بعده.

ثم آنظر التقوى مع الإمام في مواهبها وعطاياها ممّا يحبوالله به عباده الأتقياء (والعاقبة للمتقين) من موفور الفضل، ومزيد النعمة، وفائق الكرامة، وعصي المنال، من العطاء، تجد أن الله قد اجتباه لتقواه، وآصطفاه لأمرٍ حجز عنه سواه، وأعطاه من عظيم الفضل ما شخصت إليه الأبصار، ووهبه من سامق المنزلة ما حارت به فِطَنُ المُطْرِين، واختصّه بكريم الشأن ما عجزت عن نيله مواكب الأبرار.

وهبه الله أُمةً أحبته وقدّسته وأطاعته لأنّها ألفت آمرأً تقيّاً يحبُّ ربَّه ويقدّسه ويطيعه، وزعيماً مجاهداً زاهداً، وفيّاً أبيّاً، ثائراً صابراً، مديرا قديرا، قد حوى أرفع خصال الريادة، وأروع خلال السياسة والقيادة.

وهبه الله وفاءً بوعده (**ومن يتَّقِ الله يجعلْ له مخرجاً**) حماية منه، وحياطة وصيانة يقتحمُ بها بحر الأهوال فلا يغرق، ويلجُ بها نار الخطوب فلا يحترق، ويلمُّ به معها الأعداء من كل صوب فلا يصيبه منهم أذى، ولا يمسُّه منهم مكروه، ويحل بثورته وجهاده ثرى الاستكبار وأسياد خصمه فيعصمه الله من شرِّهم، ويصرف عنه مكائدهم، ويحجز عنه أذاهم.

لا بل يكتب له شطراً كبيراً من النصر، ويؤازره بين ظهرانيهم، وعلى مرأىً ومسمع منهم، وهم يعضدون عدوّه فلا يُغنُونَ، ويمدُّونه فلا يُجْدُون، ويسعفونه فلا يُشفون، ومبرِّحهم، ومؤرق ليلهم، وصارف طائر الكرى عن أعينهم؛ بين أيديهم لا يجدون شيئاً أسهل عليهم من أن يقتلوه أو يثبتوه أو يطردوه فيؤخِّروا أوان النصر، ويحولوا بين القائد الظافر وبين أن يبلغ حيث أراد وادعاً سالما، حتّى حين طارت طائرة العودة وما أسهل على (رصاصة)

ولا نقول (قذيفة) من أن تهوي بهذه الطائرة إلى الارض لتذرها حريقاً هائلاً أو أشلاءً مقطعة.

ثم في حلوله في طهران، وكيد الباطل مستحكم، وبلاؤه متفاقم، وشرُّه مستطير، ونار غيِّه لها سنان ثاقب، طوع أمره جيشه الخالد، ورهن إشارته السلاح الرهيب يدمِّر ما رام حيث رام، يصرف الله عنه وهو على ثرى البركان أن يتفجَّر به فيبيره، ويمنع بواتر الظالمين وهي تحيط به من كل صوب أن تنقضَّ عليه فتصيِّره أفلاذاً، ويعطيه الله النصر الأغرَّ المؤزَّر الذي كانت تحلم به الأنبياء، وكان ينشده الأولياء، فحالت بينهم وبينه شروط موضوعية له لم تواتهم، وأسباب بين يديه لم يظفروا بها، وظروف وممهِّدات لم يُصيبوا حظّاً منها.

وكان قدراً مقدوراً أن يكون الخميني هو الفاتح العظيم الذي أثلج الصدور الحرَّى على مرِّ العصور، وأنعش القلوب الموجعة المتحرِّقة على طول الزمان، وغمر النفوس الناصبة اللاّغبة مرَّ الدهور بالأُنس والارتياح، وصنع معجزة خرَّ لإعجازها العالَمون للأذقان سُجَّداً، وهم بين مبهور بها قد أخذته الحيرة والذهول، وعاشٍ عن النظر في وجهها للتصديق بحقيقتها قد أبصرها على حين غِرَّة بعد ليلٍ حالكٍ طويل فصعق بفرط نورها، ومتهاوٍ ومهدود الأركان من فزعه وخوفه، وموجعٍ ثكلان محزون يحسُّ أنَّه قد دنا من حتفه.

لقد وهبه الله لتقواه ما وعد به أهل التقوى من هبة «الفرقان»، «**يا أيُّها الذين آمنوا إن تتَّقوا الله يجعل لكم فرقانا**»، النور الذي يبصرون به طريق الحقيقة في معتكرات الأوهام وغمرات الأباطيل، ويرون فيه الصواب في ظلمات الجهالات والشبهات، وتنفذ به نواظر بصائرهم إلى حقائق الأُمور كالمغيَّبات، وتدرك به سرائرها المكنونة كأنَّها قد وهبت (علم الغيب) ولقد أبصرنا هذا النور عند إمامنا من واقعه الوضَّاء، وبصيرته المنيرة، وهديه المشرق الوهّاج، وسياسته القويمة الماضية على سبيل الحق والاستقامة، وقيادته الرشيدة التي حالفت الصواب لا تجهله فتشط عنه، وقارنت الرشد لا تعمى

عنه فتحيد عن دربه.

وكان ذلك كله صنع التقوى ولولاها ما كان معشاره، وكانت تلك أرفع آثارها وبدونها لا تكون، وكان ذلك أعلى آية الوفاء بوعد صادق غير كاذب (والعاقبة للمتقين) لتجعل من حليفها صاحباً ملازماً، وسميراً، وخليلاً قد ٱتخذها شعاراً ودثاراً، وهادياً ومناراً، لم ينأ عنها في الدياجي الحالكات، ولم يصرمها في المحن الطاغيات، ولم يهجرها بعد إقبال آثارها والمُنى، ولم ينسَها عندما رقى الدرجات العُلى، حين ذلَّت له الرقاب، وتسبَّبت له الأسباب، وثُنيت له وسادة الاقتدار، وأمسكت يمينُهُ بالصارم البتّار، وتمَّ له الأمر المشهود، وفُتِحتْ له أبواب المجد والخلود.

خذ إليك صفات المتَّقين، أو هلمَّ نعرِّج عليها يصدح بها ثغر التقوى مجسَّدة في إمام الأتقياء، لننظر في صدقها على إمامنا، وٱنطباقها عليه ٱنطباقا متَّسقاً متناغماً ليس فيه فتور ولا فطور، ولا يمازجه شوب ولا عيب.

فالمتقون هم أهل الفضائل، وإمامنا أهلها، طلبها بحق فلبَّت طائعة، وأقبلت مذعنة، تزيِّن حياته الحسناء، وتزيد إشراقها إشراقاً، ووضاءَتها وضاءةً، منطقه الصواب، لم يقل شططاً ولا باطلا، قد تعفَّف لسانه عن حديث اللَّعو واللَّهو، وفُطِمَ عن كلام لا يلده العقل ولا يسوسه، فهو لا ينطق إلّا حُكماً أو حِكمةً أو موعظةً شافية، أو دلالةً وسداداً ورشداً، وملبسه الاقتصاد، لا بل إن ملبس إمامنا الزهد... مشاركة للمحرومين في أُمَّته، ومواساة لهم، وهو عهد أخذه الله عليه لأنه القائد الرائد، وسجية جبله عليها إيمانه لا يبارحها ولا يضيعها، قد غضَّ بصره عمَّا حرَّم الله عليه، ووقف سمعه على العلم النافع له، فعينُه وأُذُنُهُ رهنُ الإيمان يريان فيه ويسمعان، قد نزلت نفسه منه في البلاء كالتي نزلت منه في الرخاء، إذا دهمه البلاء كان بثقته بتأييد الله لتوكُّله عليه، وأمله بلطفه ورعايته؛ كمن كان في رخاء مستمر لم يغيِّره حلول النكباء، وإذا حلَّ به الرخاء كان مع خوفه من عقاب

ربّه وخشيته له كأنّه في بلاء دائم لم يذق فيه طعما للراحة، عظم الخالق في نفسه، وٱستحوذ سلطان مهابته فيها على كل سلطان، فصغر ما سواه فيها... صغرت الدنيا ومطالبها... صغرت الأهواء والشهوات... صغر الباطل وقدراته، وهان الشر وسطواته، فهو لا يخشىٰ سوى الله، ولا يهاب غير قدرته، ولا يرهب غير بأسه، ولو كان لهذه القوى المستكبرة المتجبِّرة التي راحت تُرعِدُ وتُوعِدُ ولكنَّ في أُذنه وقرا من عدم الخوف عن سماع وعيدها، وبينه وبين ذلك الوعيد ستر من اللّامبالاة يصرفه عن ترتيب الآثار عليه أو الاعتناء به.

قلبه محزون خوفاً من الله ورهبة منه، قلبه محزون ممّا يمرُّ بأُمة الاسلام من العبودية للكافرين، والتبعية للمستعمرين، ومن تضييع أحكام القرآن، وٱستبدالها بقوانين الباطل، ومن الظلم والحيف اللّذين يقعان على رؤوس الصفوة المجاهدة من هذه الأُمة.

قلبه ذو شجون لما يمرُّ به المستضعفون في أُمة القرآن، بل حتى في غيرها من النصب والعناء محرومين أشقياء منبوذين بينما الأسياد وأذنابهم في القصور الفارهات يتنعَّمون، وفي لذّاتهم الواسعات يغرقون.

وشرُّه مأمون لا تُخشىٰ غائلته على أحد، ولا يَخاف منه أحد ضرّاً، ولا يتوقَّع منه أحدٌ سوءً لا في أُمته في ايران، وقد راح يذوب لها قلبه ذوباً رحمة وإشفاقاً وحناناً، ولا في أُمة الإسلام من حوله، وقد بدا كمن هو باخع نفسه حسرةَ وأسفاً ومرارة على ما يحلُّ بها من النكبات، وما تعانيه من الويلات.

وشرُّه مأمون فلا أحدَ في العالم هذا الفسيح الواسع من حوله يرى منه الشرَّ والأذى أو يتوجَّسُهُ منه، كيف وهو صاحب رسالة لحمتها الرحمة، وسداها الإحسان، تريد أن تعمَّ لتريَ الناس محاسن الاسلام وفضائله وبركاته.

أرادته الدنيا فلم يردها، وأسرته ففدىٰ نفسه منها، ليس لها في قلبه

نصيب من هوىً أو رغبة، ولا لها في نفسه مكان من إقبال أو توجُّه، إنَّما هي عنده تفاهات زائلة، وزخارف خادعة ذاهبة، غرور حائل، وضلال وباطل إلّا بمقدار ما يكون للحقّ فيها من وجود، ولأهله منها من عمل به، وسعي لنشره وتحكيمه، ودأب إلى اكتناز المحاسن وإذاعتها، والإعداد ليوم الإياب الأكبر من الحسنات بالأعمال الصالحات، وهذا هو دأبه الواصب في الدنيا، وعمله المشهود فيها، وسعيه الحثيث في أحنائها، فكل دنياه مجاهدة، وكل زمانه عمل بالحق ودعوة إليه، وكل أيامه سعي في مرضاة الله وجهدٌ لإنقاذ عباده من مخالب الشرور، وبراثن الذل والشقاء، وأتون الحرمان والاستضعاف، لا يرضىٰ من عمله القليل، فشأنه أن ينصَبَ في رضىٰ ربه وطلب قربه، والدنوِّ منه بالفعال الزاكيات، فإن قلَّ عمله رأى ذلك ذنباً وتقصيراً على نهج القول الكريم (**حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين**)، يسيئه قليل الخير منه، ويستقلُّ الكثير الذي يعمله، فهو نزر يسير في عالم الطاعة الممتد الواسع، فهو لنفسه متَّهِمٌ بالتقصير على كل حال وهو من أعماله الصالحة مشفق ألّا يكون الله قد ارتضاها، لذاك تراه كثير الحسرة، غزير العبرة، شديد المخافة والإشفاق، وهو في الذروة الشمّاء من طاعة الرحمٰن، وفي المنزلة الخصيصة من القرب منه والتعلق به.

اذا زُكّي خاف ممّا يقال له خشية ألّا يكون عند الله أهلاً لما وصفه به المحبُّون من حميد النعوت، وذكره به الموالون من عظيم المقام رفيع الدرجة، ولا يزكّي النفوس إلّا الله، ولا يعلم بحقائقها إلّا هو، فيتوجّس إذا هو رضي تلك التزكية أن يكون مزكّياً لنفسه راضياً عنها معجباً بها، وإن لسانه الناطق أو لسان حاله ليقول: «أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي من نفسي» ثم انظره رحمه الله في مهمِّ صفات المتّقين وسامي صفات المقرَّبين، ألقوّة في الدين هي أُولى صفاتهم، وهي أُولى صفات إمامنا، فهو قويٌّ في دينه، متديِّن في قوته، شكيمته في دينه وارية، وعزيمته فيه ضارية، غير ضعيف الدين، ولا مهزوله ولا هيّابه ولا وانيه، إذا ملك القوة فهو

يعقلها بعقال الدين، ويخطمها بخطامه، ويقودها بزمامه، لا تنفلت من يده فتدمِّر، ولا تضعف حيث تُراد فتقصر، إنه دين قوي مقتدر، وإنها قوة مقتدرة متديِّنة.

وإنك لتراه في صفات المتقين الأُخرى حازماً حيث يفرض الحزم نفسه، ليِّناً حيث يكون اللِّين فرضاً، مؤمنا على يقين راسخ في معتقداته، تشهد له عليه الحقائق اللائحة من واقعه وجهاده، حريصاً على العلم، مقتصداً حال الغنى، خاشعاً في العبادة، صابراً في الشدة، نشيطاً في الهدى والقربات، متحرجاً عن الطمع في عَرَضٍ من أعراض الدنيا، يُمسي شاكراً لله على أداء الطاعة، ويُصبح وهمُّه ذكر الله وتعظيمه ومزيد القرب منه، إذا مانعته نفسه عن طاعة من الطاعات لم يمكِّنها – عقوبة لها– من رغباتها، قرَّةُ عينه في الباقيات الصالحات والطاعات المرضيات، وزهده فيما يزول من العرض الفاني والمتاع الذاهب، لا يقول حتى يعمل، منزور الزلل، خاشع القلب، قانع النفس بما قسم الله لها، سهل الأمر غير متكلِّف في شؤونه، حريز الدين لا يستفلُّ من إيمانه، ميت الشهوة، كاظم الغيظ، لا يغضب لنفسه، يؤَمَّلُ الخيرُ منه ويُرجى، ويؤمن الشرُّ منه ولا يخشى، يعفو عن ظالميه ولو كانوا قد ظلموه أفدح الظلم، وحطُّوا من قدره أفظع الحط، يعطي من حرموه ولو كانوا قد اقترفوا في ذلك أكبر الجرم، بل يصل من قطعوه ولو راموا من قطعه ألّا تقوم له قائمة، بعيدٌ منه بذاءة القول وقبيحه، لا يساء منه أحد بمنكر يأتيه، خيره على الناس كتهتان السَّحاب، وشرُّه أمام جحافل تقواه ناكص على الأعقاب، في حوازب الأُمور وفوادحها وقور ثابت، راسخ الخطى لا يحور ولا يتراجع، وفي المكاره والملمات صبور لا يجزع ولا يسخط ولا يتبرَّم ولو كانت مثل واقعة خرداد والجمعة السوداء، لا يحيف على من يبغض فيخرجه البغض عن حدود الإيمان حتى مع طاغية الزمان وعصبة الشيطان، ولا يأثم فيمن يحبُّ فيغالي في الحُبِّ حتى يتعدَّى حدود الشريعة، وإنَّ أحباءه لا يأمنون زواجر وعظه وتحذيره إن هم شطَّت بهم الزلّات عن

سواء السبيل، لا يُضَيِّعُ ما ٱستُحفِظَ، فالأمانة عنده محفوظة، صغرت فكانت أمانة درهم أو دينار، أم كبرت فكانت أمانة أُمَّةٍ وقيادة، لايضارُّ بجيرانه، فلم يُعهد لهُ جارٌ أحسَّ منه المكروه يوم كان فرداً في الأُمة، ولم يعهد بلدٌ مجاور لبلاده رأى منه المساءة وقصد العدوان بعد أن أصبح زعيماً رائداً، لا يشمت بالمصيبة ولو حلَّت بأعدىٰ أعدائه، منصرفٌ عن الباطل بأجمعه، غير خارج من الحق ولو جزء منه، صامت يؤنسه الصمت في محلّه، متكلِّم بالبليغ النافع حيث موضع الحاجة إليه، يصبر إذا بُغِيَ عليه حتى ينتقم الله له، ولقد فعل سبحانه فدمدم على من آذوه وأوقع بهم، فمنهم من أذاقه فضيحة الدارين، ومنهم من فضحه في دنياه متربِّصا فضيحة الآخرة.

ليس لنفسه راحة بل هي من زجره لها وتشديده عليها في عناء متَّصل، وهي من زجّه لها في ملحمة قيامه الفريدة تصنع عجائب الأُمور في دنيا الجهاد في المحل العصيِّ القصيِّ عن الراحة، وفي المنأى البعيد البعيد عن قرار العيش الدنيوي وطيبه ورفاهه، ولا غرو أن تحوزه عن دنياه أُخراهُ التي صرف عينه إليها، وسعيه لله الذي وزع نفسه أوصالا على عدد همومه ومشاغله لدينه ورسالته، وقطَّع قلبه أفلاذا تُعانق من أُمَّته تلك القلوب التي مَسَّها الأذى لله ثائرة على سبيله.

لا ترى منه الأُمَّة إلّا الخير تسحُّ به سحب الجود والعطاء، قد سلَّمها زمام الأمر وسخَّر لها كلَّ شيء، لا يتباعد عن أحدٍ إلّا زهداً في دنياه، ونزاهة من مساوئه لا متكبِّراً ولا متعاظماً ولا متعالياً، ولايدنو من أحدٍ إلّا بلينٍ مشهود، ورحمة ظاهرة، لا يريد مكراً به، ولا خديعة له، ولا طمعاً فيه.

الزهد

الزهد في حياة الإمام معلَمٌ بارز من معالمها العالية، وسمة وضّاءة من سماتها الرفيعة، قد تحلّى به فاحلولَى، وتزيّن به فصار زينةَ الزّائين، قد أحبَّ الزهد لأنه من محاسن الصفات، واستهواه لأنَّه مظنّة الرضوان، والتزمه لأنَّه فرض يفرضه عليه شأنه ومقامه، لم يفتأ دهره زاهداً، عازفا عن زخارف الدنيا وخوادعها، ذاهب الفكر والنظر عن بهارجها وزينتها، له من شؤونه العظام صارف عن الميل إلى الحطام، قد اكتفى من دنياه بأقل القليل، ولم يرض لأُخراه بأكثر الكثير.

لقد وعى عقله الكبير حقيقة الدنيا، وأنّها غرور حائل، ووعى حقيقة شأنه وأنَّه إمامٌ يتاسّى به الناس ويقتفون أثره، وهو مقصد أنظارهم، ومرمى أبصارهم، يتبيّغ بهم الفقر إن رأوه قد استعلى في دنياه على دنياهم، ويشرهون إلى المتاع الذاهب إن هم رأوا إمامهم يشره إليه ويطلبه.

وإنه لترنُّ في أُذنيه كلمات الزاهد الأعظم، يصدح بالمواعظ الشافية، داعياً إلى الزهد سواد الناس وعامّتهم فضلا عن خاصّتهم، بل لهؤلاء وصية به روحها الإلزام، وحقيقتها الفرض والعزيمة، إنّه يوصي عامة الناس قائلا لهم:

«أُنظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنّها والله عمّا قليلٍ تزيل الثاوي الساكن، وتَفجَعُ المترَفَ الآمن، لا يرجع ما تولّى منها فأدبَر، ولا يُدرىٰ ما هو آتٍ منها فينتظر، سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها الى الضعف والوهْنِ، فلا يغرنّكم كثرةُ ما يعجبكم فيها، لقلة ما يصحبكم منها».

وإنه يوصي خاصة الناس قائلا لهم:

«**إنّ الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يُقَدِّروا أنفسهم بضَعَفَةِ الناس كيلا يتبيَّغ بالفقير فقره**».

وحين كانت هذه الوصية وسواها ملء وعي الإمام وشعوره، تجسَّمت واقعاً في سلوكه، فهو الزاهد الذي يرى الإقبال على الدنيا لنفسه ولو محلَّلة؛ ذنباً يُعاقَبُ عليه، ويراه شيناً يَعيبه به عقله الكبير، وإنَّك لتراه في زهده؛ فترى رجلاً عجباً، قد ملك نفسه بعقال الصبر حتى عن مطالبها الحلال، ووزعها بوازع التعفُّف حتى عن مطامحها المشروعة، وصدَّها — متَّهماً إيَّاها، مروِّضاً لها — حتى عن أحبِّ رغباتها المباحة، فلم تظفر منها الدنيا بشيءٍ وقد أوعرت المسالك على سواها، ولم تُصِبْ منها حظَّاً وقد أقحمت غيرها في ورطات الذُّلِّ لها، والانقياد لداعيها.

إنَّها تقول عن هذه الدنيا:

«**إنَّ الدنيا وما فيها من البهارج والزخارف لا تعدل مقدار جلب شعيرة.**»

«**إنّ الدنيا ليست شيئاً ذا بال.**»

«**إنَّ هذه الدنيا بجميع مظاهرها الخادعة أحقر من أن يحترمها إنسان ويحبّها.**»

وتقول عن عاقبة محبَّتها وٱتِّباع دواعيها:

«**إذا ٱبتلي الإنسان بحبِّ الدنيا، وتمكَّنت الدنيا من قلبه... قد تكون عاقبته أن يخرج من هذه الدنيا وهو عدو الله سبحانه.**»

وإذا رأيت الإمام في عالم الزهد، رأيت ثمَّ رجلاً صحَّ فيه وٱنطبق عليه وصف جده أمير المؤمنين:

«**قد حقَّر الدنيا وصغَّرها، وأهون بها وهوَّنها، وعلم أن الله زواها عنه ٱختياراً، وبسطها لغيره ٱحتقارا، فأعرض عنها بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن نفسه لكيلا يتَّخذ**

منها رياشاً، أو يرجو فيها مقاما.»

أُنظر ٱلإمام في شؤون الدنيا التي لابدَّ أن ينال منها، ماذا نالت منه؟ بيته النضو المهزول في قم هو بيت الثائر الميمون، ومستثار الزحف الهادر للثورة العظمى، ومستقرُّه الضاوي القديم في النجف هو مأوى الرائد لمعجزة الزمان، ومدبّر ملحمة العظمة في إيران، وباسل الصولة الكبرى على هدى الله وسبيله، وناشر النور في الديجور بعد مغيبه وأُفوله.

ولقد كان من فضل الله عليَّ أن دخلتُ بيتيه المكرَّمين، فرأيت ملكا قد ٱستوى على عرشه في النفوس والأفئدة، لكنَّه ٱفترش بساطاً حقيراً يفترشه أضعف أبناء أُمته دنيا، ورأيت أسداً هصوراً قد أخذت مهابتُه بمجامع القلوب، لكنه في عرين لا تقوم به للعين ساق مهابة، رأيت عظيم هذا الزمان في أحقر بيت، وعجيبة هذا العصر في منزل لا يستهوي البصر، كبيتِ فقيرٍ مدقع الفقر، خاوي الوفاض من عرض الدنيا قد تكلَّف تكلُّفا شديداً حتى فرش أرضه بفراش تزدريه العين، ووضع للجالس على جوانبه مقاعد كأنَّ حشوها الليف، ومتكئات خشناء، لا تريح تلك من يفترشها فيظل عليها قلق الوضين، ولا هذه من يتكّئ عليها فكأنه قد ٱتَّكأ على الحجر.

أما مطعمه وملبسه، فذانك أمران لم يُزوَ حالها عن الناظرين، ولم يحجب خبرهما ٱلصادق عن السامعين، دأب في الزهد فيهما علىٰ ما نهجه صادق أهل البيت لخلفائهم:

«لا يكون الرجل فقيها حتى لا يبالي أيَّ ثوبيه ٱبتذل، وبما سدَّ فورة الجوع.»

فأضحى فيها مثالاً مقارباً لوصف أمير الزاهدين نفسه:

«ألا وإنَّ إمامكم قد ٱكتفى من دنياكم بِطِمْرَيْهِ، ومن طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ.»

ولقد ألِفْنا في النجف أن نرى (المشتي) يدخل السوق في حاجات منزل الإمام، وحيث كنّا نشتري ــ نحن أفقر الطلبة ــ (الكيلو) الواحد او

الاثنين من صنوف الفاكهة، نرى إلى جانبنا خادم البيت الكريم يشتري مثل ما نشتريه، أو أقلَّ منه ليذرنا مع العجب والحيرة لهذه الظاهرة الفريدة التي لم نألفها، ولم نحط بمثلها من قَبلُ خُبراً، ولم نعهد لها نظيراً، ظاهرة الزهد في متاع الدنيا، والعزوف عن أطايبها ولذاتها.

ومائدة طعام القائد الهمام، إنّها مأثرة من مآثره الجسام، ينظرها الناظر فيرى مائدة مألوفة طالما أبصرها أو أبصر خيراً منها في بيوت أهل القرى وسكنة الأكواخ، وألِفَها عند أهل الإدقاع والحرمان في بلاد هذا الإمام الثائر، أمرٌ عزَّ مثيله، وأعيى على المشابهة والمحاكاة فلم يبلغا حيث أرادا، أمرٌ ذَرَفَتْ له عينا ذلك المراسل الأجنبي من خشوع لجلال المشهد، وإعجاب صار هياما أفاضا ماء الشؤون هوى وصبابة، وحين يسأله الناس ما خطبك؟ وفيم بكاؤك؟ وممَّ تحيُّرك؟ يجيبهم: لقد كنت الساعة عند قائد الثورة التي أقامت الدنيا وأقعدتها وأرجّتها وأمادتها، وقد نصبت له مائدة طعامه التي لم تحتو غير الخبز والماء وشيء من البيض وشيء من التمر، وقد أخذت عيناي تغرورقان بالدموع، وراح أُوار شديد من الحيرة يعبث بي، وانتفض في داخلي بركان الذهول ينشر حممه في أنحائي، ورحت أطوي صفحات التاريخ، وأقطع مسافاته البعيدة لأُطلَّ على عالم الأنبياء الذي وصفته لنا كتب سِيَرِهم، إنَّه عالم الزهد والتقشُّف والإعراض عن زهرة الدنيا ولذَّتها.

حين يؤوب الفاتح الظافر إلى بلاده بعد محنة الغربة **وقد كلَّله غار** العظمة، وأحاطت به هالة المجد، يتأبَّى إلّا أن يعود إلى بيته القديم أو بيت مثله أو أدنى منه، لم يغيِّر النصرُ المؤزَّر من شمائله بغرور أو استعلاء، ولم يؤثِّر الأثر الكبير الذي أثَّره في دنياه من حوله في فضائله فيستدرجه إلى الارتقاء ولو على المرملين من أبناء أُمته، لا الزعامة الفريدة الكبرى لوت زمامه صوب العلوِّ في المظهر، ولا الدنيا التي فتحت بابها له على مصراعيه تقدر أن تجد لها إلى رحابه العالية سبيلاً، ولا هذه الشهرة التي نالها ولم يظفر بها

أحد سواه تفتله عن خطّه القويم، خطّ الفضيلة السامقة والمُثُلِ الرفيعة، إنّه ثابت ثبات الحق، راسخ رسوخ الأوتاد الصلاب، على حال واحدة، لا يتبدّل كالشّمس ليس لها شأن غير الإشراق.

وهذه جمران مأواه في طهران، أين هي من أُبَّهة الدور الباذخة، وفخامة القصور الشامخة، ذات الأفانين والألوان، من مستحدث الفنون في العمران، قد سكنتها الأشباحُ عديمة الأرواح تدار من وراء الأستار بأنامل الاستعمار؟ إنَّ البُعد الجَسدي بينهما كبعد المشرِقَينِ، وإنَّ شقة الروح بينهما أقصى من ذلك، ولا غرو فمثل تلك كالأصداف تكمن فيها اللئالئ الحسان، ومثل هذه كالقبور المزيَّنة المشيَّدة، هَمَدَ تحت ترابها أموات لا يبدون ولا يعيدون، وإنَّ الأسد المهيب ليسكن في عرين من قَشٍّ، فلا ينقص ذلك من مهابته وشأنه شيئاً، وإنَّ كلاب المنعَّمينَ لتفترش الحرير الوثير، فلا يخرجها ذلك عن كلبيتها، ولا يرتفع بها عن حدودها الدانية باعاً.

وغرفته في بيته، التي يستقبل فيها ـ أحيانا ـ من مسؤولي دولته المباركة، وأعزِّ أضيافه من مجاهدي الإسلام في العالم، أين منها قاعات الاستقبال وصالاته، وألوان التكلُّف فيها وحالاته؛ لطغاة الارض وأذنابهم، والضالين المضلين وأزلامهم؟! غرفة لا تقع العين فيها على ما يسرُّها من مظاهر الطين غير أنَّ القلب يرتع فيها في ربوع الحسن المبين، وجه للإمام أشرق فيها يضيئها، وقلب عظيم له غمرها كما غمر قلوب المستضعفين كلَّها طيبا وأُنسا وبهاءً، على قدر ما غمر دنيا المستكبرين هولاً وشقاوةً وبلاءً. وبيته في طهران قبل جمران بعد بلوله من عارض الداء الذي ألمَّ به فوجفت له القلوب، وذابت منه النفوس في نار القلق والخشية، كيف عضَّه فيه ناب الكراهية له والنفور منه لأنَّه بيت لا كما ألفه لسجية الزهد في سجاياه الكريمة ممَّا يسكنُهُ من البيوت، وإن كان من أوساط بيوت الناس، فلم يلبث فيه إلّا أيّاماً قضاها على ما يشبه اللَّظى يتمزَّز فيها صاب الأَذى، ثم فارقه مفارقة أثلجت صدره، وكشفت عنه عناءه وعسره.

يزوره أحد محبِّيه، وترى زوج هذا المحب في طرف من البيت بعض ملابس الإمام قد طُرِحتْ جانبا تنتظر الغسل، وتجدها هذه المرأة سانح فرصة تتبرَّك وتُثابُ فيها بالقيام بذلك العمل، وتنالها مكرمةٌ تتباهى بها بين أترابها، وحين تستأذن ربة البيت في ذلك ؛ تجيبها: إنَّما تركنا ثياب الإمام دون غسل لأنَّنا بعد لم نحصل على حِصَّتِنا من (مسحوق الغسيل) لنغسلها به، وتقف هذه المرأة وقد أخذتها دهشة سرت في أنحائها تَيَّاراً صاعقاً، تتأمَّل هذا المشهد العلوي الغريب من مشاهد الزهد في حياة هذا الرجل العجيب.

حين ألمَّت بقلبه الكريم تلك النوبة النكراء في ذلك اليوم الأليم — فاضطربت الأرواح من هلع ومخافة، وأُصميت الأفئدة برائش الذعر والخشية، وشخصت الأبصار إلى السماء، ومُدَّتِ الأيدي إليها، ونحت النفوس شطر بارئها، دعاءً وتوسُّلاً، وضراعةً ورجاءً، أن يصون قلب الثورة العملاق، وأن يحفظ معين الدفء والرحمة، وأن يبقيَ منهل الهدى والرشاد— أصرَّ الأطبَّاءُ على أن ينقل الإمام بالطائرة من قم إلى طهران ٱستعجالا في وصوله إليها ليتمَّ علاجه المطلوب فيها، لأنَّ الأمر لا يحتمل الإبطاء، ولا يليق به الونى والتأخر، ولكن الإمام الزاهد يرفض ذلك ويأباه، ويصرُّ على أن يركب السيارة كما يركبها أحد أبناء أُمته شدَّته، حيث لا تتوفرُّ الطائرة لفرد فيها في مثل هذه الأزمات، فلا ينبغي له أن يتميَّز عنها، أو يرى له لوناً من التفضيل في هذا الأمر عليها.

ولا يجد المسؤولون أزاء رفضه العنيد إلَّا أن ينقلوه في ذلك البرد الشديد، في (سيارة) قطعت به المسافة لسوء حال الطريق إلى طهران في خمس ساعات، هي خمس سنين في حساب المحبِّين، ويتأبَّى أَن يُؤتىٰ له من أقطار الأرض بأطباء ذوي أُفق عال في الفهم في مجال ٱختصاصهم، مصرَّاً على أن يعالجه أطباء من أبناء أُمَّته كما يُعالج أيُّ مريض سواه من أفرادها.

وهاتيك وهذه وصاياه بالزهد كأنَّه يُفرغ معانيها عن قلب أبيه المرتضى، يدعو رجال دولته الميامين، وأبناء أُمته العظيمة، وعلماءَها الأبرار

إلى رفض الدنيا رفضاً لا يُنسيهم حظَّهم المشروع منها، وألّا يتنافسوا في مطالبها الزائفة، وأن يتجنَّبوا التركاض طلباً لرغباتها الحائلة انخداعا بزينتها وزخارفها، أو شغفاً ببهرجها وسفاسِفِها، فإنّها ليست مطلب أصحاب الحلوم، ولا رغبة ذوي الأفهام الراجحة، ولا مهوى قلوب العارفين بالله، المدركين لحقيقة الحياة الدنيا والمآل المحتوم، إنَّه يوصي علماء الأُمة بالزهد لأنَّهم قادتها وروادتها ومالكو أزمَّة قلوبها، والممسكون بأعنَّة نفوسها، تقتفي أثرهم، وتتأسَّى بهم، وتراقبهم في الصغيرة والكبيرة اقتداءً وتأسِّياً، فإنْ رأتهم قد كبرت الدنيا في أعينهم صغروا في عينها، وإن أبصرتهم قد حليت شؤونها في قلوبهم، أمَرُّوا في قلبها.

«إنَّ الأمُة تتوقع أن تكونوا أيُّها المعمَّمون مؤدَّبين بآداب الإسلام، أن تكونوا حزب الله لا تهتمون ببهارج الدنيا وزخارفها فإذا رأت منكم الأمُة خلاف ذلك، وأنَّ همَّكم هو الدنيا والمصالح الشخصية، فإنَّ الأمُة ستنحرف، وتسيىء الظنَّ بكم وأنتم المسؤولون حينئذ عن ذلك كلِّه.»

«إنّ العالم الذي يعتبر نفسه مرتبطاً بالله سبحانه... الذي يتربَّى في مدرسة الإسلام وينهل من علومه؛ من المستحيل أن يكون هدفه وتوجُّهه هو الدنيا ومستهويات النفس.»

إنَّه يوصي العلماء (وهم أُمناء الأُمّة وساستها الرساليون) بالزُّهد لأنهم في تركه، وفي الشره إلى الدنيا؛ سيُسخِطون المستضعف المحروم (وهو جلُّ هذه الأُمة)، وسيخسرون إعزازهم في النفوس والتسليم لهم، وفي ذلك ضياع وجودهم، وذهاب قضيتهم.

وهو يوصي مسؤولي دولته وجنوده بالزهد لأنهم مدبِّروا الأُمور في هذه الدولة الغرَّاء، ومنفذو القانون، ومالكو زمام التنفيذ والتطبيق، وميلهم إلى الدنيا وظفرهم بالنصيب الوافر منها مظنة الريب والشبهة، ومسخطة الفقراء والمحرومين، وسبب الإعراض عن ولائهم، والداعي للخروج على طاعتهم، وعدم الانقياد لأوامرهم.

إنَّه يوصيهم بالزهد لأنهم المؤتَمنون على مصالح الأُمة، فإن لم يزهدوا ٱتُّهِمُوا بالخيانة، وظنت بهم أُمتهم الظنون، وتوجَّس قلبها أن يكونوا قد خانوها، وأكلوا من منافعها من وراء ظهرها.

وإنَّه ليوصي الأُمة قاطبةً بالزهد لأنه سلاحُها المُجدي في حربها على الاستكبار الذي راح يُغرِيها بالبهارج وسفاسف الدنيا، ويهدِّدها بقطعها عنها أو تذلَّ له وتستسلم لعرامة شهواته فتبيعه وجودها وكرامتها بدنيا نمَّقها وروَّقها وزيَّنها بالزخارف الخادعة، كما هوشأنه في هذه الأرض الفسيحة، مع من أنشب فيهم مخالبه، يغويهم ويضلُّهم ويفتنهم بالدنيا الغرور عن كرامتهم وٱستقلالهم وسيادتهم، وهو يُوصي أُمته هذه بالزهد لأنَّها بتحوُّلها التاريخي الكبير، ودورها الرساليِّ الرائد؛ قد وضعت نفسها في موضع لا يستقيم لها فيه شأنها ويدوم دورها إلّا بزهدٍ كبير في الدنيا، وتعلُّقٍ شديد بالآخرة، وإيمانٍ راسخٍ بعقبى الجهاد الدائب، مقرونا بالمصابرة والتحمُّل، والعزوف عن مطالب الحياة المنعَّمة حينا من الدهر حتى يكتب الله لها نصره الموعود، ويعطيها رغبتها السامية المنشودة.

وإنَّه ليوصي بكل ذلك نفسَه بالزهادة قائلاً لها: «أأقنع منكِ يا نفس أن يقال لي قائد المستضعفين والمحرومين ثم يكون بيني وبينهم من حجاب النعمة الغامرة والتلذُّذ بمتاع الدنيا ما ينسيني إيّاهم،ولايُحسِّسني بآلامهم ومتاعبهم ومعاناتهم، أو يخرج بي عن حد الإنصاف والعدل في الضمير والوجدان، او يعزب بي عن دائرة الإلزام لأئمة الحق أن يواسوا أنفسهم بأضعف الناس وأقلِّهم؟!».

التوكل على الله

لله ما أعجب أمر الإمام في فضائله، وما أعجب سجية التوكل على الله في خصاله وشمائله، لقد ٱقترن بها وٱقترنت به ٱقتراناً عجاباً حارت له العقول، وخشعت له القلوب، ٱقترانا فَهَّمَنا قبل أن نفهم ممَّا نعلم حقيقة التوكل على الله، وبَصَّرَنا بالواقع الحيِّ الأرفع قبل أن نُبصر فيما نقرأ أو نسمع شأن الثقة بالله والاعتماد عليه، وتوجيه الوجه في كل الأُمور إليه.

إنَّه يُرينا — وهو الوتر فلا شفع له مِثلاً وخلالاً — في خصلة التوكل على الله؛ أُولئك المتوكلين الصادقين (عمالقة التوكل) الذين وصلوا أنفسهم بالمشيئة المقتدرة الغالبة على أمرها، وشدُّوها إليها برباط التسليم لها والثقة بها، والاتكال عليها، وإنَّها لوجوه النبيِّين والصدِّيقين، ولقد يستبين لمن ينظر في توكُّل الإمام متدبِّرا، ويُمعن فيه عين الفكر متبصِّرا، معنى الاعتقاد بالرَّحمن على وجهه الصحيح وما أروعه!، وحقيقة اليقين وما أعظمها!، يرى رسوخ الإيمان، وعمق الآصرة بالله، وشأن البصيرة والعرفان.

يرى عقيدة ملؤها اليقين لا تشوبها شائبة الريب، واليقين البالغ النافذ في قضية الباري لا تحجبها عنه السواتر والحجب، ويرى ٱنشداداً إلى الإلٰه العظيم أيسرُ وصفه أنه ٱنشداد عجيب، انشدادا تلده البصيرة العالية، وينجبه العرفان عرفان الحقيقة السامية، وهذا العرفان وتلك البصيرة نوران قد شعَّت بهما النفس الخمينية، وأضاءت لناظرها اللماح، الطريق إلى الحق الصراح، الحق كما هو لا تعتوره الظنون، ولا تبليه السُّنون، ولا تضعفه الشبهات، ولا تغيِّره الحالات، ثم جاء اللطف الغامر فزاد المعرفة

وأعلاها وروَّقها وصفَّاها، وجلَّى عين البصيرة بنور وهدى يقذفهما في السريرة، وأذهب عنها يسير العشوة والقصور، وقليلَ العجز والفتور، فعادت نافذة لا يمنعها عن رؤية الشؤون العظمى مانع، ولا يزعها عن بلوغ القضية العليا بحقائقها وازع، ومن يدرك شأن الخالق العظيم، كيف لا يعشقه ويهواه ويهيم فيه ثم يهيم؟ وكيف لا يعتمده ويصمد إليه في شؤونه؟ وكيف لا ينشد نيل العون والفضل منه وحده؟ وكيف لا يتَّكل عليه اتِّكال المربوب على ربِّه، والمخلوق على خالقه، والعاجز الضعيف على القوي المقتدر، والفقير العاني على من يملك كل شيء، وبيده خزائن السمٰوات والأرض؟

ولقد نرى توكله عليه تحيّات الله وبركاته ورضوانه فنحار وندهش، ويأخذنا آناتٍ كثيرةً ذهولٌ آسر وعجب قاهر، نظنُّ معهما الظنون جهلاً أو قلة إيمان بهذا الإمام الكبير، ثم ينكشف الواقع الناصع، وتشرق شمس الحقيقة في أُفقه السامي تجلو ليالي جهلنا، وضباب الضعف في إيماننا لتستبين لألاءةً ظاهرة الارتباط الفرد بين الامام وربه، وتتبدى وهاجة حقيقة التوكل عليه، والتعلق به، وتفويض الأُمور إليه، تلك الحقيقة التي يكون نصيب العجب بها أكبر من نصيب العجب منها، لها غرابة عند من لم يألفها أو يسمع بها، إذ يحسبها ضعفاً أو استسلاما أمام مكاره الحياة وصعابها، والعقبات التي تقف دون المنشود الصعب، والتستُّر على ذلك العجز بالثقة بالغيب، وانتظار اليسر والخلاص منه، غافلاً عن أنَّ الإمام الظافر ثائر متوكِّل، وساعٍ مستعين، ومجاهد مستنصر، يطلب النصر باسباب الارض مستمدا اللطف والعناية من السماء، يقتحم لهوات الخطوب الجائحة بالعزم والاقتدار، مادّاً نظر القلب إلى سبحات الباري يسأله عونه وتسبيبه.

وإذا كان لابدَّ للمرء في حياته من مصدر عون يظاهره على أُمور حياته، ويخفِّف من أثقالها وأوزارها على ظهره، ويُغيثه وقت الشدة، ويحضره عند النكبة، ويُنجِدُهُ عند النازلة، فليكن لكل امرئٍ ما يختار من المصادر لذلك ، أمَّا (الخميني) فليس مصدر ذلك عنده إلّا ربه، لا يقصد عداه، فلا

بِدْعَ أن يعتمده، ويكل أمره إليه حتى كأنه عيالٌ عليه، ولا نُكْرَ أن يثق به ويولّي عين الآمال شطره، وأن يُدير لما خلاه من قوى الأرض ظهره، فأين الزيف من الحقيقة؟! وأين الوهن الناكس من القوّة الخارقة؟! وأين ضعف المخلوق من قدرة الخالق؟ وأين إمداد العاجزين من إمداد ربِّ العالمين؟!

نقل الخطوة الأُولى على طريقه الدامي إلى غايته العظمى واثقاً بالله، متوكّلاً عليه، مفوّضاً أمره إليه، ثم راح يخوض غمرات الأهوال والكروب، وفظاعات الآلام والخطوب، تموج به أمواجها، وتعصف به رياحها الهوج، وتدمدم به رعودها الصارخة، وتقصده من خلفه ومن بين يديه وعن يمينه وعن شماله أفانين المحن والرزايا، فواجه ذلك كله بقلب أصلد من الصخر الجامس، وجنان أثبت من الرواسي الشامخات، ونفس أمضى عزيمة وأقوى شكيمة من أبطال الأساطير صنعة الخيال النافذ، لهيف القلب إلى ربّه الكريم، يستعينه وهو مستثار العون في حازبات بلاياه، ويستدرُّه النصرة والتأييد في منكرات شدائده وعراماتها، ولا ناصر سواه، ولا معين غيره، حتى إذا رأى الله رسوخ الإيمان لدى عبده، وصِدْقَ توكُّله واعتماده عليه، وثباتَ قلبه على الاستمساك بحبله وعدم الميل إلى سواه، وهبه النصر الأغرَّ كطلعة الفجر، وفتح له الفتح المبين ضاحك الثغر وضّاح الجبين، وغمره بفيض العناية والرعاية، يبلُّ منه أوامه وصداه، ومدَّ له يد اللُّطف يرفعه بها إلى ذرىٰ مجده وعُلاه، وحقَّق له من الأمر ما حارت به العقول، وعبث منه بالحلوم فرط الذهول.

لقد كان بالغُ عزمه من بالغ توكُّله، لأنه قد لجأ إلى الركن الوثيقة، ولاذَ بالمشيئة الغالبة. وكان جسيم قدرته، وعجيب صولته من فائق ثقته بالله، وراسخ اعتقاده بعاقبة من يتوكّلُون عليه، ويلجأون إليه يستمدونه العون والنصرة، ومن أعظم من الله عونا لمن يستعينونه؟! ومن أصدق منه نصرة لمن يستنصرونه؟! وما العون والنصر الحقيقيان إلّا منه وحده، وما التأييد

والإمداد الصادقان إلّا شأنه.

وتلك فيما خلا، وهذه اليوم وصاياه بالتوكُّل على الله تحكي صدق ما قلناه، وتكشف وجه الصواب فيما أسلفناه، فترى الإمام فيها سيد المتوكِّلين في هذا الزمان، أرفعهم اعتقاداً بالقدرة الأزلية، وأعمقهم ٱرتباطاً بها، وٱنشداداً إليها، وأكثرهم ٱعتماداً عليها وثقة بها، وأشدَّهم إخلاصاً وصِدقاً في اللُّهوف إليها والتعلُّق بأذيالها، لُهوفاً وتعلُّقاً لا تشوبها شائبة، ولا تعيبها عائبة، ولا يمازجهما ريب، ولا يخالطهما ضعف، مهما تمادت بها الأيَّام، أو أبطأ عليهما محبوبهما، أو رأيا المنكر من مكروههما، أو تدجَّت عليهما دياجير العناء وأحاطت بهما أمواج البلاء، حيث تكون النفوس القويمة الباسلة على شفير التزلزل ولربما تزلزلت، وتكون المواقف الصلبة للثائرين بعنادٍ؛ قاب قوسين أو أدنى من اللِّين أو الذوبان ولربما حل بها ذلك، ولكنها النفس الخمينية الجبارة الموصولة بالجبروت، أعيت على الخَوَرِ، ولكنها المواقف الخمينية العنيدة الراسخة المشدودة إلى ثبات السماء ورسوخها؛ تأبى على طور الامتناع أن تذوب أو تلين.

الحِلم

عجيب أمر هذا الهاشمي الفذّ، سليلِ من تمّم مكارم الأخلاق، وبثَّ أنوارها في الارض المدلهمة بظلمات الرذائل، في أخلاقه وخصاله، وما أعلى مقامه في عالم الفضيلة، وما أرفع شأنه في رحاب المكرمات، له خلال لو تمثَّلْنَ جسداً حسّيّاً لكُنَّ شموساً وهاجة، وله شمائل لو أنها تجسَّمت خلقا ماديا لكانت أنواراً خلّابة يخطف الأبصار ضوؤها، ما أعجب أمر هذا الرجل من سلالة الطيّبين وثمالة الماضين، والبقية الطاهرة للهداة الميامين، ما أعجبه وهو يصنع الملاحم العجاب في النفس والواقع، خلائق النبيّين وأفعال الصدّيقين، ما أعجبه وهو يطلع بهنَّ من أُفق العظمة الشخصية في الدنيا المعتكرة الخابطة في دياجير الفساد الخلقي منيرات زاهيات بدور الفضائل وبدور العمل، ما أعجبه وهو يتلوهن على مسامع الدهر الضليل ليخشع لهنَّ منقاداً مسحوراً، آيات بيّنات تنزّلن من علياء الخليقة المطوية والبادية، والفعل الظاهر الجاهر.

خذ إليك من شمائله (الحلم) خير سمات العظماء ذوي القلوب الكبيرة والحلوم العالية، فإنَّك ستجد الحلم في دنيا الإمام أمراً عميقاً معناه، بعيداً مداه، عزَّ على فطن النابهين بلوغ ذراه، تجد الحلم في حياته الزكية شمساً مشرقة بهية تزيدها إشراقا وسناءً، وتغمرها حُسناً وبهاءً.

لقد قرن الإمام نفسه بالحلم مذ عرف أنَّ الله يحبه ويرضاه ويرتضي أهله، وأنَّه سجيَّة من سجايا النفوس الرفيعة، وأنَّ سياسة الناس والقيام بأُمورهم الثقال لا تستقيم بدونه، فما زال والحلم صاحبين لا يفترقان،

وقرينين لا ينفصلان، قد ربطت بينها آصرتان، آصرة النفس العلية التي لا ترتضي غيرالفضائل والمحامد والخلال العظيمة، وآصرة الحسن والسُّمُوِّ والخير في تلك الصفة المرضية؛ تُحبِّبها إلى نفس الإمام وتُدنيها منها، بل تُحِلُّها منها محلَّ الشُّغاف من القلب، أو تضعها موضع القلب من البدن، إمَّا أن يبقيا سواءً، وإمَّا أن يفترقا معاً، لا يغادر أحدهما الآخر قالياً ولا زاهداً، بل ولا ساهياً، وكذلك هي الخِلال العالية إذا أضحت للنفس السامية لباساً تلبسه، وجلباباً ترتديه، ومنهجاً تقتفي فيه أثر النفوس المطهرة المعصومة.

تلك هي عصبة الظلم والإرهاب (الساواك) التي رزح شعب إيران تحت كلاكلها الثقيلة أمداً من الدهر.. رأى فيه فظاعات الأحوال، وفدائح المحن، وفواقر الخطوب، وغرائب شؤون التنكيل، ابتدعها فكر شيطان للأسياد الظالمين، وتحرّكت لها جوارح الأذناب الأذلّاء طاعة ومخافة، فكم من فقيدٍ ٱحتبلته شراكها، وغاب في أطوائها فلا أثر له! وكم من زكيٍّ طاهر ٱمتدت إليه يدها الغليظة فسطت به وغيَّبت وجهه المشرق عن وجه الدنيا! وكم من رهينة عذاب كانت تتجرَّع صابه الأليم ألوانا وأفانين، وحبيس أطواق يعاني فيها ما يعاني، وثكلان هارب حيران في البُلدان يطلب النجاة ضالَّة وقد لا يلفيها! وكم من حرَّة كريمة أعلقتها حبالة البغي ففعلت بها ما فعلت! وكم من ثائر وطالب حق – علويٍّ وغير علويٍّ – قد ٱرتهنته عرامة الجور، وأدمت معصميه الأصفاد، فهم بين قتيل وسجين وشريد وطريد كلُّ أُولئك كان جرم (الساواك) وبغيهم وعدوانهم، فكيف كان فعل الخميني بهم بعد أن ظفر بهم؟ وكيف عاملهم على ما جنت أيديهم بعد أن أمكنه الله منهم، وهو لا ينسى ما فعلوه به نفسه، وما اجترحوه معه من الظلم الفادح، ولا يغيب عن باله أنَّ منشوده العظيم قد حالت بينه وبين الواقع أمداً طويلاً تلك العصبة الجائرة ذات الفظائع والمنكرات، ولقد ختلته عن أمره، وحالت جهدها الجهيد دونه.

لقد أخذ الإمام مَنْ نالته يده منهم من كبرائهم، ومن تلطّخت يداه بدماء الأبرياء فاقتصَّ منه وأقام حكم الله فيه، ثم قال للباقين قولة جدّه المصطفى على ثرى المسجد الحرام بعد الفتح المبين لمن ظلموه وحرموه وناوءُوه، وفعلوا به وبأصحابه الأفاعيل **«إذهبوا فأنتم الطلقاء»**، فشمل الـ (ساواك) حلمُ الإمام الواسع، وعمَّهم عفوه الكبير، وباتوا أسرى نعمة كبرى وفضل جسيم ممّن لم يرَ منهم غير المكر والبلاء والعناء، ثم راح يوصي أُمته المفجوعة ببأس الـ (ساواك) وبغيهم أن لا يجرُّها الغضب والانفعال إلى الخروج عن حدود الله معهم كما فعلوا، وألّا تقسوا عليهم كما قَسَوْا عليها، وأن تحلم عنهم، وتستر عليهم، وتُفيض عليهم من سحائب رأفتها ورحمتها شآبيب الفضل والإحسان.

وإنّي لأتمَثَّلُهُ وقد وقف أزاء هذه الثلة الظالمة بعد النصر والظفر ليقول لها: «أنسيت أيَّتها العصابة النّابية الخؤون إذ طلعتُ عليكِ بالهدى والرشاد أُريد صلاح الأُمة وهناءها، وعزَّ البلاد وٱستقلالها، وأُريد لك الأوبة عن طريق الغيِّ والبغي، والرجوعَ عن مسلك الفساد والإفساد، فإذا أنتِ على سجيَّةِ أمريكا ودأبها وطوع رأيها، ورهن إشارتها، هدرتِ كالبركان وزعقتِ كالقاصف وٱندفعت صوبي وصوب الأمة من حولي بكل بأس الغلظة والشراسة، وأنا لم أطرقْ بابَكِ بيد السوء، ولم آتِكِ بنيَّة الشرِّ والعدوان، بل جئتكِ رحمةً وحناناً وإحساناً! أنسيت كيف قمتِ في وجهي زاجرة شاتمة، فمحاصرة مجعجعة، فمعتقلة حابسة، فإذا أنا بين جُهّالِكِ وضُلّالِكِ تتعاورني أيدي المساءة منهم، وتتقاذفني أمواج التبريح من سُبابهم وبذاءتهم، ليقوموا بعد ذلك بالجرم الأنكى فيفصلوا — بزعمهم — بيني وبين أُمتي، ويحولوا — كما يأملون — دون إتمام رسالتي، فيبعدوني عن بلادي إلى ديار الغربة والوحدة حيث المحنة والشدة، ها أنذا اليوم مقبل عليكِ منتصراً بفضل ربّي، ولكن هذه الصفحة التي أتلو على مسمعك من سطورها بعض ما كان منكِ ليس لها في قلبي إلّا مكان الإشفاق والرأفة، لا

الغيظ والنقمة، فأنتِ جاهلة غافلة مضلَّلَة، جهلتِ الحق، وغفلتِ عن الصواب، وأضلَّكِ المجرمون، فلستُ الساعة بسيف الثأر قصدتك، ولا بمرهف التشفّي أتيتُكِ، إنّما جئتكِ ببالغ اللّين والرحمة، أُريد أن أُجزي الإساءة بالإحسان، وأردَّ الأذى بالإنعام، لتعلَمِي أنّي لا يزيدني صرفُ العمى والبغي إلّا رحمةً وإحساناً، ولا يزيدني كرب الغيِّ والجور (ينالان مني) إلّا عَزماً وعنفواناً.»

وأُولئك الذين خدموا الشاه، ودخلوا مؤسساته دخول الموالين المعاضدين قد ولهت عليه أنفسهم، أو الراضين المستبشرين، أو الساكتين غير الساخطين، ماذا فعل لهم قائد الثورة بعد أن دكَّت ثورته العاصفة حصون الضلال وقلاعه، وأورث الله الصالحين إيران وآستخلفهم عليها، ومكَّن لهم فيها؟ إنَّه لم يبطش ولم ينكِّل بهم، ولم ينقم منهم ما فعلوه في سوالف أيّامهم، فما سامهم خسفاً، ولا ساقهم عنفاً، ولا شفى من دمائهم بواتره، ولا ملأ بهم سجونه، لقد صفح عنهم حتى كأنَّه نسي سوءهم، وعفا عنهم عفواً أحسَّ له الكثير منهم عظم العفو على منكر الذنب وفادح الخطأ، ووَدُّوا لو تمهلهم الأيّام حتى يخدموا في شؤون هذه الجمهورية ليكفّروا عمّا سلف، ويغسلوا عار الماضي بشرف السعي للاسلام، ويمحوا بضياء فعل الصالحات ظلماء القبائح والآثام التي أتوها، ويُذهِبوا بالحسنات تلكم السيّئات، وحين آرتفعت العقائر من هنا و هناك تدعو إلى طرد عمّال الحكم الذاهب من مرافق هذا الحكم الميمون لأنَّهم أرجاس ظالمون، لم يكن لهم في هذه الثورة مكان، ولا في نصرتها سلطان، بل كانوا لعدوِّها خادمين، وفي مكروهها ساعين، ارتفع صوت الإمام الحليم ألّا يُطردمن عمله إلّا من مدَّ يده في الدماء، أو أعان الظالمين في ظلمهم، أمّا سواهم فيبقون حيث هم غير مضارِّين ولا مقصِّرين ولا متَّخذي سبل الكيد، ولا ساعين في الخراب.

بل إنَّ حلم الإمام ليتعدَّى أطواره هذه إلى طور عجيب، ملأ القلوب دهشة، وأبدى للدنيا وجهاً من الحلم كانت تقصُّه عليها أخبار التاريخ

الغابر من شؤون النبيّين والصدّيقين وأحوالهم، إنَّه الحلم عن ألدّ أعدائهم، وأضرى الوحوش الكاسرة التي نهشت في لحومهم وكرعت في دمائهم، حلم النبي عن أبي سفيان ووجوه الشّرك والطُّلقاء أجمعين، وحلم عليٍّ عن أكابر النّاكثين وسواهم.

ولقد حلم الإمام وعفا لدواعي حلمه وسياسته وصالح بلاده ودينه؛ عن وكر الفساد وأيدي الشيطانِ، والعقل المدبر للظلم والطغيان في إيران، رهائن السفارة التي كانت كاهلَ البغي وسنامه، ودليله وإمامه، تشير به فتسمع، وتأمر به فتطاع، لقد دمدمت عليهم الأُمة المظلومة فدخلت عليهم عقر دارهم ومستقرَّهم في أرضها، وهمَّت أن تسطو بهم بغيظ مائر وسخط ثائر، لكنَّ إمامها الحليم الحكيم قد ٱتَّسع صدره حتى كأنَّه أوسع من هذه الدنيا، وتعاظم حلمه حتَّى كأنَّه لا يملك النقمة، وتعالى عفوه حتى كأنَّه لا يعرف العقاب. ويؤوب الظالمون إلى بلادهم لم يصابوا بأذى، ولم يتعرَّضوا لمكروه، بل إنَّهم لم يروا غير الإنعام والإحسان اللَّذين أسَرَا في الكثيرِ منهم قلوبَهم وضمائِرَهم فراحوا يلهجون بذكر الفضل عليهم، والإحسان إليهم، على عظيم جرمهم وكبير سوئهم، لينوِّهوا — وهم يشعرون أو لا يشعرون— بعظمة الاسلام، وعلوِّ أخلاقه وشمائله، وبجلال قدر الإمام في محامده وفضائله.

ومثل هذا وأكبر منه كان من إمام الحلم مع من شَنُّوا عليه الغارة الرعناء، وصالوا عليه صولة الوحش الكاسر، وداسوا الكثير من مصالح بلاده وحرماتها دوس الحصيد، وٱنتهكوا الأعراض، وقتلوا الأبرياء، وخرَّبوا العمران، وهدَّموا بيوت الله لا يريدون — أو يريد منهم أسيادهم— غير الإسلام أن يبيروه، وغير الحق أن يطمسوه، وغير نور القرآن المتشعشع أن يُطفئوه، وغير حكم الإسلام أن يمحوه ويزيلوه، قد ٱستخفَّتهم جاهلية العصر فهجموا على جمهورية الإسلام الفتيَّة اليافعة، وجسَّدوا في ذلك تاريخاً كاملاً من الظلم والجور والعدوان، حتى إذا شدّت عليهم أُمَّةُ الحق شدة الهزَبْر

على الحمر فأبسل من أبسلَ شقيّاً، وفرَّ من فرَّ مخزيّاً، ووقع في الأسر من وقع، لم يكن جزاءُ هؤلاء من الإمام إلّا الحِلمَ، يريهم حلم الإسلام ورحمته، ولم يُقابَلُوا بغير الصفح والستر، يعرِّفهم كرم الإيمان ورأفته، بل تمادى ذلك الحلم في السعة حتى صار المحاربون المتجاوزون عند الإمام ضيوفاً وأحباباً، مترفِّعا بهم حتى عن تسمية (الأسرى).

ثم هلمَّ الخطب في المنافقين أصحاب القلوب الدويّة والنفوس الغويّة، أشرار الخلق وأوباشهم، ماذا صنعوا؟ وبأيِّ وجهٍ طلعوا؟ لقد أتوا بهن بائقات ظاهرات، وحازبات فاقرات، شنُّوها بين الأحناء حرباً ضروساً على الإسلام وهو قد شغل وتوزعت فكره وقدرته. الحروب الضاريات شُنّت عليه من كل صوب؛ حربُ السيف وحرب المقاطعة، وكانت قبل هٰذين وبعدهما سجالاً حربُ الإعلام الظلوم، يحرِّف الكلم عن مواضعه، ويقبِّح المحامد الحِسان موضع الشنآن، ويبهت أكبر البهتان.

في هذه المعمعة الثائرة قام المنافقون ليعلنوها حرباً أُخرى ليس من نكر القول أن يقال فيها إنها الحرب الأضرى، والفتكة الأنكى، لو بلغت حيث تريد لأصابت المقتل، ووجدت ضالّتها.

وحين تؤدي الأُمة المجاهدة دورها ووظيفتها، وتصدُّ هذه الحرب الغاشمة صدّاً مقتدراً بالوعي والصبر والمراقبة والحذر، حتى تقشعت سحبها الدكناء، وتكشفت لياليها السوداء، ودارت دائرة السوء على الذين ظلموا، فهم بين هالك مثبور، أو مستسلم مأسور، أو خانس مجحور، يطلع وجه الحلم الخميني ليهشَّ لهٰؤلاء المارقين، ويبسم في وجوههم بسمة العفو والصفح، يدعوهم إلى الاستقامة والرشاد، والنأي عن دروب الفساد والإفساد، والأوبة إلى أفياء الدين الفيحاء، وعودة الهاربين إلى ربوع بلادهم الزهراء صادقين في أوبتهم، مخلصين في عودتهم، بعد أن أحسُّوا بأس المروق وغمَّه، وذاقوا مرارة الخروج على الإسلام والأُمة.

في موضع النكال كان منه الغفر والستر، وفي موضع العقوبة كان

منه المنُّ والإحسان، وفي موضع الأخذ بالعدل كان منه المعاملة بالفضل، وكان أكبر آمتنانه أن صيَّر لهم السجن والقيد مدرسة للحرية، وفجَّر لهم منه ينبوعاً من الوعي يَرِدُونَ عليه مغفلين مضللين ليصدروا منه واعين مدركين، قد عرفوا الحقيقة وهم إليها ظماء، وأبصروا نور الواقع الذي غاب عن عيون بصائرهم وراء ظلمات التجهيل والتضليل، وكثافات الشبهات والافتراءات.

ثم إليك هذا الذي كان من بني صدر وفتنته الشوهاء، وظلمته العمياء، التي عشا البعض عن البصر فيها، فضلُّوا سواء السبيل بادي النظر وأول الأمر.

لقد كانت المحنة بذاك الشقيِّ الغويِّ محنةً تنوء بحملها الجبال، وكانت فتنته الخرقاء أشدَّ على القلوب من وقع النصال، فمن مقامه في الدولة، ونفوذه بين رجالها، وتقلُّدِه لزمام خطير فيها، وما عنده من طاقة الكذب والبهتان، وما في وسعه من قدرة التحايل والخداع، فلا وازع من التقوى يزعه عن الآثام، ولا رادع من الورع يردعه عن اقتراف المنكرات، ولا حاجز من حب الدين أو الوطن يحجزه عن أن يقصدهما بالبوائق، وكانت شؤون وشؤون تمنع عن فضحه بادئ ذي بدء، وتلزم بالسكوت على أمره وهو الذي خان البلاد، فمكَّن منها أعداءها، وأعان على اغتصابها وبقاء الغاصبين على ترابها، وخان الامة، فراح يكيد لها ليعيدها إلى العبودية المقيتة التي آشترت الخلاص منها بنهر من الدماء من مهج أبنائها الأزكياء، وولَّى جاهداً يبث الفتن وينشر الأحابيل، ويؤلِّب الأغرار، ويحرِّك الأشرار، ولا ينفكُّ هو في كلِّ محفل ينفث سمَّه الزعاف، فيخلق الحوادث النكراء، ويأتي بالبلاء يتبعه البلاء، هذا والخطب متلاطمة أواذيه، عاصفة رياحه، والمحنة الكبرى محنة الحرب صخَّابٌ موجها، هدَّار تيَّارها، ولـمَّا تزل بعدُ في فورتها وحدَّتها، الأرض محتلَّة مهتضمة، ونار العادين المغرورين بالنصر الزائف تصبُّ على أطراف البلاد الغربية والجنوبية،

وقذائفهم وصواريخهم تخرِّب البيوت على أصحابها.

ولقد كانت فرصة ألفاها بني صدر سانحة لئن فاتته فقد فاته مرامه الذي ينشده، ومحبوبه الذي يبتغيه.

وكان الامام على كلِّ هذه الحال مع ذلك الشقي الأثيم يفيض حلماً وسماحة، فلم يفضحه بل ستر عليه وأمر بذلك، وصفح عنه وأوصى بالحسنى معه، عساه يعود إلى الصواب ويرجع عن غيِّه، فمازالت الطريق إلى ذلك مشرعة والباب مفتوحة، حتى إذا طفح الكيل، وبلغ السيل الزُّبى، نفَّذَ الإمام الحازم وعده بقطع الأيدي التي تمتدُّ بالسوء إلى حريم الإسلام تريد النيل منه أيَّ نيل، ولم يعد في الصدر الخميني متَّسع لعبث العابث، وكيد الكائد، وغدر الخائن.

ولا يذهبنَّ عنك حلمه المشوب بالحكمة في قضية (فلان) مع قطب زاده وشركائه في المكر لغيظ في نفسه قديم، وحسدٍ في قلبه جسيم، يؤزّانه أزّاً إلى الكيد بالإمام، ويحضّانه حضّاً على الإيقاع بالسيد المطاع، لكنه وقع في البئر التي ٱحتفر، وحاق به مكره السّيئ فافتضح على رؤوس الأشهاد، فنقم عليه الأقرب وكرهه الأبعد، ونفر منه السواد الأعظم، ولكن ماذا فعل الإمام معه جزاءً، وكيف عامله على ما بدر منه؟

لقد كانت معه — على شأنه — سعة الصدر كالفضاء العريض تصبح فيها الجرائر العظام هفوات صغيرة تغتفر، وتكون عندها الخطايا الكبيرة هنات يسيرة تُنسى وتُستر، ويأمر الإمام أُمته أن لا تسفِّه فلاناً بعد ذلك اليوم، ولا تشهِّر به.

هذا وغيره كثير من شؤون الحلم عند الإمام ذكرناه شاهداً لا استقصاءً، وآيةً لا إحصاءً، كشأننا في كل مُثُلِهِ التي تعرَّضنا ونتعرَّض لها، فأخلاقه وسجاياه بحر واسع جمة لئالئه لا تحصى، كثيرة بركاته ومنافعه لا يحاط بها، ثم هو بعدُ؛ بعيدُ الغور لا يدرك، واسع المدى لا يرى له ساحل، خضمٌّ متلاطمٌ لا يسهل الخوض فيه.

الشجاعة والاقدام

ماذا عسى اليراع الضاوي الكليل أن يبديَ أو يقول في بضعة المصطفى وحفيد المرتضى في مزية الشجاعة والإقدام التي ورثها — وهو أحقُّ — بها كاملة غير منقوصة، فعاد بها الهمام الباسل، والبطل الضرغام، صاحب القلب الصليب، والعزم العجيب، لا يُجارىٰ في بطولته ورجولته، ولا يُبارىٰ في جرأته وحماسته، ولا تُحافَل آثار بسالته المعهودة، ولا يُساجَل خصمٌ شجاعته المشهودة، قد طلع على دنيا اليوم فحيَّرها، رجلاً لم تُبصر له مثيلاً فيما ترى أو تسمع فيما بين يديها ومن حولها، قد لبس الشجاعة ثوباً زَيَّنه وزَيَّنه، وٱكتسى البسالة بُرداً أخذ سحرُه مأخذه من نفوس الناس وعقولهم، وٱنتضى الحماسة سيفاً مرهفاً كحدِّ الموت يخلع القلوب الشداد، فأتى بها ألواناً قد ٱستعصت على الخيال قبل اليوم من فنون الجرأة والإقدام، وكحَّل ناظِرَي المجد والعلاء بِمِرْوَدِ العزيمة والمضاء، أمثال هذا الأمر الفريد قد تربو على الحصر والتحديد، وشواهده الغرُّ الحسان تفوق التعداد والتبيان، وإذا كان للبعض منها قدرة الدلالة على حقيقة الكثير الوفير منه، فليكن لهذا البعض الذي نذكره هنا تلك القدرة لتغنينا عن العناء في العد والإحصاء، والنصب في الاستغراق والاستقصاء، فذلك أمرٌ عياء عسير، لا تقوم به العصبة أولو القوة والتدبير في عالم الفكر الرصين، والنظر المتين.

ذاك هو الإمام الهمام في الفتنة المرجفة، وظلماتها المغدفة، والبلاء المستطير وفظاعات الشرور أيّام كانت أمريكا كالوحش الكاسر تنهش اللحم، وتهلس العظم، وتتخذ من إيران مباءة تفعل فيها ما تشاء، ومرتعاً تأكل فيه

حيث تريد، لا يناصبها العداء الا من لا يبتغي سلامته، ولا يناوئها الا من يعرض للسيف هامته، في محنة فقماء عمياء، سكت فيها قومٌ طلباً للراحة والسلامة، وسكن إليها ضلالاً قوم آخرون فزاغوا بعد الاستقامة، وخمدت فيها الأنفاس ما خلا أنفاس الأكياس، ٱحتراساً وخوفاً، أو وهناً وضعفاً.

ودوّى في هذا الصمت والسكون صوت جاهر مبين، هو صوت الخميني كالرعد القاصف، وثار فيها بأسه كالريح العاصف، وطلع على الباطل المكين، بوجه أغلظ من وجه المنون، يحرِّك الهمم الوانية، ويستثير العزائم الدانية، بل يبعث روح الحياة في أُسارى الخوف كالأموات، ويستنهض أُمة الإسلام إلى الوثبة والقيام، يناشدها ملتاع الفؤاد صون الأمانة العظمى، والجهاد لحفظها وذلك هو الجهاد الأسمى.

فمن كان أقدر من الخميني على إطلاق تلك الصرخة؟ ومن كان غيره أجدر بأن يهدُر بذلك النداء الأقدس؟ ومن سواه قام ممتشقاً حسام البأس يريد درء الضَّلال وردَّ الباطل وصدَّ العدوان، ليستبدل ذلك بالهدى والحق والعدل، وينشر على أُمته المُهانةِ المُضامةِ لواءَ العزة والكرامة، ويبُثَّ في أحنائها حلاوة العيش الرغيد، في رحاب الإسلام ذلك النهج الفريد؟

من كان عداه يهتف بسقوط التيجان المتجبِّرة، وتهاوي العروش الطاغية، وٱنهدام الصروح المزيَّفة على أهلها؟ ومن كان غيره يصدح بالنداء الحق حيث ٱستشرى الباطل، قد عبَّأ سلاحه المهول، وأحمى مواسم العلاج المخوف، قد فتح أبواب السجون تضمُّ بين أحنائها رجال الحق، تقتل من تقتل، وتستحيي من تستحيي، وأطلق عنان النار تفعل في الأُمة فعلها في الهشيم، وبثَّ الرعب في الأُجواء، ونشر الهول في الأرجاء؟

لقد كان هو، ولم يكن غيره، وإنَّه لروح الله، بأس من الله يهد حصون الشر واركانه، وحول منه يدكّ صروح البغي وأوثانه، لا يساوره خوف يردُّه عن مطلوبه، ولا يخامره وجل يصده عن مرغوبه، ولا تَعْلَقُ قلبَهُ

الصَّلْدُ الجسور حبالةُ الخشية فيضعف أو يخور، ولا تحتبل عزمه أوهاق الرهبة فينحني، وليس في وسعها إذا هي همّت به أن تلويه فينثني، ولقد كانت الشجاعة أحد موروثاته من آبائه العظام، وإحدى عطاياهم له عبر الأصلاب والأرحام، فله منهم سجية ألّا يخاف طاغوتاً، بل يخافه الطاغوت، وله منهم خصلة ألّا يرهب ظالماً، بل يرهبه الظالمون، وله منهم ألّا يعبأ لأجل الحق بالأهوال، ولا يلين له عزمٌ مهما ساءت به الحال، وثبته الصارمة لا تتوقف، وعزمته الدافقة لا تنضب، وصرخته الهادرة لا تخفت.

ذاك هو في (باريس) بعد أن حارت به الدروب، ورفض طغاةُ بغداد — معاضدةً للشاه واسناداً له— أن يبقى الإمام في مهجره (النجف) يقود ثورته ويؤدِّي رسالته، ثم جاء رفض الكويت على خطىٰ رفض العراق ولغايته، وحين لم يجد غير باريس لم تقف به الخشية دون ورودها ومواصلة الجهاد من على ثراها وهي أُخت الأُمّ التي أنجبت الشاه وملّكته سياسةً وجبروتاً واستعماراً، لا يميِّزها عن أمريكا شيء في الأمر إلّا أنَّ هذه ذات اليد الطولىٰ في إيران وتلك في غيرها، قد اتَّحدا مسيراً ونهجاً، وتماثلا غاية ومقصداً، فكيف يأمن الثائر الذي عَيَّتْ أمريكا بالمداواة من دائه العضال الذي استغلق قلبها، وأمكن له فريسة هينة — أن يدخل ديار الغرب يقود الثورة ضده ليسقط تاجه الذي نصبه في بلاده، ويحطم عرشه الذي صنعه له، ويهزم أذنابه وعملاءه الذين مكّنهم من زمام الأُمور فيها— كيف لا يخاف وهو يثوي على أرض فرنسا من كيدأُختها أمريكا، وليس قتله أو إخفاؤه إلّا أيسر شيءٍ تكيد به مثلَه من أعدائها، وتنجو به من بلاء مثله من خصمائها، ويأبى الباسل المقدام أن يخضع للهاجس المريب، أو يستجيب لنداء المخاوف، أو يسمع لداعي الحيرة والتردد، بل مضى هماما جلداً فوطأ هام الغرب بقدمه كما وطأها قبل ذلك بثورته، وقاد النصر عليه من على ثراه، ومن بين يديه غير هيّاب ولا خائف ولا مستعطِف ولا متملِّق.

ويكفيك من أمر الشجاعة والإقدام عند الإمام ذلك الأمر الذي

كلَّت عن أن تلمَّ به كثير من العقول، وسجدت له في محراب الإجلال والإكبار خاشعة قلوب الملايين من كل صوب والهة ضارعة، بل لقد عشناه حقيقة هي أدنى إلى الخيال والأوهام، ولمسناها لمساً متجسدة في الواقع قضية هي أقرب إلى شؤون الأحلام، تلك القضية العجاب، آسرة الألباب، قضية الطائرة تنقل الثائر العلوي على متون الأهوال والمخاطر كسفينة تمخر عباب اللُّجِّ الهادر، تنتابها الأعاصير فتتقاذفها الأمواج، هكذا هي كما ينبغي لها في الفكر والشعور عند من يركبها ليغزو ــ أعزلَ ــ عقر دار العدو الأشر المتربِّص العاضِّ على ناجذه تغيُّظاً وتأهُّباً، عبر طريق في الفضاء طويل طويل، تقوم من تحته بلدان يحكمها مغيظون حانقون لما حل بالمأمور ورفيق الدرب، وأُخرى خائفة فزعة لما يتفجَّر في إيران من ثورة الإيمان، وليس شيء أسهل عليها من قذيفة تُطلقها لتنتهي مأساة الغرب التي لم يُلفِ لها نظيراً طيلة عمره، وتغرب محنة الاستعمار التي ما عرف مثلها سحابة دهره.

ويركب الإمام تلك الطائرة من باريس مولِّياً وجهه صوب إيران الثائرة، لم تعرف الخشية إلى قلبه سبيلاً، ولا أخذ من نفسه الخوف مأخذاً يهدُّ قواه، أو يَحني عزيمته، لقد كان صلداً لا يستفلُّ كأنه قد قُدَّ من جبل، راسخ العزم كأنَّه الطود الأشمُّ، ويمضي وقته في الطائرة كأيِّ وقت يقضيه في حال من أحواله المألوفة عنده، متحدِّثاً باسماً وادعاً على هدوء كامل، وسكينة شاملة، وأعجب ما في أمره ثمة إخلاده إلى النوم مع ما يحتاجه مَنْ يطلب الرُّقاد أو يطلبه الرقاد من فراغ البال من الهواجس والهموم، وخلاص القلب ممّا يغيِّر صفوَه من المكدرات.

وتروح صفحات اللَّيل تنطوي، وأشلاؤه يمزِّعها تقضِّي أوانها فتهوي تباعاً، والمسلمون في كل مكان والمؤمنون الثائرون في إيران، فيها على مثل المراجل، يسعِّرهم حال المشهد (قائد الثورة) في الطائرة إلى بلاده تحفُّها المكاره، وتحيط بها المخاطر، ويؤجج نار الخوف في أحشائهم ما يأتي به الغد إذا حل الإمام أرضه، واحتضنه شعبه، والباطل ما فتئ ملقيا جرانه، مسعِّراً

نيرانه، فتروح بواطنهم نهباً لسلطان الرهبة والترقُّب لما يرون من الأمر الجسيم، فلا يقرُّون على دعة، ولا يفيئون إلى قرار، وإنَّ عندهم لفورة ثاقبة ليس لها خمود، وإنَّ فيهم لعاصفاً شديداً ليس له همود، لا يسكن معها أحد منهم إلى نوم، وإنْ فَعَلَ فَلِمَاماً مفزعاً منصباً.

وينزل الإمام من طائرة العودة في طهران ثابت القدم، عالي الهام، مطمئنَّ القلب، رابط الجأش، على شجاعته التي حالفته صديقاً لا تفارقه حتى في عظائم الأُمور، ورفيقاً لا تفصل بينها وبينه كبائر الشؤون أو اختلاف الأحوال.

قال بعض رفقائه في النجف: حينما صرنا نضنُّ بسلامة الامام ونحرص عليها، ونحوطه حراسة له في مجيئه ورواحه، ونشدِّد في ذلك حينما يذهب لزيارة جدِّه أمير المؤمنين، ذلك بعد أن أتتنا الأنباء بأن الشاه قد بعث من أُجرائه من يجهد في قتله، وحين أبصر منا هو ذلك عنَّفنا آبيا إلّا أن يسير وحده ليعبِّر بذلك عن معان ثلاثة:

أولها الشجاعة والبسالة تجعلانه يستصغر الظالم وكيده،

وثانيها، أنه على بيِّنةٍ من أمره وبصيرة من ربه يُصيِّرانه على ثقة بالسلامة ويقينٍ بالحفظ والتسديد حتى يُتِمَّ الله له أمره.

وثالثها، أنه لا يريد أن يُفصَلَ عن أُمته حتىٰ بحاجز الحماية، أو أن يفرَّق بينه وبينها بأطواق الحفظ والحراسة في غير ما داع معقول إليها، وكان يقول لمن يجهدون في إبعاد الناس المحتشدين عليه شوقاً ولهفة حرصا منهم على سلامته، (لا تؤذوا الناس، دعوهم وشأنهم، كي لا يحدث لا سمح الله ما يسيئ إليهم).

وليكن ختام هذا الفصل تلك الكلمة الرائعة لآية الله الطالقاني يعبِّر فيها ــ أصدق التعبير، وأوجزه لفظا، وأوسعه معنى ــ عن حقيقة هذا الجانب في صفات الإمام ومحامده، إنه يقول:

« كلما أحسست بالضعف وفتور العزيمة ذهبت إلى قم لأستلهم

البأس والقدرة من قائد الثورة» .

الرفض والإباء

لعل أروع ما ورث الإمام من جده السبط صريع كربلاء، سجيَّة الرفض والإباء، سجيَّةً قد سرت مع دمه في عروقه فنهلت منها أنحاؤه، ونمت عليها أعضاؤه، ونبت عليها لحمه، فهو ذلك الأبيُّ الذي لا يعنو للذلّ، ولا يرضى بالضيم، حسينيُّ النداء (هيهات منّا الذلَّة)، وهو ذلك الرافض لكل ألوان الظلم والباطل، المنادي بأعلى صوته، «تبًّا للطواغيت وجاهليّاتهم، وتعساً للجبابرة وضلالاتهم، وبؤساً لمن رضي بالمذلَّة والهوان، وركن إلى الطاغوت أو آستكان».

لقد تجسَّدت حياة الامام رفضاً وإباءً، وما عتمت أبيَّة رافضة، تأبى غير الحق والإيمان، وترفض غير حكم القرآن، تأبى التسليمَ والخنوع، وترفض كل تبعيَّةٍ وخُضوع، تأبى تسلُّط الكافرين على مقدرات المسلمين، وتأبى أن تكون بلادهم مباءة لشهوات الظالمين، تأبى أن يتنعَّم بخيرات بلاد الإسلام أعداؤه، وترفض أن يعيش جياعاً محرومين أبناؤه، تأبى أن يتفرَّق المسلمون أيادي سبأ ممزَّقين متناحرين، وترفض أن يكون زمام ملايينهم بأيدي نفر جناة معدودين، تأبى أن تذلَّ لإسرائيل أُمةُ القرآن فتقهرها، وتجني معها أبشع الجنايات، وترفض أن يسكت المسلمون عن عدوهم المشين بالركون إلى حكّام العمالات، تأبى أن تظلَّ القُدس مسرىٰ الرسول تستصرخ الهامدين هل من سبيل للخلاص من دنس الأرجاس الطغاة؟، وترفض أن تئن جريحة أُولى القبلتين تحت سياط اليهود الجفاة، تأبى أن تعيش أُمة الإسلام في إيران ذلَّ الاستعباد والاستضعاف، وترفض

أن يبلغ الأمرفي آمتهانها حدَّ الاستخفاف، تأبى أن يكون للناهبين الأمريكان حصانة تقيهم عقوبة جناياتهم، وترفض أن يكون أهل البلاد مطايا ذُلُلاً لهم يقضون عليهم رغباتهم، تأبى أن يقبع الطواغيت في الصروح والقصور، حيث ينام المظلومون في كل مأوى حقير، وترفض أن يعبث بالمال لصوص الحكم العابثون كما يشتهون، بينما تحنُّ للقرص بطون الغرثى والجائعين، تأبى أن تحكم في إيران شريعةُ الشيطان، وطمس معالم الهدى والإيمان، وترفض ألّا يسترخص المؤمنون نفوسهم جهاداًلله، وألّا يبذلوا كلَّ غال ونفيس دفاعاً عن حريمه وحماه، تأبى غيرَ حكومة العدل تخفق أعلامها في البلاد، تنعش بعد عذاب الحرمان قلوب العباد، وترفض غير ثورة الإسلام تدكُّ قلاع الباطل والغواية، وتمحو دياجي الضلال وأسداف العماية.

إنَّها النفس الخمينية الأبيَّة قد آستعْلَت بإبائها عن كل معاني الذلَّة ومواطنها، وترفَّعت بعزَّتها عن كلِّ ألوان الهوان ومواضعه، وأنِفَتْ لحمية الإسلام أن تسكن حيناً من دهرها على ضعة، أو تسكت يوماً من عمرها على باطل، أو تقرَّ للظالمين إقراراً وإذعانا، أو ترضى لهم فوقها سلطاناً، فضلاً عن أن تكون لهم في عنقها بيعة فيكون على عاتقها أوزار منها تنقض ظهرها.

إنَّه الأبيُّ الذي أبى ذلك كلَّه لنفسه وأباه لأُمَّته في إيران ولأُمة الإسلام في كل مكان، وها هو يسعى بها على الطريق إلى تمام مصداق الإباء رويداً رويداً، ويحرِّرها — بالرفض الثائر — من ربق العبوديات، ويخلِّصها به من شرِّ التبعيّات.

لقد كان أبلغ رفضه وإبائه يوم أعطى عبدُ أمريكا (الشاهُ) لأتباعها في إيران حصانةً لا تطالهم معها قوانين البلاد إذا هم أجرموا في حقِّ الأُمة التي آستعبدوها، وهم في سعة من تلكم القوانين حتى تفصل في أُمورهم محاكم بلادهم، أمّا إذا أساء إليهم أحد من أبناء هذه البلاد التي رتعوا فيها رتوع البهائم في الربوع المعشبة، فإنَّه يجازىٰ جزاءً يكون نكالاً لما بين يديه،

وعظة وعبرة للمعتبرين.

يصوِّر الإمام هذه الحصانة بقوله: «لو أنَّ أحداً دهس كلباً أمريكياً بسيارته فإنَّه سيكون عرضة للتحقيق والملاحقة القضائية حتى لوكان ذلك الشخص هو (الشاه) نفسه، أمّا لو دهس طباخ أمريكيٌّ (شاه إيران) نفسه فلا يمكن ملاحقته قضائيّاً».

لقد مكث الإمام بعد سماعه لنبأ «الحصانة» على تارات هي كتارات شخوص الموت، وأهاويل حلوله، لا يستريح من فورة عنائها إلّا إلى فترة خلت من أُنسه بحالٍ مرضية ممّا يحلُّ بأُمته من فجائع الأُمور وعظائمها، ولا يركن في هيجٍ موجها إلى زافر عاصم أوحصن دافع، ولا يقوم في عاصفها بجناح قوية أو يد ليست الساعة جذّاء.

لقد تكثَّفت عليه الآلام، وتكنَّفته الغموم، وتكشَّفت بقتام ما يرى وظلام ما يسمع بقية الصحو وثمالة الضياء، فالظلمات الخانقة مطبِقة، والعناء الموبق مغدِف، وسحائب الإيلام مغدِقة ووابلها في سحٍّ واصب، وهذه سنابك الأذى تدوسه بالفظاعة، وهذه سورة التبريح تخضم فيه خضماً، ونيران الشجن المستفحل، تطوف بالأرزاء في أنحائه، كلُّ ذلك من مرآى أُمته مهانةً مُضَامَة، مستباحَةَ الحِمَى، قد سُلِبَت كرامُتها، وَدِيست حُرُماتُها.

إسمعه يقول في هذه القضية:

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أنا لا أستطيع أن أُظهر كلَّ ما في قلبي من آلام. لقد غلب عليَّ الهمُّ والسهاد، وياليتني مت قبل هذا، فلم أُشاهد هذا العار، ليس لإيران بعد اليوم من عيد، لقد صيَّروا العيد مأتماً.

إنَّهم باعونا، وباعوا آستقلالنا، في وقت أوقدوا فيه المشاعل، وأقاموا حفلات الرقص العامة، لقد داسوا كرامتنا، وأذهبوا عزَّتنا، لقد صادقوا على قانون الحصانة الذي ألحقنا بمعاهدة [فينّا]».

ثم راحت تترى متنزلة من وحي عليائه وإبائه آيات الرفض والإباء

تخشع لها قلوب الأحرار الأُباة؛ فيستجيبون ثائرين هادرين يلعنون الطغاة، ويعصفون بهم، ويسلكون سبيل الحرية لا يلوون ولا يحورون، ويبذلون سعياً إلى الغاية في نهايتها ما هو أهلها من البذل، ويعطونها ما هي أحقُّ به ممَّن رامها من العطاء والفداء، لا يبخلون ولا ينكلون، فكانت بذلك ثورة الإباء على نهج أُمِّها ومقتداها ثورة كربلاء، وكانت كأصلها يتيمة الدهر، عجيبة هذا العصر، لم تعتم مذ قامت مستثاراً للدهشة ومنبعا للحيرة، تهتن سحائب نعمتها على محبِّيها ومريديها بالعطاء، ويسحُّ عارض خيرها عليهم بالبركات، على قدر ما تتفجر براكينها من تحت أقدام خصومها بحمم العذاب، وتنهلُّ على رؤوسهم بصواعق البلاء، وتمضي تشقُّ طريقها بين هذين الأمرين في جبال الصعاب ومعاوقها، ظافرة منتصرة، لا تعبأ ولا تتهيب ولا تتراجع.

هذه هي خطب الإمام وكلماته ومواعظه، قلِّب طرفك فيها تجدها قد عظم فيها نصيب التأكيد على أن يتحلَّى المسلمون بسجيَّة الإباء، فهم أتباع أُباة الضيم، فلا يخضعون لغير ربِّهم بل يأنفون من الانقياد لإرادة الظالمين ومشيئة المستعمرين، يستذلونهم، ويمتصون دماءهم، ويسلبونهم خيراتهم.

«يا مسلمي العالم الغيارى. استيقظوا من سبات الغفلة وحرِّروا الاسلام والبلدان الإسلامية من مخالب المستعمرين وعملائهم».

«يجب أن ينهض المسلمون وهم على أبواب القرن الخامس عشر، ويدافعوا عن حقوقهم المشروعة، ويقطعوا أيدي الظالمي، خصوصا القوى العظمى الشرقية والغربية».

وتجدها كذلك قد فاق فيها ماعداه أمر التشديد على تخلُّق أتباع القرآن بخليقة الرفض يكسرون بها كلَّ الأصنام التي يقال لهم تعالوا ٱعبدوها من دون الله، وينبذون بها نبذ النواة كلَّ الشرائع التافهة التي تُلقىٰ إليهم ويقال لهم ٱستبدلوا بها قديما طواه الزمان، وشريعة قد عفاها الدهر وأخلقها بقرونه المتمادية.

«يا رجال الاسلام أنقذوا إسلامكم».

«يا علماء النجف هُبُّوا لكرامة دينكم».

«يا علماء قم إنهضوا فإنَّ الإسلام في خطر».

«لو أنَّ الدول والبلاد الاسلامية بدل آعتمادها على الشرق والغرب آعتمدت على الإسلام... ووضعت تعاليم القرآن النيِّرة التحرُّرِيَّة نصب أعينها، وعملت بها؛ لما أصبحت اليوم أسيرة الصهاينة المعتدين، مرعوبة بالفانتوم الأمريكية، ولعبة بيد السياسة السوفياتية الشيطانية».

«قوموا من أماكنكم، وآحملوا القرآن الكريم بأيديكم، وآخضعوا لأمر الله تعالى لكي تُعيدوا مجد الإسلام العزيز وعظمته، قوموا جميعا لله قياما فرديّاً لمواجهة جنود الشيطانِ في باطنكم، وقياماً جماعيّاً أمام القوى الشيطانية، فإذا كان القيام إلٰهيّاً، وكانت النهضة لله فإنَّها منتصرة».

ولسوف تراه فيها يستحث أبناء الإسلام أن يكونوا أُباة ضيم ذاقوا ويلاته وما زالوا يذوقون، وطعموا من مراراته وما زالوا يطعمون وآكتَوَوْا بنار غمومه وما زالوا يكتوُونَ، إنَّه ليعنِّفُهم ويستثير حميَّتهم في أمر وقوفهم أزاء إسرائيل بنفرها المعدودين ضعافا مخزيِّين، لا يردُّون لها — وهم ألف مليون — عدواناً، ولا يدفعون لها بأسا، ولا يستنقذون منها مغصوباً، وقد ولَّى أُمراؤهم وكبراؤهم تعلو وجوههم غبرة الذُلِّ والهوان يتقاطرون تباعاً على أحضانها إسراراً وإعلاناً، ويبدون بالعمل حيناً وبالقول حينا آخر، أو بهما معاً مظاهر الرضى بها والتأييد لها.

«لماذا تحمَّلت الحكومات العربية الصفعات من الصهاينة طوال السنين الماضية؟».

«يجب على الدول الإسلامية وشعوبها الأبيَّة —على آختلاف قومياتها ولغاتها — أن تتوحَّد، وتبذل كل جهودها وإمكانياتها من أجل آقتلاع هذا الكيان الغاصب المعتدي، وأن تكفَّ عن مساعدة إسرائيل وعملائها والسائرين في ركابها ومناصريها».

لقد نصح لهم إمام المسلمين لوكانوا من أهل الإسلام، أو كانوا يحبُّون

الناصحين، ولقد محضهم الإرشاد حرصاً منه على كراماتهم المهدورة، ورغبةً منه في أوبتهم إلى عزِّ الله وعزِّ دينهم، ولقد صدق لهم الوعظ واخلص لهم فيه مبتغياً — على لهف— صلاحهم وهداهم ورشدهم في ظلال الترفُّع والإباء، وتحت أفياء العزَّة والكبرياء.

«إنِّي أمدُّ يدي بحرارة إلى كافة المسلمين الذين ينتهجون سبيل التحرر من نير الاستعمار، ويعملون في سبيل آقتلاع جذوره، و في سبيل الاستقلال الإسلامي الصحيح، وكسر سلاسل الأسر الأجنبي».

«يا مسلمي العالم! ماذا دهاكم ؟! لقد آستطعتم في صدر الإسلام بعددكم القليل أن تحطِّموا القوى الكبرى، وتشيِّدوا صرح الأُمَة الإسلامية العظيمة، والآن وأنتم تقاربون المليار إنسان، وتمتلكون الثروات التي بمقدورها أن تشكِّل أكبر حربة في مواجهة العدو، أصبحتم أذلّاء ضعفاء».

الصبر والمصابرة

الصبر في معاني الانسان أسماها وأرفعها، وهو في خلاله أعلاها وأروعها، ليس له من بينها نظير يباريه، وما له فيها شبيه يجاريه، لكأنما هو صفة من صفات أهل السماء فأباح الله لأهل الأرض إن هم شاءوا أن يتّسموا بها فيرتفعوا إلى المقام الشامخ ترمقهم أبصار الملائكة المقرَّبين، ولعمري لقد أرى الإنسان الصابر المحتسب فأحسبه حيناً خلقاً سماويا قد تنزَّه عن خلال أبناء الطين وسجاياهم، وأتمثله حينا عظمة شاخصة قد تطهَّرت من رجس الهبوط والخسران لحقيقة (الإنسانية) ذات المجد، مجد الخصال العالية والفضائل الزاكية، وهذا هو مرمى الوصية القرآنية المكررة: **«وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»**، **«وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة»**، **«استعينوا بالصبر والصلاة»**، **«اصبروا وصابروا»**.

ولقد أتمثله في اقتداره وبأسه بعزمة الصبر فأرى قدرة لا تطاول ولا تحاول، وأتمثله في صلابته ورسوخه بطاقة الاحتساب فأرى طوداً شامخاً لا تهدُّه الريح العاتية، لا تزلزله الهزاهز القاهرة، ولا يعتوره لون من الضعف من وقع الخطوب الفادحة.

ولقد كنت أقرأ وأسمع عن رجال الصبر وأبطاله فكنت أرسم لهم في نفسي تلك الصور التي أرى أنَّه ينبغي أن أتمثَّلهم بها، ولكنِّي بعد أن رأيت إمام المسلمين رأيت أمراً عجباً، أراني ضعف ما تخيلته، وحقيقة أُولئك الصابرين الذين ٱستحقّوا من الله بشارة الفوز والظفر في دنياهم، وعاقبة المقرَّبين في أُخراهم.

لقد جسَّد الإمام الصبر تجسيداً قلَّ مثيله، بل عزَّ نظيره في روّاد القضية بعد الأئمة، وكان صبره — عليه تحيات الله وبركاته-- على ألوانه وفنونه، صبر الطّاعة، وصبرَ المعصية، وصبر المصيبة وصبرَ القيادة، في المحلِّ الأعلى من مراتب الصبر ودرجاته.

لقد كفَّ نفسه بالصبرِ عن غيِّها، واجتالها عن هواها، وكبحَ جماحَ فجورها، واحيا روح تقواها، فهي عمّا يُسخط الله نائية، وعمّا لا يحبُّه ولا يهواه متجافية، وذلك الصبرُ عن المعصية.

وهو قد أوقفها بالصبر عند حدِّ التُّقى، وألزمها طريق الهدى، وعقلها بعقال الورع، فلا ترغب عن فرض الله ولا نفله، ولا تعزب عن حقِّ التعظيم لمثله، وذلك الصبرُ على الطاعة، ثم إنَّه بعد ذلك لصبورٌ عند الهزاهز، وقور عند الملمّات، راسخٌ عند الكروب، ثابتٌ عند النكبات، لا يجزع فيخرجه الجزع عن حدود الله، ولا يتبرَّم أو يسخط فيبوء بغضب ربِّه، ولقد مرَّت عليه من المحن الخانقة والبلايا الموبقة ما ينوء بمثله الكثير ممَّن سواه من ذوي القلوب الواسعة الكبيرة، والحلوم النافذة البصيرة، ممّا يراه من الفجائع في أُمته، أو النازلات في أهل بيته ولحمته، وكان فيها جميعاً جميع القلب صليبه، رابط الجأش، عصيَّ الدمعة، منزور العبرة والزفرة، فتراه فيها فتظنُّه قاسياً غليظاً وما به من قسوة ولا غلظة، وإنَّ حياته وسيرته لتشهدان أنَّه أرقُّ الناس للناس، وأرأفهم بهم، وأنَّه رقيق القلب كأنَّه ذائبه، وتراه سمحاً سهلاً ليِّناً لكأنَّه نقيض ذلك العنيد الشديد الذي وقفت الدنيا بمكرها كلِّه أزاءه عاجزة حائرة ذاهلة.

يموت ولده (مصطفى) فلا يكون للأمر في نفسه ولسانه وجوارحه أكثر من الاحتساب والاسترجاع، وخطوات قليلة وراء نعش الفقيد، وحضور في حفل تأبينه، يعلِّم الناس كيف يكون الصبر في حوازب الخطوب، ويجسِّم لهم حقيقة الصابرين من آبائه الأكرمين.

أمّا صبره في جهاده فذلك أمرٌ حارَ به الفكر فعيَّ البيان واللِّسان،

فلقد كان له في طريق جهاده رزايا لا يلمُّ بحقيقتها الوصف، قد زجاهن كالسحب الثقال كيد الباطل وعدوانه، فتكثَّفن عليه من جهاته، وكان له فيه بلايا كتهتان المطر سحّاً واصباً قد أحدقن به من كل صوب، لا ينظر دربه إلّا ليرى دماءً غزيرة تسيل، وأجساما كثيرة تقطّع، وأفواج أتباعه تُساق سوقاً إلى مقاصل الموت أو طوامير البلاء، ولا يغض بصره ويغمضه لهول الفاجعة إلّا لينظر بباصرة قلبه حقيقة الخطب الفادح، وشأن الرزية الجامحة، نارها في توقد، وكَلَبُها في آستعار، وشدائدها في آزدياد وآشتداد، لها في كل يوم فظاعات جديدة، وتارات بلاء طارفة، وفنون كيد تزول منها الجبال، وهو في كل ذلك الصبور الذي يعنو لصبره حتى المستحيل، ويذل لسطوة جلده شموخ الأطواد وآستعلاء الأعاصير، وتنكفئ ناكصة على الأعقاب من عزته وآستمساكه وثبات قلبه؛ كل آثار المحن والبلايا، فكأن الأيّام يمررن على قلبه الطهور الصبور واحدة، وكأنها تنقضي أمامه على حدٍّ سواء، وتعتقب عليه سيّانِ، وهي مثقلة بأهوالها عتكرة بدياجي لأوائها وعنائها، لا يبسم له فيها ثغر الراحة، ولا يهش له فيها وجه الدعة، ولا يداعب جفنيه طائر الكرى إلّا لماما.

زادُه فيها الصبر الجميل، وعُدّته الاحتساب والتوكُّل، وأُسوته جدُّه المصطفى وآله، وعزاؤه مرارات المقرّبين، ورجاؤه صدق الوعد بفلاح الصابرين.

لقد كانت حياته الزاكية تاريخ مظالم وفجائع ورزايا اريدَ لسهامها الرائشة أن تنفذ عبر جوانحه إلى خافقه، وأن يُنضج وهج حرها قلبه، وأن تصمي طعناتها الحمقاء فؤاده، وأن تذهب منها نفسه في الفضاء شعاعا.

ولكن خافقه الملفّع بالصبر، وفؤاده المحصَّن بالتجلُّد، ونفسه المحاطة بسور الاحتساب أبتْ أن تركع أو تستكين، أو تُنيل راغب المكر والبلاء بعض مرغوبه، أو تُريَ محبَّ التسليم أو الضعف بعض محبوبه، وآرتدَّ المكر السيِّئ إلى أهله فحاق بهم بعد أن جرَّعهم أنفاسا كؤوسا مصَبَّرة من الهموم الثقيلة

والغموم المبرِّحة، وراح ركب الإسلام يحدوه حادي الهُدىٰ بالمصابرة والاحتمال إلى مطلع الشمس حيث مشرق الظفر الأغرِّ يغمر البطاح بنور الهناء الزاهر بعد الظلمات النكداء لأطوار الشقاء.

وذلك هو صبر الجهاد، صبرٌ وتر الوجود لم يشفع بثان، كصبر آبائه المطهَّرين، وتر الفيض والعطاء لا ندَّ له فيهما.

ثم صبره في قيادته بعد أن أضحى إماماً مطاعاً تهفو إليه القلوب أضنتها صبابتها، وتخشع له في معابد الوَلَهِ والإجلال نفوس المحبِّين الممجِّدين، وتذوب ذوبا أفئدة العارفين بحقيقته، المطَّلعين على سرائر محامده ومحاسنه، يطويها لأنّه لم يُرِدْ بها سوى ربِّه وتكميل نفسه، ويكتمها لأن الإسرار خيرٌ من الإظهار، ولأنَّه شأن العارف العاشق أن يضنَّ على غير محبوبه حتى أن يرى منه مظاهر العشق، والارتباط المحكم، والعلقة الوثيقة، صدقاً في المحبة، وإخلاصاً فيها، والقيادة الإسلامية على ما لها من أثقالها الباهظة التي لا قِبَلَ لسواها بالامتياز بمثلها، وفي أمر فريد ليس له في شرق الأرض ولا غربها مشابه يماثله هو دولة قرآنيَّة طوت قرون الماضي عجلى حافدة باقتدار مكين كيوم ولدتها أُمُّها ثورة النبي، في بحر طامٍ من النفرة والعداء من شتى الأنحاء.

إنَّ قيادة في الحال هذه تريد أن تحفظ ثورتها حتى تضيء محاسنها في العقول، وتمتلئ بمحبَّتها الصدور، وتُنِيلَ من ثمارها، وتقلع بها أوتاد الضلال والحرمان التي بنيت عليها حياة أجيال متعاقبة في إيران، وأن تصدِّرها بالحكمة والحسنى، ودعوة الناس إليها بتبيان مزاياها بالواقع المنظور والفكر المنشور، هذه القيادة تواجه من العناء الفاقر ما يواجهه الزورق المهيض في اللُّجِّ الهادر، تتقاذفه أمواجها، وتعتقب عليه سورات التيّار وجمحاته حتى تمزِّقه أوصالاً، وتقطِّعه أشلاءً، وتذهب به إلى هذا الشاطئ وذاك .

أمّا قيادة الإمام، قيادة شعارها التوكُّل والأُمَّة السامعة، ودثارها الصبر والحكمة، فهي فوق الأوصاب والأتعاب، وفوق العقابيل والعراقيل،

وفوق الخشية والرهبة، وفوق الانكسار والانحدار، وذلك هو صبر القيادة، قيادة المؤمن الجسور، والحازم الصبور، قد عمَّق الايمانُ الصَّادقُ عزمَه وصبرَهُ، فهما يدان تتظاهران، وقوّتان تتعاضدان، وطاقتان تتناهضان، إن فترتْ هذه أنشطتها الأُخرى فحرَّكتها، وإن عيَّت تلك شحذتها هذه فأحدَّتها، أستغفر الله لا فتور ولا إعياء، بل هما قدرتان حيَّتان، وبأسان دائبان، يتأسَّى الصبر بالعزم فيتصلَّد، وينافس العزمُ الصبرَ فيشتدُّ، فإذا هما فرسا رهان في المضمار يتباريان لا يسبق أحدهما الآخر، فالسبقة لهما، والجائزة بينهما.

وهلمَّ العجب العجاب في صبر هذا الرجل النبويِّ دماً وعقيدة، أُولىٰ أيَّام ثورته الكبرى، حيث صوته الراعد يصخُّ أسماع الطغاة، تردِّده وتمشي على هديه أُمة الإيمان في إيران، ودأبه الفائق يؤرِّق لَيلَهُم، تتمثَّله وتتأسَّى به الملايين الوالهة المطيعة، يشرع صدره الطود يقول للمحن والنائبات، ما دام الإيمان هو زاد روحي قد ملأت به ما بين جوانحي، ومادام الصبرُ المُرُّ هو شهد هذا الصدر، فكِيدي وإنَّ كَيدَكِ إلىٰ تباب، وتعرَّضي لي بسهام المساءة على أرقى فنونها وإنها لخائبة، ولن تنالي منّي إلّا حسرةً أراها بعين الله فتستبدل بموج السرور أغمر به أرجاء نفسي، ولن تصيبي منّي إلّا كَلْماً أراه في رضى الله فأجد لآلامه لذَّة لا تعدِلُها لذَّة، ولن تظفري إلّا بجموع من الأتباع والأشياع قتلى ومصفَّدين ومشرَّدين فأرفع طرفي إلى ربِّي أسأله أن يتقبَّل القرابين فإنها له وحده، وأن يفكَّ عن معاصم الأبرار قيود الأشرار، وأن يعيد النازحين إلى ديارهم ظافرين.

وناهيك عن صبر الإمام في محنة الهجرة وحازبتها، وفي طخياء التباعد وظلمائه، يُنفىٰ غريبا، ويُطرد وحيداً، تفريقاً بين الأُمة وإمامها، وفصلاً بين الثائرين وقائدهم، على ما يستدعيه ذلك من عناء في النفس، وعناء في السعي، مواصلة للمسيرة حتى لا تفتر فتخمد، وإدامة للدأب حتى لا تتقطع عراه فينهدَّ، وعماد هذين العناءين وسنادهما صبرٌ لم تسعه

الدنيا ولكن صدر الإمام قد اتسع له، وتجلُّدٌ لم تقم لاحتماله الجبال وإنها ليستفل منها، ولكنه قام لاحتماله لأنه روح الله.

وصبر السنين الطوال في الغربة، وصبر الليالي المؤرقات على سعير البعاد، واحتمال أثقال الآلام فيما يحل بالأمة والإمام، طفحت بكل مرارات الأيام، والمصابرة في الجدّ والاجتهاد وكلّ مقتضيات الجهاد، مساورة للهول الجائح، ومنابذة للبأس المستشري، ومباسلة للخصمّ المزبد، وتفرُّغاً بعد ذلك لشؤون الحياة الرسالية من هنا وهناك، وبذلاً في دنيا البذل أفضل البذل، وعطاءً فيها خير العطاء، وحياطةً للغرباء من أمثاله وصيانةً لهم، بل رعايةً لكلِّ أبناء العلم واهتماما بهم، ومتابعة لشؤونهم صغرت أو كبرت، كل أُولئك كان آية بيِّنة على عظم الصبر والصابر، وشاهداً لا يرتاب فيه على جلال قدر الاحتمال والمحتمل، وبرهاناً ساطعاً على هذا الإنسان العجيب الذي فاق الورى في دهره في كلِّ الفضائل، وبزَّهم في كلِّ الخصال.

خذ إليك قضية الحرب الظالمة، حرب الباطل كلِّه على الحقِّ كلِّه، تجد فيها مصاديق كل ما ذكرناه من ألوان الصبر في محاسن الإمام ومحامده؛ تجد فيها الصبر في جهاد النفس، الصبر عن المعصية فلا يغلبه داعي الهوى والرغبة في الانتقام إلى رد الاعتداء بمثله، بقتل الأبرياء، وتشريد الآمنين وترويعهم، والصبر على الطاعة بالوقوف عند حدود الله، والعمل بأحكامه في كل أيّام الحرب على تلوُّن ظروفها، وتقلُّب أحوالها، وتفاقم صعابها ومتاعبها، والصبر في الجهاد المقدّس الذي رفع لواءه في هذه الحرب مكتوب عليه، عبر جمهورية إسلامية في العراق تمرُّ جحافل الإيمان لتدمدم على إسرائيل فترحض من دنسها صفحة الوجود، لتظلَّ مكانها (فلسطينُ) حرَّةً كريمة، قلبها النابض أُولى القبلتين، قد لبست أثواب الحبور والكرامة بعد موتات الأسر المشين بين مخالب الغاصبين، وما أعظم هذا من جهاد لو كان حجم العظمة يتّسع لمعناه، وما أرفعه من عمل رساليٍّ لو كانت تنال وجوده السامق يد الرفعة.

وصبره في قيادته لهذه الحرب على ما فيها من مضاعفات الآلام، ويحموم التهمام، قد أظلّته بها كقطع اللّيل المظلم شؤون في هذه الملحمة الكبرى وشؤون، حرب غير متكافئة في وسائلها الترابية يملك منها خصمه كلّ طارف مدمّر، وهو لا يملك إلّا اليسير المألوف، قد وقف فيها الاستكبار جميعاً ظهيراً لعدوه يؤازره ويمدُّه، وهو قد باء بأوزار باهظة من حصارالعالَم ومقاطعته، عدوُّه الفاجر فيها لا يحجزه شيءٌ من الدِّين عن أكبر شيءٍ في الإثم، وهو تَنزعُّه التقوى عن الإثم صغيرِهِ وكبيرِهِ، ويصدُّه ورعه عن مخالفة المطلوب والمحبوب، ويصونه اعتصام نفسه بحبل الحقِّ من أن يقع في الباطل أو يخوض في الحرام، كلُّ ذلك له غمٌّ في النفس موجع مرمض، وله آلام فيها ممضَّة مسهِّدة، لا يقوم فيها على قدم الاستقامة إلّا صبور شكور، غير جازع ولا كفور، ولا يثبت الوطأة فيها إلّا قائد حكيم له من سجايا قيادته أرفع سجيَّة وأعلاها، تلك هي الصبر على شؤون الإدارة والتدبير لملحمة ليس لها نظير، والصبر على مصائبها وفجائعها صبراً لا يخرجه عن الصِّراط السوي، ولا يدخله في الباطل والبغي.

وكانت عاقبة الإمام الصبور، ومآل تجلُّده في حوازب الأُمور صبراً على طريق الله وهداه، وذوباً وانمياثا في هواه، عين ما أتى عن عاقبة الصابرين على لسان جدّه أميرالمؤمنين:

«حتى إذا رأى الله جدَّ الصبر منهم على الأذى في محبَّته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً، فأبدلهم العزَّ مكان الذلّ، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكّاماً، وأئمَّة أعلاماً، وقد بلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم».

لله أنت يا مجمع الفضائل ويا قدوة الزمان، يقتدي على آثارها الصالحون، ويا أُسوة العصر يتأسَّى بها من أرادوا الله واليوم الآخر، ولله خِلالُك الساميات لا تساميهنَّ خِلالُ مَنْ سواك من ورثة النبيِّين!، ولله

خِصالك الرافعات لا تحاكِيهنَّ خِصالُ من عداك من حملة الرسالة بعد الهداة الميامين!.

الصمود والمقاومة

الصمود عند الإمـام حقيقة لـلواقع تقابـل الزحف المؤزَّر، لكنَّها أدلُّ منـه على البأس والقدرة والظـفر، وأوفر منه شمولاً لمعانـي الجرأة والبطولة، وقوة الجنـان والرجولة، فـإذا كان في الإقدام أن تقطع الطريق الدامية بكل آلامها إلـى غايتك تبلغها أو لا تبلغها حيث يكون عدوك عِدْلاً لك في القوة أو أضعف منك روحـا أو سلاحا أو جمـعا، فالصمود يعنـي أن تـتقدم بخطىٰ العمالـقة على طريـق (الـلّا تراجع) حيـث يكون عـدوك أقوى منك، وأقدر بفنون مناضلته لك على ردّك وصدّك وإلـحاق الهزيـمة بك.

والصمـود عنـد الإمام حقـيقـة للقلب تـعنـي ربـاطة الـجأش ورسوخ العزيـمة، وقوة الأمل، وسمو الغاية، يتلفَّع بها صاحبها جلباب المجد والعظمة، ويحـمـل لها على صدره وسام الفـخـر والعلاء. والصمود عنـده حـقيقة للإيمان تعـنـي صدقه فـليس هـو بالكـذوب، ورسوخـه فما هو بـالمتزلزل، وثبـاته فما هو بالذي تغيِّره الأحداث أو تبدِّله الشؤون، وتعنـي عمقه وسعة المعرفة به، فليس للشبهات والظنون في أقسـى الـحالات أن توهنه أو تبدله.

والصمود كذلـك حقيقـة للنفس العارفة العاشقة، يعنـي تحمُّل العناء على سبيل الهوى وذكر الـحبـيب الأسمـى، واعتناق طيفه طول المدى، وعلى كل لون من شؤون الـحياة وانوائـها، حتـى في دياجير آلامها وارزائـها.

وللصـمود هنـا ينـابيع في الـقمـة ينحـدر عنها، وله مستـشـارات علوية تنـجبه فيفـيض منها، صـدق النيَّـة أولها وأعلاهـا شأواً في إيجـاده واستمراره، وخلـوص الدافـع للجـهاد على كـلِّ ضروبـه من كلِّ شـوب، وتنـزُّهه من كل

عيب، وسلامته ممَّا يفسده من الآفات، وتعلُّقه الدائب الواصب بالمشيئة السرمدية، لا يخور في ذلك ولا يحور.

لقد صدق هذا الرجل الإلٰهي نيَّته لله، ونزَّهها وشذَّبها وصفَّاها، حتى أضحت تتألَّق نزاهة، وتتوهَّج إشراقا ووضاءة، وتفيض روعة وبهاء، وتأسر الألباب علوّاً وشموخاً وصفاءً.

ثم يأتي التوكُّل على الله يؤازره صدق النية، ويناصره ويدعمه في خلق الصمود خلقاً سويَّاً، ويعطيه أصدق معانيه، ويحقق له أحسن آثاره.

ثم الالتزام، وقوة الإيمان، وجليل معرفة في العقل وفي الجنان، والوعي بالعقيدة وعياً يعرفه بها على حقيقتها كما بُيِّنَت، ويدلُّه عليها على واقعها كما أُنزلت، والتبصُّر بالرسالة وفهمها مثار للثبات أي مثار، ومنهل ثرٌّ يتدفَّق به في صدور الأُباة الأحرار.

والثقة بالنصر والاطمئنان به، بل اليقين بصدق الوعد بالهداية إلى سبل الفلاح لمن جاهدوا في الله، سبيل قاصد إلى حقيقة الصمود في أجلى صوره وأروع مظاهره، ثم قوَّة القلب وجلده وصلابته وٱمتلاؤه بروح الاستبسال تُصيِّر منه جبلاً راسياً لا يثاور، ونسراً قاهراً يطوي بجناحيه بأس الريح الزعزع.

هذه كل منابع الصمود أو جلُّها، قد ٱستلهم منها الإمام حماسة صموده وثباته، فكانت مفخرة قلَّ أن يَحمل لها التاريخ في أحشائه مثيلاً، وكانت مكرمة للإمام تخلِّده ما كرَّت الدهور، أو اعتقبت العصور، وكانت محمدةً من محامد هذا الدين القيِّم ٱشرأبت إليها عنق الاعجاب، وذهلت لفرط جلالها حلوم لم تع من حقائق هذا الدين الحق شيئاً، أو وعت غير الصواب جاهلة أو مضللة، وٱرتعدت لهول طلعتها نفوس الحاقدين الأُلىٰ ما ٱنفكُّوا يدأبون في طمس معالم هذه الرسالة، وإخفاء محاسنها، والتعتيم عليها بالظلم والافتراء والتزوير، ليحجب نور حقيقتها الزاهر عن الأبصار فلا تبصر منها فتبصر بها، ويغيب جمال شروقها الباهر عن القلوب لتتأملها فتهفو إليها، وتستر عن العقول

عجائب أفكارها، وشوارد حكمها، ونوادر احكامها، فلا تحقق فيها فتعتقدها وتؤمن بها.

لقد كان الإمام مدرسة فريدة في الصمود، ومناراً هادياً على طريقه الصعب المستصعب، يدلُّ طلّابه مواضع الأقدام فيه فلا تزلُّ، ويهديهم مواطن الرشد فيه فلا يضلُّون، ويعرفهم حقائقه وأُصوله فلا تشطُّ بهم المسارب عن سوائه.

ولقد كانت لصموده مرحلتان، قبل انتصار ثورته العظمى وبعده؛ قبله حيث واجه أُموراً كان يمكن لمثلها أن تصدَّ مثله عن غايته لولا صموده فينفض يده من ثورته، أو أن توُهِنَ هِمَّته وتُضعِفَ عزيمته فيطول المسار به إلى منشوده، وتبعد الشقة بينه وبينه، لكنه كان الصامد الصلد كالصخر الأصمِّ لم يلن ولم يتفتَّت، ولم يُعط شراساتها مقوَد الضعف والانكسار لترميَ به في حضيض الهزيمة والاندحار، بل قابلها بما عنده من زاد الإيمان وزاد التقوى، وما ذكرناه من منابع صموده فاستحال على تلكم الأُمور أن تنال من صلابته شيئاً، أو تصيب من تجلُّده حظّاً، أو تظفر من عناده بمثقال ذرة، لقد كانت تلك الأُمور، الترغيب والإغراء، واللوم والتعنيف، والوعيد والتهديد، لقد رغَّبوه وأغروه وخادعوه، فما حرَّكت فيه الرغبات المنمَّقة المعروضة داعيَ الشهوة، فداعيها في نفسه أخرسته صرامة التقوى، واقتدار الزهد، وهيبة التعالي عن سفاسف الدنيا وبهارجها، ولا أصابت منه جهود الإغراء والمخادعة حيث تريد من إيقاف مسيرته الإلٰهية أو إضعافها؛ فبين القائد وذلك حاجز من الحكمة البالغة، والبصيرة النافذة، والتعلُّق بالقضية، وبينه وبين ذلك مانع من حب الله ومخافته.

ولقد لاموه على ثورته وعنَّفوه، وعابوه وسفَّهوه، وأخذوا بخناقه من كلِّ صوب، تارة بلسان الناصحين الواعظين، المحذِّرين من سفك الدماء بلا طائل، وأُخرى بلسان العارفين بسوء العاقبة والخسران بعد البلاء الشامل، وقليلاً ما كان ذلك من الأحبَّة والأودّاء والأصحاب والأخلّاء، وكان

الإمـام قبـالة ذلك كلّه طوداً صلـداً لا يتزعزع، وواجـهه بـفطـنـته و بصيرته ويـقينه وٱستقـامته وصموده، ومعرفـته بحقيقة أمره، وعـاقبة سيره، فما أجدى مـلامُ الـلآئـمين، ولا أفاد تسفـيه الـجاهـلين، ولا أثَّر نُصحُ الواعظين على غير بـيِّـنـة مـن ربِّـهـم، ولا مـعـرفـة بـدينهـم.

لقد جَـبَهته جماحـة الطاغوت بالعنف والـغلظة والـجبروت، وتعرَّض له بـقرقعـة التهديد، ولوَّح له بـبواتر الوعيـد، فكانت بعض مصـاديق هذا الأمر مأساة خـرداد، حيث جرى نهـر الدم القانـي مـن أُلوف المهج الـزاكية، وكانت المقاصل والسجون، وكانـت المـذابح البادية والمستورة، وكـانت الفجائع في ضاحية النهار، وفي عشوات اللَّـيل الدَّاجـي، وكان الـحكم العسكري حيث فوهـة الرشـاش والمدفع تحصـد النـاس حصد السـنبل، وتحـرقهـم نارهـا حرق الهشيم، وكان قـبل ذلك نفيه مـن إيران على حال يعجز عن وصـفها البيـان، وكان قتل ولده وفلذة كبده، وكانت محاصرته في النجف الأشرف، وتضييق الـخناق عليه، ثم إبعـاده عن مهجره، وحيرة الدروب به، والـجعجعة به إلـى باريس.

حين طـلعت عليه مـأسـاة خرداد بوجـهها الكـالح قال لها، لن تنالـي مـن عـزيمتي وصلابـتـي، فـمَـن أخذتِـهِ من يـدي مـن أعضـادي فإلـىٰ راحة دائـمة لهم في الـدرجات الـرفيـعة والنعيم المقيم، وإلـى عـقبـى مـنعشة لي على طـريقـي إلـى غايتـي، فدماؤهـم ستكون المشعل، وستـكون الو . وستكون البركان، وستكون الفتكة التـي تصيب من الطاغوت مقتلا.

وحين عصـفـت ريح الـحكـم الـعسكري ٱنـتـفضـتْ في وجـهها قدرة الإمام بحكمته وعزيـمـته وٱقتدار أُمتـه ليطوي بأسها طي السجل للكتاب فإذا ضربتها قد أشوت، واذا سعيها قد خاب، واذا مكرها يحيق بها.

أمَّـا موقـفـه في هـجـرتـه فـهو مـوقـف جـدِّه المصطفى صـاحـب الهـجرة الكبـرى، ألأمـل الـكبير بالـنصر، والـثقة البـالـغة بالله، والعـزم الأكـيد على مواصلة المسيرة حتـى بلوغ الغاية.

أمَّا حين غاب عنه وجه ولده منطلقاً إلى أُخراه، بعد أن أصابه سهم العدو فأرداه، فإنَّه كان في تلك الحازبة صلباً كأنَّه لم يصبه منها شيء، وكان سور صبره وصموده دونها حريزاً فلم ينفذ إليه عبرَه من بلوائها شيء من الضعف أو الحزن البادي، ومكث فيها على شأنه، لم يتغيَّر وجهه ولا أخلاقه ولا عمله، ولا شأن من شؤونه، وكان ردَّه على جناية الطغاة واقع الصبر والصلابة، ولسان الشكر لله والثناء عليه.

وفي الظروف العسيرة لأيَّامه الأخيرة في النجف، كان موقفه التحدِّي والعناد، وإباء الخضوع أدنى خضوع، وفي محنة الإبعاد عن المهجر وحيرة السبل به كان موقفه قولته المشهورة:

«سأظلُّ أنتقل من مطار إلى مطار حتى أبلِّغ رسالتي، وأبلغ غايتي».

وبعد انتصار الثورة حيث عاد الطريد المستضعف إلى بلاده ليصبح بعد حين من صبر مكين وقد نال ما تمنَّى والصروف المذهلات ومن سعَّرتها راغمان، ويبيت إمامَ أُمة وقائد دولة يفري بمرآهُ كبد الظالمين برائش الأسى والعذاب، فأين سعيهم المرمض للقضاء عليه؟ وأين شدَّتهم لينالوا منه؟ لقد مشت الحقيقة تدوس جموح الزيف غير حافلة، وراح الزبد الهائج المستعلي يتكشَّف، والحق يرسخ رسوخ الجبل العظيم، حيث عظم الإيمان في النفوس المؤمنة للأُمة الرائدة وهي تبصر دنيا الخميني الكريم، دنيا حق وصدق، لا يشوب ضياء السداد فيها ظلام الزلل واللعب، ولا يدهم صفاء صدقها قتام الخداع والكذب، ولا ترى فيها وهي الحق والصواب أثراً للباطل والعمى، ولا تبصر فيها وهي الحكمة والاستقامة شيئاً من الجهل والالتواء، وقد استبشرت بهذا الفتح يفيض فيها اليقين من أمرها، وتسعى له فيها روح البذل والتضحية والفداء، وعزيمة الصلابة والشموخ والإباء.

بعد النصر والظفر كانت غرائب ألوان الكيد، وعجائب أفانين المكر، وكان أزاءها يذرها هباءً صمود الرجل الإلٰهي وتصميمه وحكمته

وتدبيره، وكانت منها معمعة الرهائن، وكان الضجيج والعجيج، وكان الوعيد والتهديد، وكان السعي الماكر الغادر، وكانت طبس المعجزة بعض مصداقه، وكان الحصار الاقتصادي المريرمصداقه الكبير، وكان الهجوم من كلِّ صوب على هذه الثورة العظمى مسارعة في الإجهاز عليها، وصدّاً لها عن غايتها، ومنعاً من سريانها وآنتشارها، ففي ذلك ذهاب دولة المستكبرين والمستعمرين، وقيام دولة المستضعفين والمحرومين، وكانت في ذروة ذاك الهجوم حرب العفالقة وجناياتها الفظيعة التي جمعت تاريخ الجناية كلَّه في سنيِّها القليلة، وكانت الوساطات الماكرة يحرِّكها أسياد المعتدي دعماً له في البداية، وإنقاذاً له من الهلكة على شُرُفِ النهاية، وكانت حرب النفاق تفوق تلك الحرب ضراوة وعنفاً، للمنافقين فيها صولات أكلت من خضراء الثورة ما أكلت، ومكائد جلبت لها من البلاء ما جلبت، وضربات أخذت من أبنائها الأزكياء من أخذت.

ولكن ماذا كان موقف الإمام الصامد في هذه المحن النكراء والخطوب الرعناء؟ وماذا كانت ثمار صموده، وعطايا صلابته، ومواهبَ جلَدِهِ وثباته؟ لقد هبَّت ريح أزمة الرهائن عاصفة مزمجرة ولكنَّها مرَّت على جبل راسخ أشمَّ لم يحفل بها وقد حسبت أنَّها ستفعل به ما تفعل، وما فتئ الإمام فيها بإغرائها ووعيدها على حال من الصلابة والصمود آرتجف منها قلب الدنيا، ودهش لها فكرها، وآرتعدت فرائصها، فلم تعهد رجلاً من ذي قبل قد أوقف نفسه موقف المناصبة والمعاداة لما يسمُّونه (القوة العظمى) يتحدَّاها، ويذلُّها، ويقهرُها، تحدِّياً لم تشهد له مثيلاً، وإذلالا ما وُسِمَتْ بمَيْسَمٍ مثله، وقهراً ما كان يخطر في بالها أنَّها ستذوقه يوماً ما.

ووقفت أُمَّة الإمام موقفه... موقف التحدي والعناد، يعاضدها في ذلك ويعينها عليه إمدادٌ ذو ثلاث شعب؛ فيض من لطف الله وعونه، وأُسوةٌ حسنة بالرائد العظيم، وآستمدادٌ من روح الصبر والفداء عند هذه الأُمة الصامدة المضحِّية.

وٱنتهت هذه القضية يوجّه سفينتها في الموج المزبد؛ ربّانُها المصمِّم الحكيمُ بالغلبة للأُمة المظلومة، وبالذلّة والهوان للطغاة الظالمين، على كل ما أرعدوا وأبرقوا، وأنذروا بالشؤم ونعقوا، وأبدوا من مظاهر الغضب والنقمة، وجاءُوا به من شؤون الرد المتجبر، حيث دخول أرض ايران باعتداء فاضح زعماً منهم أنَّهم يريدون تخليص رهائنهم، وحيث الحصار المنكر يعيد إلى بال اللبيب حصار المشركين للنبي وأهله في شعب أبي طالب، وحيث نعيق الإعلام ونقيقه، وحيث لوم اللّائمين وعتب العاتبين، بل تسفيه المسفِّهين حتى في صفوف القائمين على أمر هذه الدولة المباركة وقتئذ، ولقد ذهب كل ذلك بالطعنات النجلاء للصمود والإباء أفلاذاً في الفضاء، وتبدَّدت كل عرامات الطغيان في هذه الواقعة العوان تسقيه كأس المذلّة والهوان.

وكان موقفه في التصدِّي الحاقد الكبير لثورته العصماء، وقيام طاغوت الأرض في وجهها ذعراً منها، وتضييقاً عليها، فقتلاً لها في مهدها، أن يستعيد من تاريخ الإسلام صدره الأول ليتمثّل الخندق المحفور تحيط به جحافل البغي والشرور، وقد قبعت في وسطه ثلّةٌ قليلة من عبادِ الله لا يرون حاجزاً بينهم وبين أن يلتهمهم فاه هذا الموت الزُّؤام الفاغر إلّا فضل من ربّهم، وردءٌ من خندقهم، وٱقتدار من صلابتهم وجلدهم، فيبيِّن الإمام لأُمته أنَّ التاريخ يعيدُ نفسه، وأن الإسلام كلَّه يخندق اليوم أزاء هجوم الكفر كله بخندق العزم والصبر والصمود، وإنَّه لمنتصر لا محالة، وتلك سنَّة الله ولا تبديل لها، وتلك مشيئته ولا تغيير فيها، وأنَّى لقدر الأرض أن يستعلي على قدر السماء، وأنَّى لإرادة الطغاة أن تغلب إرادة الله؟

وٱنتصر الحق، وخرج الإمام وأُمته من خندق هذا الزمان ظافرين قاهرين، وذُلّت الجبابرة، وعنت وجوهها لعظمة الإيمان وكبريائه.

وفي الحرب الظالمة المفروضة، يد الاستعمار الممتدَّة تجسِّد الوعيد والنُذُر، وسلاحه المصوَّب المدوِّي يحكي فورة الغيظ المستعر، وقبل هذا هي كيده الماثل عملاً آية الخوف الجسيم من الكرب العظيم، كانت بصيرة الإمام

النافذة، وحكمته البالغة تريان حقيقة العاقبة لهذه الحرب الغاشمة، وأنّها نصر للإسلام وخذلان لأعدائه.

وكانت شجاعته وكان تدبيره يديران دفة المواجهة والدفاع عن حريم الوطن المضام، وكان صموده وإباؤه يتحدّيان عواصف الحرب ونكباءها وشرورها الفادحة التي أُريد منها أن تعطي إيران الإسلام بيدها، وأن تذلّ لشروط العادين، وكانت «**هيهات منّا الذلّة**» شعاراً ونهجاً، وكان الصمود الحسيني أُسوة الحفيد الرشيد، وكانت عاشوراء الصامدة الظافرة أيّام إيران في حربها، وكانت كربلاء المضمّخة بدماء الأُباة هي أرض إيران تلتحم عليها صفوة الحق وجحافل الباطل.

ثم كان صمود الإمام وأُمته أبهى مظهراً وأروع معنىً في تلك الوساطات التي سيّرها الجناة لإيقاف الحرب ليأمن الباغي عاقبة البغي، ويظل المظلوم رهين ظلامته مكلوماً يواسي جراحه، ثكلان يندب أبناءه وأحبّاءه، محروباً لا يجد سبيلا إلى ٱسترداد ما سلب منه، وما دمر له، وما فوّت عليه.

وليس يعزب عن البال صموده في داهمة النفاق وجائحته، قد عاثت في البلاد فساداً فأهلكت كثيراً من الحرث وكثيراً من النسل، وغربت بظلام مكرها شموس كانت ساطعة، وأفَلَتْ بشؤون غدرها بدور كانت منيرة، ولم يلن للإمام الصامد قلب للمنكر وأهله، ولم يضعف جانبه أزاء الخارجين على إرادة الله والأُمة، وبقيت كلمته واحدة لم تتلوّن لأنّها كلمة الإسلام، وبقي موقفه واحداً لأنّه موقف الحق، وظلّ رفضه قاطعاً كحد السيف، وظلّ صموده شامخاً راسخاً شأن الجبال البواذخ، وإنّ من الجبال لما يستفلُّ منه، ولكن ذلك الصمود الخميني لم يستفلّ منه حتى بمعاول الموت، وكانت كلمته المعروفة للمنافقين ومَن على شاكلتهم، «**أُقتلونا فإنّ أُمّتنا ستكون أكثر وعياً ويقظة**» وجهاً بهيّاً رائعاً لحقيقة الصمود عند الإمام يخطف الأبصارَ ضياءُ حسنه وبهائه، ويأخذ بالألباب فرط شموخه وعلائه،

ويوقف الدنيا ممتدة العنق إليه ذاهلة حيرى، قد ملك عنان قلبها العجب الشديد فهي بخمرته سكرى.

ولقد كانت آثار ذلك الصمود جمّة كثيرة، وكانت عطاياه وافرة غزيرة، وكانت مواهبه الباهرات قد أعيت على الإحصاء، وفضائله الزاهرات فوق الثناء والإطراء، قال فيها القائلون فبذَّ بعضهم بعضاً، ولكنها بذَّتهم جميعا، فكانت فوق ما قالوا من مزوّق القول ومنمَّقه، وكان ما قالوا من البديع الرفيع دون حقيقتها النابتة في كبد الجوزاء تباغمها السماء.

لقد كان الفتح والظفر والنصر المؤزر عطية الصمود الخميني، ولقد كان فتحا معجزا كمستثاره، وكان نصراً عجاباً كأصله، أحسَنَ من قال فيه أنه حلم النبيّين والهداة دهر الدهور، ورغبة الثائرين الأبرار لم تزل طيَّ الصدور، ما أمكن نيلها والفوز بها، وآستعصت على طلّابها، لم تزل مهوى قلوب المستضعفين، ومطمح أنظار المحرومين، تهفو إلى طيفها آلامهم تسامره ليلاً طويلا، وتصبو إلى أحضانها الناعمات الدافئات أرواحهم لتغفو ساعة بعد ما ذاقته سهاداً ثقيلاً، وتزيح عن ساحتها النكداء أوزار الهموم، وتقشع عن ديارها المستباحة للأذى دياجير الغموم، ولم يزل طيفها كالمعلّق في السّماء ترتاده قرائح الشعراء فتصدر عنه بطانا، وتحوم حوله وتنغمس في نوره فراشات الآمال فتموت ولهاً وتحناناً.

وجاء الصمود الخميني تعضده منه فضائل السياسة، ويؤازره من أمته رفيع ألوانِ الحماسة، فاستنزل السماوي ليحلَّ في الأرض بهاء السماء، وأمكن ما أشبه المستحيل قد نعتوه بالأمر العياء، فإذا هي دولة القرآن حقيقة ماثلة للعيان، ترفرف رايتها الغرّاء خفَّاقة على ثرى إيران، قد آستلفتت أبصار الأرض أسيرة الذهول، وملأت بالدهشة افناء القلوب والعقول.

وكانت الغلبة أيضا حليف ذاك الصمود في كل الميادين، وقرينه الملازم في كل الشؤون، فإذا هي مسيرة روح الله الخلّاقة الصامدة مسيرة نجح وفلاح، وإذا هي حياته المبدعة الصلبة حياة الفوز والنجاح، حالفها الصمود

فبارحتها الهزيمة والهوان، وقارنها التجلُّد فاجتالها عن مواطن الفشل والخسران.

وكان إذلال الاستكبار وإسقاط هيبته، بعد دحر عنفوانه المتحكِّم في إيران، وخضد شوكته هو العطاء الثاني لذلك الصمود القرآني، فبات منه الباطل المتجبِّر أسير مذلَّة وَصغار، ورهين خزي فاضح قد أنقض ظهره بأفدح الأوزار، لا يدري كيف يداويه ويطبِّبه، ولا يعرف كيف يكون منه مهربه، قد سقط القناع عن وجه الأسد المكذوب، وآنزاح الستر عن آقتدار زائف محجوب، فلم يعد يبين غير الانتفاش للزبد الذاهب، وليس غير مرأىً خادع للغثاء المنتفخ، حين مرَّت عليها يد البأس والعناد لذلك المارد الإلٰهي ولَّى الزبد جفاءً، وآنقلب الغثاء هباءً، وبقيت الحقيقة عارية على وجهين، تهويلٌ وتطبيلٌ ووعيد، لآلهة جوفاء لا تبدي ولا تعيد، وعبادة وخضوع في حالكات العمى لأصنام قدَّت من الطين عديمة القوى، ويطلع الصبح المنير ليبصر فيه المدلجون غاية المسير في المتاهات، ويرى على نوره رهائن اللَّيل أنَّهم أسرى الحماقات وها هم آلآن مستصبحون قد وجَّهوا وجوههم صوب طلعة الإصباح، متنوِّرون قد هرعوا عطاشى إلى مناهل الفجر الوضّاح، قد كفروا بمعبوداتهم دون الله، وتنكَّروا لطرائق الغي دون هداه.

وكان من هبات ذلك الصمود الخميني أن تجلَّت عظمة الإسلام الصامد الذي كرَّت عليه القرون تحت أثقال الأهوال المنكرة وكلاكل الرزايا الفادحة، حتى ظنَّ الباطل أنَّ الساحة قد خلت إلَّا منه، وأنَّ ذلك الغريم القديم قد أضحى بين اطباق الثرى هالكا يُنعى ودفينا يُبكى، وفجأة ينتفض المارد المصفّد ليكسر اغلاله، ويهب العاصف المكبَّل يفكُّ كبوله، ليرى العالم وجه صمود لم يألفه، وصلابة وتجلُّد لم يعرفها، ويرى أبناء الإسلام حقيقة دينهم التي حجبها عنهم رهج التضليل وصرَفهم عن رؤيتها ليل الأكاذيب والأباطيل، فيزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً بأمرهم، ويفيء الضائعون إلى صوابهم ورشدهم، ويمتاز الخبيثون من الطيِّبين، ويستخلص

الشوب بالنور الهادي، ويبين العيب بالنظر المبصر، ويُعرف الدخيل من الأصيل، والكاذب من الصادق، وأهل الأمر من أدعيائه، وأولياؤه من أعدائه.

وليس ننسى وأنَّى لنا نسيان العطاء الرافع لذلك الصمود الرائع، خلق جيل صامد لا يحفل بالهزاهز فهو فيها وقور أُسوة لأجيال تليه، وإبداع أُمة مقاومة لا تعبأ بالزلازل فهي فيها صبور ولو اكتنفتها من كل أقطارها.

لقد فاضت الروح الخمينية الزاكية أريجاً عابقاً من رياض فضائلها، وسلسبيلاً شبماً من معين شمائلها، ونوراً مرشداً من فجر محاسنها، فتنسَّم المختنقون في كثافات الدخان، وٱغترف الصادون بعد لوعة نكراء في مفاوز الجدب والمحل، على نور الحياة الجديدة الرشيدة بعد الخبط في ديماس العمايات، والخوض في أوحال الظلمات، وكان نسيم الصمود أعبق تلكم النسمات، وكانت غرفاته المروية أعذب تلكم الغرفات، وكانت قبسته الساطعة أنور ما في تلكم الحياة الجديدة من القبسات، وعاد هذا الجزء من أُمة الإسلام في إيران مثلاً فيه يُحتذىٰ، وقدوة تقتدى، ومنهجاً يسار عليه، ودليلاً يستدلُّ به، وباتت أُمَّة الإسلام قاطبة تنقل الخطو وئيداً تحمل أثقالها الباهظة من ليل الجاهلية وأصنامها، وتداوي جراحها النازفة من سياط البغي والجور، على طريق الصمود، فها هي تقاوم، وترفض، وتنكر، وتتأبَّى، وتُعطي لذلك أغلى العطاء، وتبذل له أكبر البذل، وتسخىٰ من أجله أعظم السخاء؛ فلذّات من كبدها تُقَطَّع، وأوصالاً من جسدها تُمزَّع.

أمّا ثمرة ذلك الصمود لشخصه فهي بعد كل ما ألفته ثورته الظافرة ممّا كان ينشده لها، وما نالته في الدنيا من الإكبار والإعظام، والتأسّي بها، والاقتداء على آثارها، تعاظم شخصه في العيون يسدُّ عليها الأُفق الرحيب، بين من ترقبه ناقمة حاسدة، وبين من تنظره خاشعة دامعة، وٱستحواذه على النفوس والقلوب بين من صرفت همها فيه خوفاً وفزعاً وكيداً، وبين من ٱعتنقته صبابةً وولهاً وتقديساً، ولقد غطَّى ما يسمُّونه

(**الظاهرة الخمينية**) — على دخل في هذه التسمية وسوء نيَّة فيها — دنيا اليوم، وأخذت عليها أقطار الأرض وحتى آفاق السماء، فهي شغلها الشاغل، فكرها معصوب بها، وقلبها مملوءٌ منها، وعينها مشدودة إليها.

التواضع

لقد أعزَّالله إمامنا ببسطة في الأخلاق العالية قبل أن يعزَّه ببسطة في أمرٍ آخر يرضاه، وحباه بكرامة الفضائل العظيمة قبل أن يحبوه بكرامة ما عداها من حبيب مواهبه ورغيب عطاياه، بل إن خصاله النبوية وسجاياه القرآنية هي السرُّ وراء كل ما ناله الإمام من أمجاده، وما حظي به من الفوز والفلاح، وما ظفر به من الإعظام والإعجاب في صدور المؤمنين وحتى سواهم ممن يُكبرون أهل الفضائل السامية بما هو حقهم من الإكبار ويعظِّمون أصحابها بما هم أهله من التعظيم.

ولقد كان أولها أثراً في ذلك وآستجلاباً له؛ سجية التواضع تلك التي عرف بها الإمام كما لم يعرف غيره بها، وشهر بها أكثر ممَّا شهر بسواها، أوهما في ذلك على حدٍّ سواء، ولقد رفعه الله بها إلى حيث لم يرفع بها أحداً سواه من أوليائه في دهرنا هذا، وأبلغه بها منزلة لم يبلغ بها إنسان غيره من عباده المقرَّبين في زماننا ليكون فيه وفي اعزاز الله له بتواضعه مصداق (**من تواضع لله رفعه**) ولقد رفعه كما لم يرفع أحداً غيره من ورثة الأنبياء وحفظة الرسالة وحماة القرآن.

ولئن أبصرت سجيَّة التواضع بناظرة القلب على نور العقل لرأيتها رائعة بهيَّة رافعة، لها جلال ولها شموخ ولها سمو، فليس يتحلَّى بها إلّا ذوو النفوس العالية، والقلوب الكبيرة، والعقول الراسخة في معرفة الحقيقة على أجلى وجوهها، النافذة نظرتها في حقائق الأُمور ومحاسنها، والأرواح الزاكية التي تحلَّت برفيع الخلال وحميد الخصال، فشَفَّت وصفت فباتت ملائكيَّة

الوجود لكنَّها تحسُّ في العالم المشهود، ولئن أبصرتَ هذه السجيَّة على علوِّ شأنها بين الفضائل في حياة إمامنا وقائد أُمتنا، لأبصَرتَ مثل المشكاة والزجاجة، وحقيقة النور على النور، تضيء هذه الفضيلة في حياته فتشرق فيها، وتضيء حياته العظيمة على تلك الفضيلة فتزيدها إشراقا ورونقا وبهاء.

لقد كان متواضعا لربِّه على قدر معرفته بعظمته وجلاله، تواضعا جسَّدت حقيقته البالغة هبات الله وعطاياه له، وأيسرها أن رفع الله ذكره، وأعزَّ مقامه، وأعلى شأنه، وصيَّره مثلاً وقدوة، ومناراً ومستشاراً، حتى بات ملء هذه الدنيا البشرية القائمة، قد سكن النفوس، وأخذ بمجامع القلوب، واستحوذ على العقول، فأنت تراه حيث تذهب في هذه الدنيا العريضة، وأنت تبصره حيث تدير طرفك فيها، وأنت تلقاه أنَّى ولَّيت وجهك في أرجائها، قد شُغِلَ العالم به شغفا وكرها، وبات رهن قضيته إعجاباً ورعباً، فالخميني رحمة مهداة، وعذاب واقع، والظاهرة الخمينية فتح مبين يثلج صدور المحرومين، وخطب فادح يقضُّ مضاجع الطواغيت والظالمين، ولقد كان متواضعاً لأُمته على قدر معرفته بإيمانها وإخلاصها ووفائها وفدائها، وبديع صنعها للإسلام في عصر الجاهلية الكبرى، وتحمُّلها لأعباءٍ لا تنهض بها الجبال دفاعاً عن دينها، ونصرةً له، وإعلاءً لكلمته، وتحكيماً لقانونه، فبات لذلك يكنُّ لها ويبدي ذروة الحبِّ وفرط الهيام، ويضمر لها ويظهر الإعجاب والإكرام، فهي حبيبه بعد ربِّه ودينه، وهي موضع إعظامه بعدهما، يراها أمةً ندر مثالها في التاريخ كلِّه، فحيث قاست الأنبياء من أُممها، وذاقت من مرارات إعراضها ونفورها، تكون هذه الأمة ألينَ للحقِّ من الماء، وأطوع لإرادته منه لشاربه، وأسرع إلى مشيئته من لمح البصر، يأمرها الخميني باسم الأنبياء فتطيع، ويدعوها إلى هداهم فتهتدي، ويستعطيها البذل والفداء على طريقهم فتبذل وتعطي، وهي لم تر نبيّاً بل هي في عصر انقطعت فيه النبوة والأنباء، أبرز مظاهره الكفر

بالأنبياء وتسفيه حلوم اتباعهم بغياً وضلالةً وعناداً، **يرجّيها ظهور غائب** موعود قد آمنت به إيماناً أرسخ وأصدق من إيمانها بالشمس **المتوهّجة في رائعة** النهار، لتجسّد بذلك أبرز حقائق الإيمان وهي (الايمان بالغيب)، **والإيمان** بأن العاقبة لهذا الدين وأهله.

لقد بلغ الإمام في تواضعه لأُمته شأواً لم يبلغه سواه، **وقصر عنه ما** عداه، ولنسمعه يقول لها صادقا غير كاذب، جادّاً غير هازل:

«سمّيني خادما لك ولا تسمّيني قائداً»

ولنسمعه يقول لها مخاطباً قِطاعاً منها وهم تلاميذه وعلماء البلاد وهداتها:

«أنا طالب علم وأنتم العلماء، إنّني أقبّل أيدي طلاب العلوم الدينية، وأيدي العمال الشرفاء».

ويقول لهم وللمثقفين من طلاب المدارس العالية في اجتماع لهم:

«لقد جئت إلى هذا المكان لأعرض خدمتي عليكم، فأنا خادمكم جميعا مادمت حيا».

ولنسمعه يقول لها في حديثه مع جنودها وأبطالها وحماة ثورتها، الذين هتفوا باسمه رائد النهضة، وقائد الثورة، والمحرِّر الأكبر، والفاتح الأعظم:

«أنتم خيرٌ مني، لأنكم أبرزتم بجهادكم وتضحيتكم ما يثبت به لكم عند ربّكم علوّ قدركم وعظم مقامكم، امّا أنا فليس لي من ذلك شيء».

ويقول لهم حيناً آخر:

«إنّني أقبّل أيديكم وسواعدكم وأفتخر بتقبيلها».

فيبكون ويخشعون، وقد امتلأت صدورهم بحقائق العجب والإجلال والتقديس لإمام ثائر، لا يعدله اليوم أحد فضلاً وكرامة عند ربّه وعند الناس، يتواضع لأبنائه المجاهدين مثل هذا التواضع، ويخفض جناحه لهم مثل هذا الخفض.

وإن أُمته لترى منه عجباً من أمر تواضعه، حيَّرها حين تواضع وهو الإمام القائد لصبي في الثالثة عشرة من عمره فسمَّاه قائداً وزعيماً ورائداً، لأن ذلك الصبي قد صنع ملحمة في البطولة والفداء، دفاعاً عن دينه وبلاده، ولا غروَ بعد ذلك ولا نُكْر أن تتواضع أُمته له تواضعاً ليس كمثله شيء من ألوان التواضع ودرجاته، وأن تحبَّه حبَّاً هو الوله والصبابة، وأن تنقاد له انقياداً هو الخضوع والتسليم.

العبادة والعرفان

ماذا تراني قائلاً واليراع كليل، والبيان نضوٌ مهزول، عن إمام عارف عابد عرف الله حقَّ معرفته، فعبده حقَّ عبادته. طلبه طلباً حثيثاً في فكره وبصيرته وشعوره، فوجده خير الوجدان وأعلاه وأنقاه، أبصره في فكره ربّاً ليس كمثله شيء، ولا يُشبَّه بشيء، مبرَّءاً من كل نقائص الظنون الباطلة، مُنزَّها عن خطرات الأوهام، ممتازاً بكل كمالاته العليا وصفاته الحسنى، فوحَّده توحيداً خالصاً كما هو حقه وأهله، وخضع له بحكم العقل قبل حكم الدين، وبإلزام الفطرة قبل إلزام الوحي، وعبده لأنه بِهَدي الفكر النافذ المبصر حقيق بالعبادة، جديرٌ بها حتى لو لم يأمر بها ولم يطلبها، أليس هو القائل في موعظته:

«أعبدوه لأنَّه أهل العبادة لتستطيعوا آختراق حجب النور والوصول إلى معدن العظمة».

ورآه في بصيرته على حقيقته التي يعرفه بها أولياؤه المقرَّبون بعظمته وكبريائه، وعلى شأنه من الجلال والجبروت، وعلى هيمنته ومهابته، وعلى قدرته وآستطاعته، وعلى بالغ مشيَّته، ونافذ إرادته، وعلى كل حقوقه المترتِّبة على ذلك؛ وهي فرض البصيرة والوجدان على ذوي البصائر، فأطاعه -حقَّ طاعته، وخافه كمال مخافته، وأدَّى إليه حقوقه أتمَّ الأداء.

إنَّنا لنسمعه يقول:

«إنّ الإنسان الذي يعتقد أنه على مرأىً من الله سبحانه ومسمع منه، وأنَّه حاضر بين يديه تعالى؛ سوف يخاف أن يقوم بما لا

يرضاه ».

«إذا تيقن الإنسان أنَّ كل العوالم الظاهرة والباطنة هي في محضر الله، يستحيل صدور أيِّ ذنب منه، وحصول أيَّة معصية ».

وألفاه في شعوره إله الرحمة والإحسان، واللُّطف والإنعام، والعفو والصفح، والحلم والستر، فرقَّ له وخشع وتذلَّل وخضع، حامداً شاكراً، عابداً ذاكراً، يرى كثير عمله في طاعة ربِّه العظيم أقلَّ شيءٍ وأنزره، ويرى صغير معصيته في جنبه أفدح جرم وأكبره، بل إنَّه يرىٰ ترك محبوبه ما دون الوجوب من بعض العيوب، يُنقص الحظ من الإيمان الصادق، ويرى فعل مبغوضه ما دون المنع من بعض الهنات والهفوات يُخلُّ بكمال العبودية وتمامها.

إنَّه يقول:

«الإنسان الذي يكون الله وليَّه ليس مستعداً لارتكاب أدنى ظلم ولو كان مقابل ذلك كل الدنيا ».

«لا تستصغروا الذنوب الصغيرةَ فإنَّ عاقبتها وخيمة ».

ولقد تمثلتُ الخميني العارف فرأيته صورة مصغَّرة لسيِّد العارفين وأميرالمؤمنين، أرى منها حقيقة العرفان عند جدِّه العظيم، وأُبصر فيها روح المعرفة بالله لذلك الإمام ملهم المعرفة الإلٰهيَّة، ولقد قرأت له ما كتبه في شباب عرفانه فرأيته شيخ العارفين الذي لا يطاول في فنِّه ولا يُجارى في عمق معرفته، ولا يساجل بحر عرفانه.

- وعبادة الامام في حياته سرُّ عظمته ومجده، وباب فلجه ونجحه، ومغزى تأييده وتسديده، حين رأى الله بها عبداً عبده كما أراد، وأطاعه كما أحبَّ، وأخلص له خلوص العارفين الوالهين، فاصطفاه وآختاره لبالغ كرامته، ومحمود منزلته، ورفيع درجته، وحباه وأعطاه كما لم يَحْبُ أحداً ولم يعطه، ووفَّقه لما لم يوفِّق إليه غيرَه تكرمةً وتجلَّةً وإعزازاً.

وعبادة الإمام قد أخذت عليه كل وجوده حين نبعت من كلِّ أحنائه كما ينبغي، فهي عبادة القلب العارف البصير، كلُّها خشوع وضراعة ومحبة

وهيام، و هي عبادة العقل (المعرفة السليمة) لا تشطُّ عن الصواب في حقيقة الذات الأزلية، ولا تزيغ عن سواء الصراط في السير إلى الله نشداناً وطلباً، و هي عبادة السلوك ، أداء الوظيفة و الواجب، جهاد النفس، جهاد الباطل، البذل و التضحية.

العبادة الخمينية هي على حقيقة معنى العبادة كما أرادها الله ، لا تغادر شيئاً من حياته لا تحيط به ولا تحوزه، ولا تترك شيئا منها لا تدخله في رحابها السنيَّة البهيَّة، قد استغرقتها كلّها، وٱستحوذت عليها فلم تذر منها يسير شؤونها ولا كبيرها مغفلاً لم تنظره بعين ولم تمد إليه إصبع الإشارة بأنه موضع رغبة ملزمة أو غير ملزمة، وأنَّه محل كراهة آمرة بالترك أو غير آمرة، فدنيا الإمام كلُّها عبادة وتديُّن، وأفعاله كلُّها رهين القربة وطلب الرضوان، الفريضة الواجبة وأفضل منها كلمة الرفض، الركعة لله وخيرٌ منها مقاومة الطاغوت و إباء الباطل، الخشوع و الدُّموع في محراب الشوق إلى الله و التذلُّل بين يديه وأحسن من ذلك مظهر العنفوان و التعالي و الكبرياء في وجه فرعون، السعي الدائب في إرضاء الله و الانقطاع إليه، وأسمى منه التركاض في شؤون المحرومين و الدفاع عن المستضعفين، و إنقاذهم من براثن المستكبرين بإقامة حكومة الحق و إعلاء كلمة الله دولةً ونظاماً.

لقد كانت آهات الإمام الثقال، وحسراته الطوال، لحوازب الخطوب التي أناخت كلاكلها على صدر شعبه المكروب خير عبادته، وكانت لهفاته الضارمة التي تقيمه ولا تقعده، وتضنيه ولا تريحه، يحدوه حاديها المغذُّ المُلِحُّ في السير إلى الغاية الأسمى، إزاحة الطاغوت المستبدِّ الجائر، و إقامة الحق العادل المترفِّق، كانت أفضل طاعاته، وخير قرباته.

لقد كان له في اللَّيل سهر طويل، وقيام ثقيل، ضراعةً بين يدي الله وتذلُّلاً، وفكرة في حال الأُمة وسبيل نجاتها، وذلك مهمُّ عبادته، وكان له في النهار سبح طويل في شؤون الإسلام و المسلمين وذلك سنام تديُّنه، كان له بين ذلك فترات من السكون تغمرها نار الآهات و الشجون، و يطفئها تهتان

الشؤون، حسرة على رهائن الكربات، وتفجُّعا لأُسارى النكبات في الأتون الضارم للظلمة، أذلّاء مستعبدين مقهورين، يقتاتون الذلّة والحرمان، ويعيشون على فتات الموائد المتخمة، ويشربون الردغ الآسن فضل ذلك العذب الزلال الذي اختص به الجناة أنفسهم، وأسىً والتياعاً إذ لا يرى للحق معلَماً إلّا منكوسا، ولا حكماً إلّا معكوساً، حيث أمرَّ الباطل وٱستعلى، وٱستطار الضلال وٱستشرى، فأبعدُ شيءٍ وأبغضُهُ حكم الرحمٰن، وأقربُه وأحبُّه حماقات الشيطان.

لقد كانت عبادة الإمام عبادة الرسول (العبادة التغييريّة الثائرة) ، وعبادة الأئمة الهداة (العبادة الهادية) ، وعبادة الأحرار الأُباة (العبادة الرافضة) ، وكانت بعد ذلك عبادة الدمعة الخاشعة والانكسار في محراب الضراعة والبكاء الطويل خوفاً من الله وخشية، فالخميني الهائم بأسمى معشوق على عظيم معرفته بمن أعلقه حبه الجسيم، وكبير إلمام بصفات جماله وكماله ليكون له في حبِّه وهيامه أُمورٌ يقلُّ نظيرها اليوم، أو لا يكون لها نظير، وشؤون يندر مثيلها، أو لا يكون لها مثيل، فلقد عرف ربَّه المعرفة الأسمى فأحبَّه الحبَّ الأعلى، وأبصر من محاسنه ما لم يبصره سواه فاستهواه وذاب في هواه، فهو حاضر في قلبه الشغوف شمساً طالعة تضيء أرجاءه بنور التقوى واليقين، وهو عتيد على شفتيه الذابلتين ذكراً وتسبيحاً، وهو في حركاته وسكناته يطلب فيها مرضاته، ويبتغي حسناته.

وهو واصب الوجود في ثورته، غايةً ومقصوداً، ودليلاً ومستضاءً، فحاكماً وسلطاناً، كلمته نافذة، ورأيه مطاع، وحكمه ماض، وإرادته غالبة.

ولقد كانت صلاة الليل والنوافل الرغيبة بعد الصلاة المكتوبة معلماً واضحاً في رحاب العبادة الخمينية، فهي ربيع العاشقين، ومحط رحال المشتاقين، ومهوى قلوب الواهين، إليها يولّون وجوه القلوب الصادية إلى الزلال العذب للّقاء بالمحبوب الأعظم، وإليها تُمتَطى زوامل الأفئدة الظمأى إلى نمير الوصال بالذات الأقدس.

لقد ألف الإمام العاشق تلك النافلة و آعتادها كالفرض الواجب فلم يتركها حتى ليلة أوبته من باريس إلى طهران، والتزمها وحرص عليها دأبه مع الفرائض اللآزمة، فترى العاشق المستهام لا يعتم في نجوى الحبيب ولقائه اذا هدأت الحركات، وغفت العيون، وغلب الكرى على الناس من حوله، وذلك آية صدق الحب، ومن صدقه فاقل ما يفعله أن يصرف طائر الرقاد عن عينيه، وأن يكحلها بمرود السهر، ليقوم المحبُّ المدلَّه ساعة يبلُّ فيها غلة القلب الظامئ، وينقع صدى الروح الضاحية يشدُّ نفسه شدّاً وثيقاً بأسباب الأزلي الأرفع، ويعمق آصرة الارتباط بين العبد ومعبوده، ويستدره ألطافه الخفية، ونعمه الظاهرة التي بها يصلح حال الأُمة فتنجلي عن ديارها غواشي الليل البهيم لجاهلية العصر، ودعارات البلاء الأليم لصروف الجور والطغيان، ليشرق الفجر ضاحكاً يبسم للنفوس والأبصار، ولتمتد من علٍ يد اللُّطف والإحسان تأسو الجراح، وتمسح على القلوب المكدودة ولينهمر فيض البركات أفانين وألواناً تعمر به الأرض المجدبة، وتحيا به البلاد المحلة الخاوية.

وكان الدعاء في عبادة الإمام على ذلك المنوال وتلك السجية نشداناً لتلك الغاية، وكانت قراءة القرآن حديث المتوادَّين من وراء الحجب حيث عزَّ حديث المباشرة، ونجوى الحبيبين من خلف الأستار حيث قد آستحال لقاء الحسّ ونجواه، يسمع فيه المحبُّ حبيبه يحدّثه بفنون القول، يعظه ويهديه، ويعلّمه ويزكّيه، ويرسم له طريق الكمال الشخصي والاجتماعي، ويدلُّه سبيل الارتقاء في النفس والواقع، وينير له هادياً مسلك السعادة في الدارين، ويعطيه من زاد الثورة ما يعطيه، ويشحذ همَّته لها دأبه في ذلك وكما هي قدرته عليه، ويضرب له الأمثال من الجبابرة والثائرين، وينثر له العبر من دروس الحياة المجاهدة للأنبياء ويعده النصر والتمكين، والفوز بعاقبة المتقين.

الوالد والمولود

لقد وشجت بين الامام الحفيد وجدّه السبط الشهيد وشائج ثلاث:

الدم والدين وروح الثورة، الدم يعطيه عبر الأصلاب الزاكية والأرحام المطهَّرة مزايا العظمة موروثة من أهلها، وسجايا المجد متحدِّرة من ذويه، والدين يهبه وهو غذيه ورضيع لبانه الطهور فضائل السماء، كما صنعتها على عين فكرتها الصائبة وبصيرتها الثاقبة، ويزوِّده — وهو ينهل منه ولا ينفك — محاسنه الانسانية من بارئها ومحامده الملائكية من مبدعها ويجد ذلك إليه باباً مشرعة تفتحها على مصراعيها يد الخير وروحه العطشى إلى الفضيلة، فتكرع الروح في ذلك الفيض حتّى ترتوي لتصدر عنه ناقعة الغليل تطفح رواءً وينعاً، وتنقلب عنه باسمة أنيسة مشرقة المحيّا، قد أخذت من نوره وجماله ما تشرق به وتضيء، وتطلع طلوع الشمس الضحوك .

ثم تتعالى روح الثورة به إلى المحل الأرفع لتشدّه شدّاً وثيقاً بأبيه الأكبر ثائر كربلاء، وقربان الرسالة، ومشعل الإباء والشهادة.

لقد عشق الإمام جدّه الحسين عشق الرساليّين لروادهم، وهام به هيام العظماء بمن أناروا لهم طريق العظمة بدمائهم، وصنعوا ملاحمها بحماساتهم، وكانوا إليها معبراً صنعوه بأجسادهم، ومناراً يدلُّ عليها عُلِّقت فيه قناديل مضيئة، وتلك قلوبهم.

لقد وله الإمام بأبيه السبط وَلَهاً جرَّه إليه على الطريق الحمراء، طريق البذل والفداء، تكلم قدماه وتدميان، وتتقاذفه لهوات النيران، وتتعاوره جَيَشات العدوان، فلا يلين كأنه الصخر الجامس، ولا يضعف

كأنه قلة من جبل، ولا ينحني كأنه الطود الأشم، حسيني الروح والمنهج، حسيني القلب والإرادة، حسيني الجود والعطاء، نفسه على راحتيه يتربَّص ساعة تُراد منه فداءً فيهبها، ويترقَّب أوان تُطلب منه تضحية فيعطيها، لا يرى لها ٱختيار الرفض كأنَّها قد جبلت على التسليم، ولا يجد عندها الصارف عن الإجابة كأنها قد أُلهمت الانقياد.

لقد تمثلت روح الله على هامة العلياء ينادي أباه الحسين بآسر النداء، تفوه به الروح الشاعرة المتيَّمة لا اللسان المفحم أو المنقطع، لا يحير أزاء مشهد الخلود البهيِّ عديم النِّدِّ في الدارين لذلك الوتر الموتور:

إيهٍ أبا عبدالله..

يا لحن المجد... ونشيد العلياء.. ياعزة الأرض... وشموخ السماء...

من بين أهل الأرض نلتها فصرت بها رمزاً.. ومن دونهم ظفرت بها فكنت ثورة دائمة.

دمك المسفوح يجري في عروق الأرض يبعث فيها عزمة الإباء... وشِلْوُك الطاهر فم صدَّاح يَنشد أرفع ألحان الفداء...

ورأسك فوق القناة وحيٌ يتنزَّل بآي النجدة للمحق المهتضم...

هذا ثرى كربلاء تطوف به ملائكة السماء تقدّس الجلال وقفتك فيه... وتذوب من عجب لعظيم مشهدك عليه.. فأنت السبط بضعة المصطفى...

تطوي عادية الطغيان بيمينك حين تقوم في وجهها كالعاصف الغضوب يجلجل صوتك :... عودوا أيُّها الضائعون من متاهات الضياع،.. وهبوا أيُّها الخانعون من نومة الخنوع،.. وقوموا أيُّها المحرومون من قبور الحرمان،.. نزلزل الصروح الطاغية،.. وندكُّ العروش المتجبِّرة،.. ونسحق بأقدام الرفض عوادي الضيم والاستعباد،.. ونجلو بنور الحق ليالي الغواية والانحراف.

أنت لنا على الطريق الدامية الضارية دليل ومنار،.. وأنت فينا

إلى ذرى المجد عزمٌ وآقتدار.. خُطانا تقفو على سبيل الإباء
خطاك،.. وقلوبنا على الراحات ترقل في طريق عُلاكْ،.. نهجتْ
وليس تحور خطك الميمون،.. وآنطلقت شامخة على هامات
المنون،.. دفاعا عن الإسلام المجيد وذبّاً عن حماه،.. وصدّاً
لعاديات اللّيل قد آعتكرت على ضحاه،.. وأوبة به بهيّاً عليّاً
إلى ساحة الوجود،.. يحيي الأُلى دفنوا في طوامير الخمود،..
ويعيد للدنيا الداجية من مشرق الخير شمساً طواها الغروب،..
تجلو حدابير الشقاوة عنها قد أذابتها بحر الخطوب.

ولقد رأيته يغذ السير يقفو خطى أبيه الرائد، ويدأب وينصب سعي المريد الطالب الجاهد، نصب عينيه وسمعه سيد الأحرار يردِّد هتاف الحرية، ويشير بالبنان إلى تلكم المواقف العليَّة، صنعها إباؤه الفرد المبدع، وأوجدها شممه الوتر الذي لم يشفع، همُّه أن يعيد للتاريخ مكرورة صورة أبيه السنيَّة، وأن يرى ناظر الحياة من جديد تلك الطلعة البهية، قد تجسَّدتا واقعاً من العمل العظيم، وحلّتا جسداً مرئيّاً من الفعل الكريم.

لقد تخلَّق الابن بخلق الأب تخلُّقا صيَّره نسخة طارفة توافق في الأُصول والفصول تلك النسخة التي قرأتها الدنيا على مسمع الدهر ضمها سجلُّ الخلود بين دفّتيه، ولقد آماث كيان النفس والقلب في مصهر التأسِّي والاقتداء فخرجا كأنما هما شنجتان من تلكما الروح العالية والقلب الزكي، يُريانك وقد حَجَبَت عنك القرون المتطاولة حقيقة الأصل الماضي.. التليد لهذا الفرع الطارف الوليد، ويُعرِّفانك على عظمة تلك النفوس المقدَّسة، وجلالة تلك القلوب الرافعة.

ولقد آشتقَّت ثورة الإمام من ثورة أبيه، ولا أخاف الظلم والحيدان إن قلت إنها هي مكرورة، أو هي في يومنا الحاضر موصولة بها في يومها الغابر، ولقد سُقِيَت شجرتها الغضة الناضرة على ثرى إيران من ذلك الوريد الحسيني النازف على أرض الطفوف، أحسن سقيها به ولد أجاد التأسِّي بأبيه، والافادة من دمه، وإبقاء الشعلة الوهّاجة التي حملتها يده الطاهرة

تعانق السماء، تنير الطريق طريق الفداء، فيبصر على نورها أبناء هذه الأُمة الثائرة اليوم مسرب النصر، والظهور من جديد، قرآنية محمدية بعد تلك الغيبة الواصبة التي لم تنقطع وقد تقطعت منها نياط القلوب، ولم تزل وقد زالت لها ثمالة الراحة والرضى بالعيش من قرارات النفوس والافئدة.

إنَّه روح الله، ابن الحسين دما ودينا، عاطفة وعقيدة، روحا ورسالة، فما عليه بعد ذلك ألّا يشابه أباه؟ وألّا يسلك دربه مهما حفَّت به الصعاب والعقابيل! وما عليه ألّا يعطي الرحم المجيدة حقها من دواعيها الكريمة؟ وألّا ينيل آصرة الإيمان موشوجة بآصرة المحتد الخيِّر اللهيف إلى الخير، مطالبَها من رسوخ الارتباط، وصدق المجاهدة، وعظيم التحمل؟

أليس هو سليل ذلك الثائر وربيب تلك الثورة؟ أليس هو ذلك الوليد الذي قُدَّ من الحسين بضعة من بدنه الزاكي، وربَّته عاشوراء في مهدها المضرَّج بالدماء، وحضنها المليء بالأشلاء؟ فأولى له ثم أولى أن يحفظ أباه جسداً وثورة، وأن يديم آمتداده دماً ونهضة، وأن يعيده متجدِّداً بدناً ودوراً، وكذلك فعل وما أروع ما فعل!، حفظ أباه خير ما يحفظ آبن أباً، وأدامه أفضل ما يديم خَلَفٌ سَلَفَاً، وحدَّده أحسن ما يجدد الأبناء التالون آباءهم الغابرين.

أُنظر ثورته حيث شئت من فصولها وأيَّامها، هل تجدُ غير ثورة كربلائية المعين، طَفِيَّة الحماسة، حسينيَّة الخلقِ والإبداع، يصنعها الحسين على عينه، ويسوِّيها بيده، وينفخ فيها من روحه، لتخرج من رحم الإيمان الفرد والبطولة الوتر لأُمة الإسلام في إيران خلقاً سويّاً في أحسن تقويم، تَحار به الفِكَر، وله ضياء يخطف البصر، عَشَتْ فيه عيون الذين لم يألفوا غير الليل الأيهم فسمَّوه بدعةً في المألوف من ظلماتهم، وآستنارت به في الداجيات أنظار الذين ترقَّبوه مليّاً على صبر و عناد و إصرار، فسمَّوه ظفر النور بعد غلبة الدَّيجور، وأوبة المجد الأثيل بعد الأُفول الطويل.

أدر طرفك في ثورته مذ صدح بندائها حتى يومك هذا وهو لم يعتم

ينوء بأعبائها، لن ترى غير الحسين صيحة وحساماً ولواءً، صيحة فائقة تدوي «**يا لثارات الإسلام المضيَّع**» في الصمت المطبق، وحساماً مرهفاً لمع بريقه في ظلام الخوف والخنوع، ولواءً رفَّافا خفاقاً مهيباً قد عانق السماء، ترفعه كف خضيبة بالدّماء حيث نجمت ألوية الشيطان تطلع على الناس من كل مكان.

ناظر القلب البصير يرى جليّاً دورعاشوراء في مسيرة الإمام وثورته، فهما قاما بروحها، ونهجا سبيلها، وقصدا غايتها، وصالا بسيفها، وثاورا ببأسها، ويرى كذلك أن نداءات الحسين وشعاراته قد عادت مكرورة على لسانه تنبعث من جنانه مكتوبة على جبين نهضته بدماء أُمته «**أُريد الصّلاح والاصلاح في الأُمّة**»، «**أُريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»، «**لا أُريد طاعة اللئام، ولا متابعة الطغام**»، «**هيهات منّا الذلّة**»، «**الموت على الحق سعادة، والحياة مع الباطل برم**».

وتلكم هي الأمة التي ثارت مع إمامـ ـمثّل نفسها وقد هدرت بركانا كربلائيا مع حسين الزمان، إنها قد نهضت لنصرة الحسين الذي قام يدعو من جديد إلى الثورة على الباطل والطغيان، وإعلاء كلمة الحق والإيمان، فلا عجب أن تراها تردِّد أنَّ جهادها حسيني وأن يومها الدامي عاشوراء متجددة، وأن أرضها التي تصنع عليها ملاحم الفداء هي كربلاء معادة، وأن قائدها رَجْعُ ذلك الوتر الموتور، وإيابه باللطف والنور وأنَّها سوف لن تخيس كما خاس أهل كوفان، ولن تُسلِمَ إمامها كما فعل أهل الغدر والمكر، ولن تنقض الغزل أنكاثا كما فعل أشباه تلك المرأة الخرقاء، وها هي تكرر الإجابة «**لبَّيكَ يا خميني، لبَّيكَ يا خميني**»، بعد أن تعيد النداء الحسيني «**أما من ناصر ينصرنا**» تتمثله قد صدر اليوم من فم زعيمها وهاديها ورائدها، وهو أجدر به لأنه وريثه غير منازع فيه، ولا مقصِّر في حقه ليكون لسان هذه الأُمة الناطق بتلك الحقيقة شاهداً غير مكذوب ولا مردود، على نسبة الثورة والثائر، ومعين النهضة ورائدها، وأصل القيام

و باسله الهمام.

ثم جاء القائد ليقول قولة الحق، إنَّ ما عندنا هو من الحسين ومن كربلاء، و إنَّ نَصرنا هو عطاء السبط الصريع، و إنَّ مكاسبنا التي ظفرنا بها هي نَفحات تلك الوقفة الخالدة على ثرى الحماسة الفريدة، و إنَّ الحسين هو أصل هذه النعمة الغامرة، و باب هذه العطايا الوافرة.

وها هو ذا يوصي علماء البلاد ورواد المنابر، وأبناء الحوزة، أن يواصلوا تأجيج تلك الحماسة الحسينية في الصدور، وأن يديموا فورتها في الدماء، ليدوم عطاؤها بصنع الرجال الرساليِّين المتحمِّسين لقضيَّتهم، الباذلين لها كل نفيس، المسترخصين لها كل غال حتى بعد أن انتصرت الثورة وظفرت بمرامها، فإنَّ أساس الثورة وسرَّ انتصارها هو كذلك أساس بقائها وسرُّ دوامها، و إن الحسين الذي فجَّر هذه النهضة الكبرى على هدي نهضته الأُولى هو الذي يبقيها حيَّة راسخة شامخة كما أبقى نهضته لا تبليها الدهور، ولا تخلقها العصور، بل هي حيَّة تتجدد كلما اعتقب عليها الزمان وكرَّ عليها الحدثان وإنَّ تلك الروح الحسينية التي حلت في جسد هذه الأُمة الثائرة بعد ارتباطها به ذلك الارتباط الثوري المبدع الخلّاق يجب أن تبقى في هذا البدن الكريم أرسخ وجوداً فيه، وأقدر على العطاء والإبداع بتعميق العلقة وتوثيق الوشيجة، و إحكام الآصرة بواهب تلك الروح الطاهرة، رأس التضحية و الفداء، شهيد كربلاء.

و إنَّ تلك النفحة العلوية التي عبقت في إيران منسابة إليها من ربوع كربلاء الدامية، بقيام هذه الدولة المجيدة، نفحة يجب أن تُصان ليدوم وجودها المبارك الميمون مصدر خير عميم وفضل جسيم.

ولا تزال هذه الثورة موصولة بمعينها، مشدودة إلى رائدها ومدبِّرها لتبقى تنهل من المعين روحَ العظمة والشموخ، وتأخذ من الرائد المدبِّر علم صلاحها وبقائها واستمرارها، ولا تزال كأنَّها ثورة كربلاء في الأُتون الفوّار للعدوان والظلم فلا تحترق، وفي لهوات الكيد والبغضاء والمكر فلا تذوب

لأنّها حسينية المبدأ، حسينية البقاء.

وإن تكن تحتشد الأمثلة والمصاديق للقضية الكبيرة في حياة الإمام (حب الحسين وعمق الارتباط به) فلا أجد ما يلزم سردها جميعاً ليكون ذلك برهان الصدق في تلك القضية ودليل الصواب فيها، فهي أوضح الواضحات في شؤونه، وأبين ما في دنياه من محامدها، وأعلى ما في خصال الحياة الرسالية التي يحياها، ولأضرب لك مثلاً واحداً على ذلك يغنيك عن الجم الكثير ويشرع في وجهك الباب إلى اليقين الكبير، تبصر فيه تلك الحقيقة كجلاء الشمس في رابعة النهار، وبهاء حقيقة الحب في قلوب العارفين الأبرار.

ها هو (محتشمي) شاهَدَ القضية مأخوذاً بفرط جلالها، لا ينساها وقد استحوذت على عقله استحواذ الغالبين، ولا تعزب عن باله وقد نالت فيه مقامها المكين، انّه يقول: «في التاسع من شهر محرم بينما كنت في ساحة دار الإمام أتاني صهر الإمام آية الله اشراقي، وأبلغني بأن الإمام يريد أن يخرج إلى ساحة الدار لإقامة مجلس العزاء قبل ظهر اليوم بساعة ويطلب منك أن تستعد لقراءة مراسم العزاء على الإمام الحسين (ع)، فتحيَّرت في أمري لأنّي لم أكن مستعداً لذلك في ظروف كهذه، ومحيط كهذا المحيط، فقلت له: أبلغ الإمام وقل له بأنّي لست على استعداد في الوقت الحاضر ولا أستطيع أن أقرأ ما يناسب هذه الظروف في باريس وبين طلاب الجامعات، وفي محضر الإمام، حيث ان المراسم التي أعرفها هي نفس تلك المراسم التقليدية التي تقرأ في مجالس العزاء الاعتيادية في إيران، وفي ظروف ومحيط إيران، ولكن الإمام أرسل يقول: «**قولوا لفلان «لي» بأنّي أُريد أن تقرأ نفس هذه المراسم الاعتيادية المتداولة**»، فأحسست بأن الإمام لمحبته الشديدة لأهل البيت، يريد أن تقام هذه المراسم في باريس في لب العالم الغربي كما تقام في إيران وبنفس الأعراف والرسوم والسنن النابعة من صميم الإسلام، والتي لا زالت قائمة ومنذ أكثر من ألف عام، وفي ذلك اليوم كان

الاجتماع في دار الإمام عظيما جدّاً، والمراسلون يشاهَدون بكثرة، وما أن كانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر حتى جاء الإمام والحزن العميق بادٍ على وجهه، فجلس وجلست إلى جانبه، فأشار إليَّ أنِ اقرأ، فبدأت بالقراءة، وكان موقف الإمام هذا، وهذا المشهد أمراً غريباً، وغير منتظر بالنسبة لأُولئك الذين حضروا هذا المجلس من مختلف دول الغرب ليروا مَنْ هذا الإمام الذي يقود هذه الثورة العظيمة اليوم ضد الشاه، وضدَّ أمريكا والاستكبار بأسره، وإذا بهم يرونه في اليوم التاسع من شهر محرم يجمع الناس حوله، ويجلس للبكاء على مصيبة جده الحسين، كان الجمع غفيراً، والمراسلون يسجِّلون هذه المراسم من أول لحظة شروعها وبدقَّة، وما أن التفتُّ حتى رأيت الإمام غارقا في البكاء، والناس من حوله أيضا يبكون» .

وان تكن تحتشد الكلمات التي فاه بها الحفيد بمجد أبيه والوصاة بحفظ خطه، ودوام الشعائر المعهودة في ذكراه الدامية المتجددة فانني اكتفي منها بهذا القليل اليسير، ففيه القدرة على أروع التعبير عن ذلك الأمر الكبير.

لقد قال رضوان الله تعالى عليه « ان قضية سيد الشهداء هي السر في حفظ الاسلام والعلة الأساسية لبقائه، ويجب تخليد تلك الثورة التي قام بها ذلك العظيم» .

« إن حفظ المساجد وشعائر العزاء الحسيني هوسرُّ بقاء الاسلام وانتصار الثورة» ، « ان كل مالدينا هو من الحسين» .

الفاتح الاكبر

لفاتح العصر، بل فاتح الزمان حفيد الرسول و ربيب القرآن، بعد ذلك الفتح الخالد، فتح النبي الرائد، خصال هنَّ عماد ريادته وزعامته، وسر فوزه وظفره، ومدعى توفيقه وتأييده، بهنَّ ٱكتملت له سمات الإمامة الحقَّة، ولهنَّ سمَّاه أخيار البشر الفاتح الأكبر، ووسموه بسمات الصدِّيقين، ونعتوه بألقاب المقرّبين، ولا غرو أن ينعتوا و يسمُّوا، ولا عجب أن يصدقوا، فقد رأوا العجائب من أمر الفضائل في حياة الإمام الكريم، وأبصروا الجمَّ المذهل من شؤون الروح الفاضلة والقلب السليم، ولمسوا لمس اليد؛ الطارفَ المدهش الذي لم يبصروه، بل قرأوه في متون التاريخ عن حياة الأنبياء والهداة والأولياء من أُمور الريادة الإلٰهية الصادقة والقيادة الربَّانيَّة الرشيدة.

لقد كانت لإمام الأمة روحٌ قياديَّة عجيبة نبعت من كيان الإيمان وٱنبثقت من وجوده العظيم، وكانت من صفاتها التي أشرقت بها وأضاءت (صفة العلم والفقاهة) فالإمام قائد عالم عنده من العلم بربِّه، بعظمته وجلاله ورحمته، وٱستطاعته، وقدرته، ما يشدُّه إليه أوثق الشَّدِّ، ويعمِّق وشيجته به وخلوصه إليه، ويزيد اتكاله عليه وٱستمداده منه.

وعنده من العلم بشريعته، والتفقُّه فيها، ما يزيده حرصاً وإصراراً عليها، ويُحكِمُ ربط العُرى بينهما، ويملأ قلب المتديِّن بها، المجاهد من أجلها رغبة فيها وحبّاً وتقديساً لها، وعزماً على البذل والتضحية على سبيل سؤددها وعزِّها وٱنتصارها.

وعنده من المعرفة بشؤون أُمته وزمانه والعالم من حوله مايُعرِّفه طريق

الصواب في النضَال المقدّس ويدلُّه سواء الصراط في الكفاح القرآني، ويُبصِّره مواضع القدمين في ريادته لأُمته على طريق الله، حيث تحتشد سبل الضلال وتتشعب، وتتداخل وتتفرق بمظاهر منمقة خادعة، وألبسة مزوَّقة مغرية. خذ إليك من ولائد صفة العلم والفقاهة عند الإمام هذه القضية البهية، في غمرة الفتن الداجية في الضلالات، وفي لجة الشؤون الطارفة والمستحدثة، وفي الرهج الصاخب للإعلام الضِلِّيل، وفي الإلزام القاهر لمراعاة شأن الواقع القائم بالحسنى، وتنفيذ حكم الاسلام بالحكمة البالغة، والفطنة السابغة، وإبداء هدى الله في كل واقعة في وضع هو كالبحر الخضمّ من الوقائع، وفي كل حادثة في عصرٍ آسمه عصر المستحدثات، وتدبير أُمور دولة كبيرة في عالم غارق في المتاهات، لايريد لها أن تقطع الأواصر بهذا العالم فلا تعطيه ولا تأخذ منه فيا يرضي الله ولا يسخطه وفيما تقتضيه سياسة البلاد ومصالح العباد.

فما الذي فيه تلك السياسة وذلك الصلاح؟، وما الذي به يستقيم شأن الإسلام والأُمة؟، وما الذي لا يتعارض وغبطة الدين والديّانين؟، وما الذي بعد ذلك تشخص الحكمة أنه لا يوقع في شراك الشياطين وأحابيلهم، ولا يجرُّ رويداً الى أوهاق الظالمين و أضاليلهم؟ كيف يوائم قضية الاسلام ورسالة القرن السابع بين واقع القرن العشرين الصاعد وحكم دينه الذي لم يزل تحت دثار القرون ساجياً منعته الحماقات القائمة أن يقوم؟ بأيِّ عقل نافذ وبصيرة هادية، وعصمة مانعة يسرح فقيه الزمان في الفضاء الممتد لدينه العظيم يجني من روضه ورود الأحكام العاطرة ليعلّقها على وقائع الزمان وشؤونه ومستحدثاته تعطّرها بالحكم السديد، وتزيِّنها بالرأي الرشيد؟ وبأيِّ آقتدار فقاهتي مكين يحتفر في بطون الكتب والمصادر والمظانّ الصحيحة ليفجّر النبع الصافي يرتوي منه الواقع الظمآن إلى هدى الإيمان بكأس الرشاد والسداد ينقع الغلة الحرَّى، ويطفئ نارالصدى. وحين تعصف بالبلاد قبل فترة أزمة شديدة اسمها أزمة القانون حارَ في أمرها أعضاد

الإمام الذين نصبهم هداة وأعلاما وأدلّاء منفذّين في أهل الشورى وحماة الدستور والقائمين على التنفيذ والتطبيق، ويبقى معها كل هؤلاء حيناً من الدهر جامدين على حيرة وٱضطراب، ومعرّة خلافٍ وشقاق، تطلع عليهم في دُجى هذه المحنة شمس الإمام بنور الحكمة والبصيرة تدلُّهم سبيل النجاة ممَّا وقعوا فيه، سبيلاً مهيعاً أبلجَ وضَّاحاً هو سبيل الإسلام العظيم في حلوله للمشاكل، فإذا هي جنة فيحاء من قانون الإسلام وهداه، فيها حكم كل واقعة، ورشاد كل متاهة، وضياء كل عتمة.

ولله هو ما أعجب ما صنع، مازج بين روح العصر والرسالة، وناغم بين أحكام الدين والمدنية، وواءم بين فروض الشريعة والقرن في عمل فذٍّ خرج به الإسلام إلى الدنيا يحمل في يمناه مشعل الهدى ووحي السماء، وفي يسراه ألق التمدُّن وبهجة التطوُّر، والمناغمة الفريدة بين علم الروح وعلم المادة لترى أمراً عجباً توشك ألَّا تصدّق عينيها فيما تريانه من حقيقته الماثلة الطالعة عليها طلوع الصبح من أُفق العظمة التي صنعها (الفقيه الثائر) في إيران، ولقد أعانته على فعله البديع فقاهته المجدِّدة المقتدرة، وفهمه الرائع لروح الشريعة وذوقها، وبصيرته بشؤون الزمان الصاعد، وحنكته الفائقة التي بها ٱستطاع المواءمة والممازجة الفريدة دون حيفٍ على أصالة الدين، أو جفاءٍ لروح العصر، وكون الإسلام هو داعية الصعود والارتقاء، والمسابقة في مضامير العلم للوصول بالواقع إلى كماله المنشود في ميادينه كلها.

وعلم الإمام القائد هو العلم الصحيح النافع لأنه علم العمل، أفاده ليعمل به لا ليناظر به الآخرين أو يبجّح ويتطاول به عليهم، وٱستقاه من نبعه الأصيل ليعرف حقوق ربه فيؤدِّيها، وحقوق رسالته فيقوم لها بأعبائها، ولقد رأى الله منه ذلك فوهبه علم مالم يعلم، وٱصطفاه — لأمانته الكبرى — أمانة القيادة دون عداه، وحباه بالنصر الأكبر، واختاره له دون ما خلاه.

وعنده من صفات قيادته صفة (المحبة والهيبة والوقار)، فقد وهبه الله في القلوب مكان الحب والإجلال، وأنعم عليه بالمودة التي قدَّر أنه يجعلها

لأوليائه الأصفياء في نفوس عباده «**إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرَّحمٰن وُدّاً**». وتحنَّن عليه بمهابة الناس له لأنه قد هابه، وبتوقيرهم له لأنه قد وقّر ربه وعظّمه، وأعطاه أزِمَّة النفوس ومقاودها لأنه قد انقاد لخالقه تمام الانقياد، وأسلس له زمام النفس والفؤاد.

يراه الناس فيبكون، ويقتربون منه فيرتجفون، ويسمعون صوته فيخشعون، ويهتف بهم نداؤه فيهبُّون، بل إنَّ محبَّته ومهابته في النفوس وانجذابها إليه لتبلغ حدّاً يحدّثنا عنه (محتشمي) فيقول: «من الأُمور الأُخر أنَّنا انتبهنا إلى أنَّ مجموعة من طلاب الجامعات الفرنسيين يحضرون مجلس الامام، ويستمعون كلماته كلَّ ليلة، فسألهم أحد الإخوة: أنتم تأتون كل ليلة إلى هذا المكان، فهل تفهمون أو تدركون ما يقول الإمام؟ وهل تعرفون الفارسية؟ فقالوا إنهم لا يعرفون الفارسية ولا يفهمون كلام الإمام مطلقا. قيل لهم فَلِم إذن تأتون إلى هذا المجلس؟! فأجابوا: نحن حينما نأتي إلى هذا المجلس ونستمع إلى الإمام وهو يتكلم نشعر من الناحية النفسية بروحانية خاصة».

ومن ملامح تلك القيادة الربانية (**الحكمة والتدبُّر**) في كلِّ المواقف والخطوات، فلا ينقل قدماً في ساحة جهاده إلّا بحكمة رصينة وتدبير محكم، حيث تكون خطاه موزونة متَّسقة، صائبة غير خائبة، ماضية منطلقة غير متلكِّئة ولا كابية، ولا يضع الأُمور في نضاله القرآني إلّا حيث يكون الصواب في مواضعها التي هي أهلها، وكانت الحكمة أُسّ النصر بعد التقوى والثقة بالله، وعموده بعد طاعة الله وخشيته والتوكُّل عليه.

وكان من تلك الملامح (**الشجاعة والجرأة**)، فلم تقف أو تبطئ به قدم الخوف والرهبة في مجالدته وطعانه، بل نهضت به جناح الإقدام والبسالة يشاور العاصف المنكر ويباسل الهزاهز والخطوب، ويخترق التيّار المائر الهادر غير عابئ ولا متوجّل، قد ملأ قلبه العزم والبطولة، وملأ إهابه الاقدام والجرأة، لم يغادر موضعاً يحتاج منه إلى مصداق البسالة إلّا أتحفه

به ليعطي عطاءه المنشود، ويبلغ بالإمام الهمام حيث يريد، من مواهب لا يحظى بها الضعاف الخائرون، وعطايا لا يظفر بها المتهيِّبون المتردِّدون.

وكان من ملامح تلك الروح القيادية (الحسم والقاطعيّة)، فهي تحسم الأُمور حيث يكون الحسم دواءها، وتقطع فيها قطعاً هو علاجها الذي لا تُبلُّ بغيره ولا تُشفىٰ بسواه، وبعض مصداق ذلك من الكثير الوفير الشاهد عليه، موقف الحسم من الطاغوت قبل ٱنتصار الثورة، وموقفه القاطع بعد ٱنتصارها من الاستكبار وأعدائها في الداخل والخارج، تتجلّى صورته الرائعة في موقفه من الأشرار في كردستان حين عاثوا فيها فساداً، وموقفه من بني صدر حين تمادىٰ في غيِّه وعناده، وخبط في حالكة طغيانه وٱستبداده.

وسل قضية (المنتظري) عن قاطعية الإمام التي قطّعت نياط القلوب بالعجب منها وبها، أُنظرها بناظر البصيرة الحيرىٰ من الذهول لفرط عُلوِّها وتفرُّدها، أو المستمسكة المعتصمة من الدهشة بحبل مارأت وعرفت من شؤون د ذا الإمام سليل العظام. سلها تجدها ليست تعني غير قطع بعض القلب لمصلحة الإسلام وليست تدل إلّا على إلغاء حصيلة العمر كان صلاح عمر الثورة في إلغائها، وليست تفيد إلّا أن الاسلام فوق كل شيء وقبله ولو كان رغيب الفؤاد وحبيبه، وتعني بعد ذلك قضية العدل الصارم لا تأخذه في الله والإسلام لومة لائم، وقضية الحسم الرائع كأنّه الحسام القاطع، تقطع به لله وصالح العباد أفلاذ القلوب والأكباد.

أليست تعني — والشامتون الحاقدون في مرصد المساءة والخبال، يتربَّصون بالغريم القديم لحظة الوثبة بأقسى النصال— أن في بعض ما يكون من الحسم لله وفيه شماتة الشامتين هو آية اليقين المكين؟، أو ما يكون للإسلام العظيم وفيه طعن العدو اللئيم هو آية البذل الجسيم؟، وأن أعظم الجهاد الصبر الحنظلي على العذل والشماتة والأذى، وتمزُّز صاب الشجىٰ؟، وهل الجهاد في سبيل الله إلّا جهد البدن يكلم أو يقطّع، وجهد الروح تحرق بالشجن أو تمزَّع، وجهد القلب يطير أفلاذاً برائش الغمّ العياء،

أو الطعنة البارعة النجلاء.

وتلك هي شمائل القوامة بالصدق والولاية بالحق، وفضائل الزعامة الرائدة والقيادة الفاردة.

لله هو حيث يقول في هذه القضية: «**الواجب الشرعي اقتضى أن يتخذ القرار اللّازم لحفظ النظام والإسلام، لهذا أعفيت ـ بقلبٍ دامٍ ـ حصيلة عمري...**».

وكان من ملامحها (**المثابرة والجد**) والنشاط على كبر في الجسم ووهن في الأعضاء، غطّت عليهما همّة النفس العالية، ونشاط القلب المتدفّق بالتوثّب والاقتدار، والانطلاق في ساحة المجاهدة انطلاق المارد الذي لا يعيى ولا يكلُّ ولا يضعف.

ومن ملامحها (الاستيعاب والمتابعة)، والنظر بعين الرقيب المشفق الحريص، إلى كل جهات القضية وأنحائها، وملاحقة صغير أُمورها وكبيرها، وعدم التفريط في شيءٍ منها بالإهمال والتضييع، وغضّ الطرف، واللّامبالاة، والاستهانة.

وكان من خصال تلك الروح القيادية عند إمامنا (**الرحمة**) وهي أبهاها وأزهرها وأوفاها روعة وشموخاً، وأنضرها عليه رونقا وجمالا، لقد اتّسم بها اتساما طغى على غيرها من أضدادها فكأنّه كتلة مجسّمة من الرحمة ليس فيها مكان لسواها، فطمع فيها حتّى العتاة المجرمون، وظنّوا أنهم ملاقوا وجهها الباسم الوادع رغم ما اقترفت أيديهم، ومن رآهم أو سمع منهم أدرك أنّهم يلوذون برحمة الإمام يستمطرونها بعض شآبيبها، برهاناً على أنهم فهموا وأحسّوا عمق الرحمة الخمينية ومداها الفسيح الشاسع، لكنّهم لم يفهموا حقيقة تلك الرحمة ومجالها، وأنها رحمة قرآنية، تستقي من رحمة الله، فلا ينالها ذوو المنكرات الفادحة، ومن ناءُوا بحمل الأوزار الثقيلة من جناياتهم، بل هي للذين يعملون السوء بجهالة مع هذه الثورة الكريمة ثم يتوبون، أو الذين يظلمون أنفسهم بمعاداتها مغرَّرين

مخدوعين، فيستصلحون بها، وتؤلّف قلوبهم بألطافها، أمّا أولئك الذين يسفكون الدماء، ويهلكون الحرث والنسل ويفسدون في الارض، فإنَّ لهم في النفس الخمينية حدّاً صارماً من السّخط والغضب، ووجهاً مكفهرّاً من الكراهية والشنآن، فلا هوادة ولا لين ولا تفريط في حدود الله وأحكامه.

ومن ملامح تلك القيادة الرشيدة (**النَّفَسُ الطويل**) الذي لا ملل فيه، ولا سأم، ولا انقطاع، ولا حصر، ترد عليه الأُمور بكل أثقالها وزحماتها فيتدبَّرها، ويقلِّبها ظهراً لبطن ويوجِّهها وجوهها الصائبة، غير برم بها، ولا ذي ملل منها، ولا مستاءٍ من طول وقفته معها، ومكثه رهن الفكرة فيها.

وكذلك كل معالجاته للأُمور الأُخَرِ التي لا يصلح لها الحل القاطع في لحظة واحدة لأنه خلاف حكمته، بل ينبغي لها النَّفَسُ الطويل، وسعة الصدر والأناة، حتى تبلغ حدّاً يكون الحسم فيه وهي في نهايتها كالتريُّث والصبر وهي في بدايتها.

والمتدبر الناظر بباصرة القلب يرى الكثير من مواقف الإمام من أُمور جهاده قد جرت على هذا المنوال، وسلكت سبيله، مفصحة عن حقيقة كبيرة في شأن القيادة الربَّانيَّة التي قاد بها الإمام أُمته، وفجَّر ثورته، وصنع دولته.

و(**سعة الصّدر**) في تلك الروح القيادية معلم بارز مثير، عجب له الكثير، بل حاروا فيه، فإنَّ للخميني صدراً ضاقت عنه الدنيا ولم تسعه فامتدَّ وانداح حتى وسعها هو وأحاط بها، فلا بدع بعد ذلك أن يتَّسع للهفوات والسقطات والتجاوزات عليه؛ ظلما له وإجحافا بحقه، وتعدّياً عليه، أو على دولته وأُمته حيث يكون الحلم أجدى، والصفح أولى لداعي الاستصلاح أو الحكمة، وكذلك هي سعة الصدر عنده في كل أُمور ثورته وشؤونها، فهي توأم النَفَسِ الطويل، والمتابعة الوئيدة، والحرص الصابر المتأنّي، حتى في مكارهها الشداد حيث تنقطع حتى نياط القلب الحليم لينطلق صاحبه إلى تعجُّل المواقف أو ارتجالها، والإتيان بها في غير مواضعها، ليفسد أمره، وينقض غزله، ويهدم بناءه.

و(الحسُّ السياسي) في قيادة الإمام فجر طالع بنور ساطع، لم تخف أنوارطلعته السنية على ذي عينين مبصرتين، فلدى إمام المسلمين حسٌّ سياسي ثاقب ملمٌّ مدرك ، قد يرى من خلف الأستار، ويشمُّ من وراء الحجب، وينظر بنور الله فيغدو كأنه علم الغيب يخبر بما كان، وينبئ عما سيكون حقّاً وصدقاً، غير معقَّب بالبطلان ولا متبوع بالتكذيب.

وكذلك هي سياسة العالم العارف البصير، الواثق من أمره وربه، يغذيها العلم بزاد المعرفة والإلمام تسوس بها، ويزودها العرفان بالبصيرة الثاقبة والنظر بالنور الإلهي فتبصر بها طريقها والعالم من حولها، ويهديها الاتّكال على الله والاعتماد عليه سبل الصواب والظفر فيما تفعل وما تقول. ولنضرب لك أمثلة على ذلك من حياة إمامنا الكريم ومواقفه.

حين أُخبر بعزم الفَجَرة الكفرة في بغداد — يوم كان هو في النجف — على إعدام الكوكبة الأُولى من شهداء الإسلام في العراق وحيث ٱستنكر ذلك وتأبّاه، وسعى جهده ألّا يكون فلا يخسر الإسلام بعض أبنائه الأوفياء، وحين لم تعطه زمرة البغي أُذُناً صاغية، قالها منبثقة من حسِّه السياسي الحديد النظر، إن لم نقل إنها نابعة من علم الله بتوفيقه ولطفه:

«لأفعلنَّ فعلاً لا يعلمه إلاّ الله ورسوله».

ولقد عجب لها منكرين بعض من سمعوها منه، وجاءت الأيام لترى الإمام الخميني يحمل سيف النقمة والغضب ليثأر لكل الدماء الزاكية التي أُهريقت بحراب الجناة، وكأنه المارد الصائل قد شدّ على معاقل العفالقة اللئام يهدُّها هدّاً، يبير ويأسر ويشرِّد، فعلة الموتور يطلب ثأره وتراته.

وحسه السياسي في زوال الشاه وبواره وذهاب ملكه، وحسُّه الصائب في باريس بهروبه من إيران معقل الثائرين الأُباة، وكان الأمر كما رأت بصيرته النافذة، وعين فهمه السياسي التي لا ترى غير الحقيقة مذ حباها الله ببعد النظر وحدته وصوابه.

وحسُّه في أمر أمريكا ومكائدها للعودة إلى شأنها في إيران مستعمرة

هاضمة خاضمة، فلقد قالها الإمام قولة بارعة صادقة لم تكذِّبها الأيام، ولم تخطِّئها الحوادث، تلك هي:

«إنّ أمريكا لا تستطيع أن ترتكب أي حماقة أُخرى مع ايران».

وكأنّها كانت كلمة موحاة فلم تخالف الصِّدق في الواقع المشهود، ولم تنأَ عن مسير الصواب في زحمة الوقائع والأحداث، وبقيت أمريكا عاجزة ذليلة خاسئة لا تقدر على شيء مع شعب إيران المؤمن الثائر، وظلَّت إيران ظافرة شامخة.

ثم مع كارتر قبل حملة الانتخابات الرئاسية في أمريكا، حيث أوحى للإمام حسُّه السياسي العجاب، وحياً يراه صادقا كأنه وحي السماء بالكتاب، أن يقول:

«على كارتر أن ييأس من الفوز بالرئاسة».

ولعلّ كارتر قد يئس بعد سماعه لهذه الكلمة لما رآه من مثيلاتها السّابقات اللّواتي انطلقن من فم الإمام ليكون الواقع على طبقهنَّ غير مكذوبات ولا مردودات.

ومع صدّام في الحرب حيث قالها من حسِّه العجيب:

«إنّ صدّاما خاسر».

هذا والحرب كانت قائمة على ساقها، ومستعرة على طول حدود البلد الإسلامي، وهي كما يرى الرائي بين كرٍّ وفرٍّ، وبادي الرأي أنّ صدّاما في أوج قوته العسكريَّة، وأنّه يملك من السلاح الحديث مالا تستطيع إيران مواجهته ودحر جيوشه على قلَّة ما تملك من وسائل المواجهة، أمَّا الحقيقة التي خفيت على الكثير ولم تخفَ على الإمام ذي البصر الإيماني المصيب كبدَ الحقيقة في رؤيته فهي: إنَّ الكفر وإن كان في الظاهر منتصراً هو الخاسر، وإنَّ الاسلام، المغلوب بنظر النّاظر، هو الذي سيفتح الفتح الباهر.

وكان في هذه الحرب كما رأى حسُّ الإمام، عزُّ ايران وعظمتها

وشموخها، رغم أنّ المبتدئ وقت صدور القول المنبئ عن ذلك الحسّ (**عزّة البلاد وشرفها في هذه الحرب**) قد سلب الأرض، وأخذ بعض المدن، وحاصر الأُخرى، وقد وقعت في مدى اللؤم البعثي يصبُّ عليها وابل الحقد والكراهيَّة.

ثم مع المنافقين الذين بسطوا يد السوء لدولة الإسلام وكادوها أشدَّ الكيد، ومكروا بها أسوأ المكر، وشهروا في وجهها سلاحهم وهي في أقسى ظروفها، وأخطر أيّامها، حيث الحرب والحصار ومكائد الاستعمار، وآستخرجها حسُّ الإمام من معدن الصِّدق والسَّداد منبئاً بها أن هؤلاء المنافقين لن يستطيعوا أن ينالوا من الثورة، ولن يفلحوا في كيدهم، وأنَّ دأبهم إلى خسار، وأن مكرهم إلى بوار، وأن عاقبة السوء ستحيق بهم، وأن الثبور والتباب هو غاية مسارهم، هذا بعد أن كان قبل ذلك حيث هو في النجف الأشرف قد أعرض عنهم ولم يأمنهم رغم ما ظهروا أو عُرِضوا به من لباس الإسلام المجاهد لأنه رآهم أو رأى عاقبتهم بعين حسّه السياسي أشراراً وفجّاراً غاوين، وأعداءً ألداء للحق المبين.

ومن خلائق تلك الروح الرياديَّة الفريدة «**الاستقامة والصراحة**»، فلم تشطَّ به الأهواء عن جادة الهدى، ولم تفسق به الرغبات عن طريق الصواب، ولم تَحِد به شهوات النفس عن سواء الصراط، حيث كان الكثير من تلك الرغبات والأهواء سبيلاً للخلاص من مشاكل جمة، تتكثَّف ثورته، والفوز برغائب وافرة تلهف إليها، لكنها الاستقامة على الحق كما أمر الله تأبى عليه فيتأبّى أن يعصي الله كجدّه حتى في جُلب شعيرة يسلبها من نملة، وكان صريحاً في قيادته، لم يداور أُمته، ولم يراوغ معها، ولم يكتم الحقيقة عنها، ولم يزوِ عن بالها ما ستعانيه من ثورتها الوتر بلا مثيل، وما ستلقاه من عنت العالَم وغلواء المعارضة، والأضغان والمكر، ولم يعدها الوعود الكبيرة الكاذبة، ولم يمنّها أنَّها ستدخل جنة الأرض بعد ثورتها، بل قال لها: إنّ ثورتك أعظم ثورة في التاريخ، وإنَّك لكي تبلغي بها غايتها ستبذلين

النفوس والنفائس، وستُعطين الكثير من الضحايا، وتُسيلين لها المزيد من المهج، وتَرين وتَسمعين الكثير من الأذى من الكافرين وأعداء الله والمنافقين، والجهلة والمغفَّلين، وإنَّك ستتعرَّضين لأنواع المحن والمصائب، وأفانين البلاء والعناء.

وحين شبَّت نار الحرب، وآستعر أُوارها،وحمي وطيسها، لم يكتم الإمام عن أُمته الحقيقة فيها، فلم يعدها حرباً قصيرة، سهلة المؤونة، خفيفة التبعات، قليلة الخسائر، ليستدرَّ بذلك رغبتها في الدفاع والمقاومة، وآستمرارها في النضال والمجاهدة، وعدم ضعفها وتشاؤمها في الصيال مع العدو الفاجر، بل صارحها فأخبرها أنّ الحرب طويلة، وأنها كبيرة المحن، كثيرة الآلام، عسيرة الدرب، فلا تخوضها وتصدُقُ الخوض فيها إلّا أُمَّة مؤمنة صابرة محتسبة مجاهدة، عقائدية، راسخة في إيمانها ومعرفتها بطريقها ووظيفتها في هذه الحياة، ودورها الجسيم فيها.

ولم يكذب أُمته ما يريده من هذه الحرب، ولم يحجب عنها حقيقة ما يرومه لها من النهاية الطيِّبة، وهي إسقاط صدام وحزبه، وتمكين الشعب المسلم المستضعف في العراق من إقامة دولته، وتشييد صرح جمهوريته تحت ظلال القرآن وفي أفياء الإيمان، ويعني هذا ما يعنيه من حقيقة هذه الحرب، ولون المجاهدة فيها، وحجم العطاء لها، حتى يحصحص الحق، ويكون قدرالله المقدور لهذه الأُمة المباركة.

ثمَّ جاء الأمر العُجاب في صراحته مع أُمّته في موقفه الأخير من الحرب، فحين يجد أن دينه بعد تشخيص المصلحة يفرض عليه ترك الصيال الذي كان يراه ديناً يدين به ربَّه العظيم، وفرضاً يُلزمه به بارئه الكريم دفاعاً عن نفسه ووجود ثورته، ومطالبةً بحقه وظلامته، ونصرةً للمقهور المضطهَد في سجن العراق الكبير، ونكالاً لما بين يديها وما خلفها عبرة لأهل الشرور.

حين يجد ذلك لا يتأبَّى في تقوىً وتر، وصراحة لا شفع لها؛ أن يقول الحقيقة ولو كانت كأساً من الصَّاب يتمزَّزه أنفاسا، ولا يتكأَّده أن

يفصح عمَّا رآه موقف الدّين وصالحه ولو كان السُّمَّ الزعاف يتجرَّعه ولا يكاد يسيغه، على ما في ذلك من مضاعفات العناء، وتارات البلاء، وأطوار البرحاء، من مساءة الولي الحميم، وشماتة العدو اللئيم، وكبوة الهدف السليم، والمخالفة عن أمر كان إلى أيَّامٍ خلت من أعلى الفروض وأسماها، والعدول عن رأيٍ نابذته الدّنيا كلُّها على العدول عنه فنابذها وعاداها، وما قبل ذلك وبعده من جمر الحسرات والدُّموع تُكوىٰ به القلوب والمآقي للثواكل والأرامل فقدن ثمار القلوب وشركاء الأعمار في لهوات نار المعتدين، وسيل الدِّماء والأموال جرت وبذلت على الدرب الأقدس صعداً وتسامياً إلى ربِّ العالمين تنشد نصر دينه المبين، واللَّوعات الزكيَّة الطهور لناقص عضو بعد كمال خلقة، وذي عاهة بعد تمام صنعة، أو غائب عن رشدٍ بعد وفور عقل، أو أشلَّ لا يقدر بعضه أو كله على شيءٍ؛ أعطوا فريضة الحرب حقَّها في محراب العاشقين، كانوا حِلْسهُ لا يغادرونه شوقاً وولاءً، وانقياداً وإباءً، لا يملُّون ولا يسأمون، ومن عشق الحقيقة فهام بها لا يملُّ هواها، وهو زاد روحه وقلبه، فكلَّما طال دربها زاد حبُّها، ولا يستكثرون البذل، وإنَّ من العشق ما تبذل في طريقه كرائم النفوس، وتُستَرخص غاليات الثمن، ولا يَلوون العنان نُكوصا واستسلاما، ومن استباح الهوى العرمرم المقدام صدره فصيَّره حماه، ولم يدع فيه موطئ قدم لشيءٍ سواه، لا يعرف غير السير الصبور المغذِّ الى ذراه.

وكان من الإمام في ذلك حديث قلب عارف ودود، ملهمٍ شفيق، أضرم نار الشجون، وأجرى ماء الشؤون [1]،وحرَّك كوامن اللَّوعة في أحشاء الجلاميد، وهيَّج الأحاسيس في الصخر الأصمِّ، ولم يعدم — وفؤاده الزّكي المضام يقرأ كلماته على سمع الأمة المحبّة الولهى — أن يجده كما هو انقياداً منها، لا يشوب صفاء استسلامه كدر الريب المريض ولو دعاها من النقيض

---

(١) الشؤون، جمع شأن وهو مجرى الدمع الى العين. (لسان العرب/ ج ١٣).

الى النقيض، ورآها كما ألفها طاعة واعية مدركة في قمَّة الوعي البصير، لكأنها معه البليدة العمياء حيث تُدارُ تدور، ودوَّى لها نداءٌ جاهرٌ عظيم مادت له الأرض وخشعت له النُّفوس، وخلعت به أفئدة من يتربَّصون الدوائر من هلع، وضاق بهم الفسيح الرحب من حيرة، ودارت أبصارهم كالذي يُغشى عليه من الموت... (رضينا... رضينا).

وكان بعد ذلك زحف عارم ملأ ساحة البلاد وطرقها يعاهد (ولاية الفقيه) بعهد مجدد على الولاء المؤكد، وكانت مكرمة الدين الحق وأهله، تسلس به لأوليائه الأزمَّة، وتذلُّ بسلطانه لقادته الأعنة، وتفرش لهم الصدور، وتباح القلوب، وتزال إلى أحضان النفوس العثرات في درب ممهَّدة للقادة الفاتحين ليملكوها كما كانوا ظافرين غير منازعين ولا مشاركين.

وكان أظهر ملامح تلك القيادة وأعلاها شأواً، وأسناها وجهاً (حرصها على الإسلام) وطمعها البالغ في أن تسود كلمة الله، وتخذل كلمة الباطل، وأن يستعيد الإسلام مجده التليد، نوراً ثاقباً ممتدَّاً، وهدىً مستطيلاً شاملاً، وفتحاً غامراً سائداً، ورائداً مهيمناً على الدين كلِّه، ألحكم فيه على الأرض لله، والأمر له وحده، لا منازع له فيه من أرباب الأرض وأصنامها، وقواها المنتفجة كذباً وخداعاً.

وأُمة الإسلام كان لها عند تلك القيادة القرآنية، جرح نازف غَمَّاً وكَمَداً، وما يشبه البخوع أسىً وحسرةً، لما ضيَّعته من جدِّها وعظمتها حين ضيَّعت إسلامها، وما آلت إليه من الذُّلِّ والهوان، والعبودية للطغيان، وآستبدال الهدى بالضلال، والركون إلى الباطل، والذهاب عن الحق، والتيه في مفاوز الضياع والحرمان، والإعطاء باليد، والتسليم للاقتدار المزيَّف لقوى الشرِّ، والتمكين المشين لمخالبها وأنيابها تنهش لحمها، وتمتص دمها.

ومازال نداء هذه القيادة مدوِّياً أن (أُوبي يا أُمة الإسلام إلى أحضان الرشاد، وآرجعي عن الحماقات التي أدمت قدميك وأحرقتها بعثارها ونارها، إلى رحاب الهداية حيث سعادة الدارين، وكُفِّي عن

التركاض خلف الأوهام والسراب، وعودي إلى الحقيقة الناصعة لدينك الحنيف لتعيشي فيها محبورة موفورة، وتخلَّصي من أزلام الشياطين ونُصُبهم الذين أوردوكِ حياض المهانة، وخذلوكِ في كلِّ الأدوار، وألبسوكِ ثيابَ العار والصغار، وأوقفوكِ أمام إسرائيل عاجزة ذليلة، تُشتَمين فلا تحيرين جوابا، وتُصفَعين فلا تحرِّكين يداً، ويُغارُ عليكِ فلا تغضبين، ويُذبح أبناؤكِ بين يديكِ على مرآكِ فلا تحرِّكُكِ دواعي الأُمومة الممسوخة أو المكبلة).

هاكها خذها في الحرص على الإسلام أرفع آياته وأسمى بيِّناته، موقفاً يقفه الإمام لربه ودينه وأُمته، وفيه بادي الراي بالنظر الدنيوي عليه وعلى بلاده وثورته مضاعفات الآلام، وعرامات اللئام، وعذل العاذلين، وتخبيل المخبِّلين، وسهام الحاقدين، وفيه — بين يدي ذلك ومن خلفه— رعود مدوِّية من الوعيد والتهديد، كأنَّ طلعها رؤوس الشياطين، من قدرات سمَّوها كبرى فذلُّوا لها خاسئين، وألوان، وحالات من التخويف كأنَّهن اللَّيالي المغدفات العاصفات، والرياح القاصفات، وموج يغشاه موج في بحر لجِّيٍّ عباب، وسحاب أسفع من فوقه سحاب، راح يعاني منها الزورق الرافض الأبيُّ للنهج العليِّ فيأبى أن يلين أو يستكين لأنه الحق المبين، ويبقى يمشي على هامات البلايا والأذى، يتجرَّع مرارات الشجى، فلا يزيده ذلك إلّا عزمة وصلابة وٱحتساباً، تزيد أعداءه مخافة ولوعة وٱضطراباً، هناك حيث تسعَّرت حميَّة الإسلام في قلب ذلك الأسد الهمام، وقالتها (ولاية الفقيه) النقي الطاهر بصوت ثاثر جاهر (الموت للمرتدين، والفناء للحاقدين) حين طلع (رشدي) بوجه الإلحاد الكالح، المتدجِّي ببعض سواد حقده الأدكن، من ليل ذلك الفاجر الماجن، فشنَّها على الإسلام وحرماته العظيمة وآياته الكريمة حرب اللغو والهذيان والكذب والبهتان. فأي حرص على الإسلام ذاك الذي يؤرِّق ليل هذا الشيخ الكبير، فيبقى يسامر النجم المنير، يسلبه السهاد المقدس تلكم اللحظات الوادعة، ويحرمه الأرق الشريف أوقاته الحالمة الهاجعة، وتنأى عنه المرابطة الصابرة الساهرة بأشهى ساعاته وأعذب

أوقاتـه، مرهـف الـحس، واثب النـفس، رامـق الطـرف، مصلـت السيف، حيـاطـة على ديـنـه العظيم، وحـرصـاً على نهجه القـويـم، وغـيـره الأدعـياء والكاذبون غافلون وادعون هاجعون، حامت على عيونهم طيور الكرى، فناموا نومة من في أحشاءِ الثرى، يُظلم الاسلامُ فلا ينتبهون، ويستعديهم فلا يهبُّون، ويستصرخهم فلا يُصرِخون، وأنَّى لهم وقد أعطوا الدنية وذلُّوا للظالمين، ومشوا في دروب المتاهة على نهج الشياطين؟

و(**حبُّ الأمّة**) أُمة القائد في إيران له في وجود القيادة الخمينية — وهو من خصالها الباهرة— سنام المقام، وعلو المنزلة، والصدارة في هوى القلب، وعاطفته، وتوجهه، وحرص النفس وحياطتها وآهتمامها، فهي الأُمة الرائدة التي ضحَّت بالأبناء الأوفياء، وسخت بالدماء، وأعطت أغلى العطاء، مظاهرة للحق، ومؤازرة للهدى، ومناصرة للإمام القائد، ومعاضدة له على طريقه الدامية إلى غايته السامية— في مجاهدة عزَّ نظيرها، ومناظلة قلَّ بل عدم مثيلها، وصيال قد نأى ... آستعصى على المشابهة والمحاكاة.

ولا يزال لهذه الأُمة على لسان الإمام شكرٌ وتكريمٌ لم يُماثَلا، وثناءٌ وتعظيمٌ لم يُشاكَلا، وتوصية بها أبلغ توصية، وأمر حازم صارم بالبذل لها، والحرص على راحتها، وتسخير كل إمكانات البلاد لها، بعد أن كانت تسخَّر للمستعمرين يتنعَّمون بها فَكِهِينَ، وتمكينها من التمتُّع بثروات أرضها بعد أن كانت تلتذُّ بها الوحوش الكاسرة للقوى الآسرة، وظلَّ في قلبه لأُمته وفاءٌ وإخلاص غريبا الطور عجيباه، إذ لم يتجسَّد في الواقع مثلهما من أدعياء القيادة والريادة المخادعين المخاتلين، فالإمام قد وفى ويفي لأُمته أروع الوفاء كما وفَت له حين بايعته على الطاعة والانقياد فحقَّقت فيها أرفع المصاديق وأعجبها، ولم تر الموت — بأفظع اشكاله— حائلاً دون بلوغ حقيقة الوفاء، والاستقرار في بحبوحتها، وأخلص لها إخلاصا منقطع النظير كما أخلصت له كذلك، فوهبها قلبه الزاكي ونفسه الرضية، ومحضها الهوى والرغبة

والنصح، وصفّى لها توجُّهاته وتطلعاته من كل شوب، ونقّى اهتماماته لها وسعيه من كل عيب، لم يكذبها قطُّ، ولم يخنْها، ولم يغفل عنها، ولم ينصرف حيناً عن دنياها إلى دنيا نفسه، ولم يُشغل بهمومه عن همومها، ولم يُؤثر راحته بالقعُود عن مطالبها على راحتها، ولم ينسَ قط أُمته وعناءَها على طريقه بسناء قيادته، تنشد الحق الذي ينشد، وتطلب الحرية التي يطلب، فلم ينس بعد ذلك أُمته هذه مهما اعتكرت عليه ليالي الآلام، واكتنفته دياجير المشاكل من هنا وهناك ، واحاطت به هموم الدنيا قاطبة، ولم يخل قلبه ولو مقدار نقير من الاهتمام بها، والإخلاص كلَّ الإخلاص في ذلك الاهتمام، غير واهن فيه، ولا وان، ولا مخادع ولا مصانع، وكان أول معالم إخلاصه لها أن نحّاها بكل اقتداره ووسع طاقته عن أيِّ لون من ألوان الخضوع والتبعية، حتى لو لبس لباسا خادعا يحجب عن النظر الضعيف حقيقته المستورة، وأراد لها أن تعيش حرَّة، سيِّدةَ، نفسها وموقفها، لا تعنو لأحدٍ ولا تخضع له، ولا تأتمر بأمره، ولا تذلُّ بالانقياد له، بل إنه يدعوها إلى التحرُّر من رقِّ الاحتياج إلى أحد في كل أُمورها ومطالب حياتها، فدعاها دعوة صادقة الى السعي الجاهد، والعمل الحافد، حتى تبلغ مكانة الاكتفاء، ومنزلة الاستغناء، ليتحقق بذلك استقلالها كاملاً غير منقوص، وتتجسَّد سيادتها، تامّة غير مبتورة، وهذا هو غاية الوفاء، والإخلاص لها، والصدق في قيادتها وهدايتها، ودلالتها على رشادها في كلِّ شؤونها، في رهج هذه الضلالات وهيجها، وشبهاتها وعراماتها، وفي عنف هذه الحياة وظلماتها، وخبطها في غياهب عماياتها، وفي كَلَبِ هذه القوى المستكبرة ولَجَبِها وأهوالها، وفظاعات شرورها، غير هيّاب ولا متلكِّئ، ولا محابٍ ولا مداجٍ، ولا واجف القلب، أو متوجِّس من عقبى ما يصنع لأُمته، والغاية التي يقودها إليها، لأنَّ الله معه وهو ثقته ومنشوده، وهو غاية مسيره ومقصوده.

و(حبُّ المستضعفين) في الدُّنيا والاهتمام بهم، من سجايا تلك القيادة العالية وخصالها الحميدة، فالإمام يحبُّ المستضعفين جميعاً كما هو

حبيبهم جميعا، وهو دائب الفكر مشدوده بهم، كما هم واصبوه موصولوه به، قد ذاب حبّاً لهم ورحمةً بهم، وإشفاقاً عليهم، فذابوا هم شغفاً ولهفةً وإعظاماً، وتقديساً، وشوقاً إلى اليوم الذي يرون فيه طريقهم قد وُصِلت بطريقه، وقيامَهم قد وُشِجَ بقيامه، وتحرُّرَهم قد تحقَّق تأسِّياً بتحرُّر أُمته.

إنَّ نداءه الكريم لَيُدَوِّي في أسماعهم فتجيش به قُلوبهم:

(يا مستضعفي العالم انهضوا، وأنقذوا أنفسكم من مخالب الظالمين والمجرمين).

(إنَّنا نذكِّر جميع المضطهدين أنَّ الحق يؤخذ ولا يُعطى، فلينتفضوا بروح ثورية وعزم ثاقب لإقصاء القوى المتجبِّرة عن مسرح التحكُّم بمصير الإنسان، والتلاعب بالحياة والتاريخ).

وما أروع في هذه القيادة الخمينية القرآنية (حبَّها وإكبارها للشهادة) وعشقها للشهيد وصبابتها به لما تعرفه ممّا عرَّفها الله في دينها من حقيقتها ودورها، ومنزلتها، فالشهادة وأهلها حقيقتان هما أسمى حقائق الإسلام وأرفعها، وأجلُّها قدراً، وأعظمها مكانةً، وهما سرُّ البقاء المكتوب للإسلام، ومغزى الخلود المقدور له، وهما حارسه الأمين، ودرعه المتين، وحصنه الحريز، وحاميه المقتدر العزيز، وهما مفتاح نصره وعلائه، والسبب الوثيق إلى إظهاره وإحيائه، حيث تتكثَّف عليه دواعي الحقد المسعور، وتأتلف عليه أمواج الشرور، وتشتجر حوله رماح الصنمية، وأسنَّة الجاهلية، لتبسله وتُبيره، فتطمس معالمه وتمحق نوره، ومازالت الشهادة والشهيد مع الإسلام البلسم الذي يأسو جراحه في صروف كربه وبلائه، والعزم الذي يقوم به في مثاورة أعدائه، والصرخة التي يطلقها في حنايا الصمت يستثير الهمم الخامدة، ويستنهض العزائم الراكدة، فتستعر حمية الإسلام في قلوب الكرام، تصنع الحماسات، وتخط في التاريخ سطور البطولات، تغذيه زاد الحياة والمدافعة والبقاء في سورة الخطب وشدة البلاء، حتى بلغت به يوم الظفر الكبير، حيث طلع صبحه المنير، في أُفق إيران المجاهدة الفادية، ليعمَّ فيها

بالضياء دنيانا الصادية، يبرِّح بها الظمأ الشديد إلـى نميره السلسبيل، ويسعِّرها الشوق إلى شروقه المحيي بعد طول الأُفول. وللشهادة بعد ذلك والشهيد منزلة عند الله لا تُسامَى، ومحلٌ لا يفصح عن حقيقته أبلغ الوصف، وأجرٌ لا يعلم إلّا الله مقداره وآثاره، ونعيم لا تَدري نفس ما هو حتى يعبِّر عنه اللسان بما أُوتي من طاقة البيان، وإذا رأيت في دنيا الإمام رأيت ثَمّ أمراً عجيباً من تعلقه بالشهادة، وإجلاله لها، ولهفته إليها، ومن إعظامه للشهيد، وآحترامه بل وتقديسه له، تستبين أفانين وألواناً في ذينك الأمرين من فعاله وأقواله، فهو ما زال يطلب الشهادة، ويدأب في ورود حياضها، ليلتحق بصفوة أهل الآخرة وشهدائها وسادتها، وهو ما برح يعظمها وأهلها بلسانه، ويُطريها ببيانه، ويذكر من فضائلها وشؤونها ما يُحارُ به العقل، ويخشع القلب، وتطير له النفس شعاعا من فرط الوله والهيام، وفائق الاكبار والاعظام.

ولم تفتأ وصاياه مكرورة موفورة، مشدَّدة مؤكَّدة على رعاية الشهداء في ذويهم وأهليهم، وتنفيذ وصاياهم، والاقتفاء على آثار خطاهم، لبلوغ مجدهم وشأوهم، وعلاهم، ومؤسسة الشهيد غيضٌ من فيض، ونزرٌ من جمٍّ من مظاهر التجليل والتكريم والرعاية، يرى منها الشهداء الأبرار من رحاب الغيب وفاء الامام لأبنائه الشهداء وبرَّه بهم، وحرصه على رغباتهم، ورعايته لحرماتهم بمظاهر مأنوسة يتنعَّمون بها فوق نعيمهم، ويتلذَّذون بمرآها مع لذّاتهم، ويشكرون الله على قيادة صنعها على عينه، ونفخ فيها من روح دينه، فقادتهم رشيدة سديدة على سبيل الهدى إلى أرفع المنى، ففازوا بالكرامة الدائمة، والسعادة القائمة.

ولأُرِيَنّك صورة واحدة هي حسبك مُغْنِيَاً عن الكثير من شواهد الحقيقة الكبرى في نفس الإمام وواقع فعله، حقيقة الحب والإجلال والتمجيد للشهادة والشهيد، فبعد أن يعود الإمام إلى بلاده الوفية بعد الهجرة الطويلة المضنية، يرى فرضا عليه لداعي تلك الحقيقة في نفسه أن يبدأ بالتحية شهداء ثورته، وأن يزورهم مأخوذاً بسلطان شوقه ولهفته، مأسور القلب

بيد أشواقه الحرَّى إليهم، مجذوب الفؤاد بجاذبة هواه المعطوف عليهم، ويا له من موقفٍ خاشعٍ، ومقامٍ رفيع، حين يطلُّ وجه القائد الوضّاء على ضرائح أبنائه الشهداء، فكأنهم قد هبُّوا له حفيين به، محبورين للقائه، قد أحاطوا به من كل صوب، وتكنَّفوه من كل جهاته، يلحُّون عليه بالسلام فيلحُّ عليهم قلبه بالجواب، ويلحفون عليه السؤال عن رضاه عنهم، فتجيبهم نفسه أنّهم جاءُوا بفوق ما يرجوه منهم، وكأنه قد وقف في جموعهم في رعدة المقرور، وٱضطراب السليم، وخشوع العابد المتبتِّل، فاذا هي نجوىٰ تفتُّ في قلب الجلمود، وتحرِّك الإحساس في الصخر الأصمِّ.

(يا إخوتاه، هذا هو الظفر المبين الذي بذلتم أنفسكم من أجله، وسعيتم سعيكم الجسيم لنيله، هذه حمايتكم لي، وذبُّكم عني، وجهادكم معي وبين يديَّ، روح قوية ناهضة يمشي بها جسم هذا الخير، ويسعى بها هيكل هذا العطاء الوافر، صبركم في الجهاد الدامي قاد إلى هذا الفتح الكريم السامي، نضالكم المجيد في ساحتي سار بي إلى غايتي، مقامكم في جنبي جناح طرت به الى شموخ هذا المنال، هذه دماؤكم الزاكية قامت من أحضان تربُّصها وٱنتظارها لتقول إنِّي غالبة، فقد أزفت ساعة الفتح والظفر، ليصبح الضعفاء سادة، ويُمسي السادة أذنابا، ويقبل الناس إلى هذا النمير العذب ينهلون، ويميلون إلى رحاب الإسلام يهنأون، أيَّتُها الأرواح الطاهرة ما أكرم ما أعطيت، وأجزل ما بذلت، أحضانك السنيَّة الرؤوم في الداجية الغليظة أفاضت في القلب المكدود من معين النشاط، وغذَّته بالعزم والاقتدار.

وجوهكم الباسمة المشرقة التي آنستني وأنعشتني ببسماتها وشروقها وأنا في أطواء آلامي وكروبي تلتمع لي الساعة في آفاق هذا النصر الكبير المطلِّ.

هذه أيديكم التي كانت ترتفع مع الهتاف بمجد الإسلام وقيادتي والسلام عليَّ في ساحة الجهاد، راحت تدقُّ بابَ طهران تقول لها هيَّا

افتحي ذراعيك وضُمّي إلى صدرك هذا الفاتح العظيم، مطهِّركِ من الأرجاس، ومنقذك من ربق الاستعباد).

وإن نكن قد نسينا ذكر صفات أُخرى من صفات تلك الروح القيادية لإمامنا فلا ننسى أن نذكر (**قدرة التدبير العسكري**) وتصميم فن القتال، وتخطيط ملحمة النصر، ورسم طريق الظفر، وان يكن قد غاب عنَّا الكثير من براهين هذا الأمر لارتباطها بشؤون الحرب وأسرارها فلا يغيب عن بالنا قول ممثله في مجلس الدفاع الأعلى «رفسنجاني»:

(إنَّ مهم أُمور الحرب وجلائلها صنعة رأي الإمام وتدبيره، وإنَّ خططها غذيّة عقله وتفكيره، أو موضع قبوله ورضاه، ومحل رغبته ومشتهاه، يصوِّبها فتصدر عنه لترد أرض المعارك دليلاً هاديا إلى الفتح المبين، وطريقاً سالكاً إلى الظفر المكين).

ولن يعزب عنا في هذه الخصلة من قيادة الإمام موقفه في كردستان حين همَّ أن يغلب عليها الأشرار ليفصلوها عن أُمِّها إيران الإسلام، وحين عجزت الحلول من هنا وهناك عن أن تبلغ إلى حل يصون حرمة البلاد، ويعصمها من التمزُّق، ويحجز عنها عوادي الانشقاق، حيث أصدر القائد الحكيم أمره لجيشه بالصولة الظافرة قطعاً لدابر البغي، وكبتاً لأهله، وبواراً لهم، ومضى جنوده يستهدونه ويسترشدونه حتى أفلحوا في أوبة كردستان إلى أحضان أُمِّها بعد أن أوشكت أن تفطم مُكرَهة، وتذوق حرَّ البعاد راغمة.

الإمام المجدِّد

ماهي الجدَّة والجديد؟، وما هو الأمر الطارف الوليد، مما طلع به الإمام من فجر الإيمان، على دنيا الظلام في هذا الزمان؟

ما الذي أحياه من أمر الشريعة الغرّاء؟، وما الذي جدّده من معالم الرسالة العصماء؟ عن ماذا أزاح الستار من عظيم شؤونها؟، وماذا حيَّر به خافق العصر من عجيب فنونها؟ هل جاء بشيء زائد على ما في الحنيفيَّة البيضاء؟، أم افترى متقولا ما ليس من وحي السماء؟، أم زاد في أحكام الرسالة السامية، وأضاف على مفاهيمها العالية؟ ام هي تلك القضيَّة العظيمة دعا اليها ودلَّ عليها، كما دع اليها سواه من الداعين وما أكثرهم!، وهدى الى سبيلها القويم غيره من الهادين وما أوفرهم!

لم يأتِ الإمام حياة هذا العصر الصاعد بما ليس من حقائق النبوَّة الخاتمة والدين الخالد، ولم يطلع عليها بمفاهيم جديدة في الإيمان ابتدعها، ولا بأحكام جديدة في الدين اخترعها، انما أتاها بما غابت عنه من شأن الإسلام في مطاوي الجهل والتضليل من كل أمر جليل، وأقبل عليها بروح ذلك الدين التي نفخها الله في الأُمة الشاهدة فأصبحت بها أُمَّة رائدة، وابتعث للدنيا من جدث العزلة والطمس والتضييع حقيقة ذلك النهج الفذ الرفيع، وجدّد الهدى كما جاء من ربّه رسالة وثورة، وأحيا أمر النبي المصطفى هداية وقدرة، نورا يدلُّ التائهين في ديماس العمايات على سواء السبيل، وبأسا قادرا يدكُّ أصنام الأضاليل، ويهدُّ العروش المستبدّة الطاغية، ويمحق الجاهليات البليدة الغاوية. قرون متمادية تصرَّمت على هذا الدين في

أطواء الأُفول عن وجه الحياة بعد ذلك الطلوع المشرق المهيب الذي لم تفتح عينيها اللتين أغمضتها في ظلمة التيه والانحطاط على مثله. وبقي في الأُمَّة فيها تراثا يذكر بخير، وتنشر حوله الكتب تهدى الى الملوك والأُمراء، أو تقدَّم للناس بعد أن تمرَّ عليها عين الرقابة السلطانيَّة، تزن حقائقها بميزان عدل من معرفة الدين لا يحيف ولا يظلم!، وتبصرها بعين محيطة بلبِّها لا ترى غير الصواب حيث ترى!، وبقي حكايات في الخوارق والكرامات يؤنس بها الوعّاظ والخطباء مجالسهم، ويستدرّون إعجاب مستمعيهم، وبقي نوادر عن البلاط الاموي والعباسي، والأُنس الطافح فيه على وجوه الشعراء المطرين، والمغنّيات والمغنّين، والكواعب الحسان اللواتي سطع عبيرهن مع شميم الخمرة الذاكي، وفعلن في النفوس فعلها في العقول، في نديّ يطرب، وسامرة تلهو، ونشوة غالبة أسرت الألباب وطافت بها منقادة في دنيا الأوهام، وصرفت النفوس اللّاغبة عن عالم الحقيقة. وتتحدّث بذلك القصص والروايات والصحف والإذاعات تصفه بأنّه مسيرة الإسلام في عصرها الذهبي أو (الماسي)!!. وبقي أحاديث شريفة صحيحة السند! واضحة المدلول!! عن الرضى والقناعة بما قسم الله واختار من شؤون الحياة وصروفها، والواقع الفاسد وأحواله، والدنيا الدنيّة وطلّابها من الملوك وأتباعهم، وما يعبثون وما يعيثون!.

وبقي أخبارا مقدّسة سليمة العنعنات والدلالات! عن الحياة الحالمة الوادعة للمؤمن الذي صرف نفسه عنها وما فيها وتركها لأهلها يفعلون فيها مايشاءون، وجعل همَّه الآخرة فهو مشغول بذكر الموت والقبر والقيامة، ينشد النجاة والسلامة، يوم الحسرة والندامة.

وبقي قرآنا مفسَّرا على وجهه السليم!، وسنَّة سالمة غير مدخولة!، عن شمائل الأُمّة الراضية بقضاء الله وقدره ولو في ما ينزل بها على أيدي هؤلاء الذين هم إرادة الله في الأرض من الحاكمين، يلزمها القرآن بلزوم ظلهم لأنهم أُولو الأمر الّذين تجب طاعتهم!!، ويفرض عليها الخبر الصحيح

الرضى بهم والصبر عليهم والسمع لهم والانقياد مهما فعلوا بالعباد والبلاد!!.

ولهو فضل كبير على الدين في القرن العشرين أن يؤذن له بأن يتدخل في الشؤون الشخصية للأفراد في المعابد، وأن تصوغ الحكومة منه قضاء لمحاكمها في تلك الشؤون، وهو في هذين الفصلين من حياة الأُمة يدعى (دين الدولة الرسمي) امّا شؤون الحكم والنظام والدولة والقيادة فان زعْم تدخُّله فيها فرية على ذلك الدين الأقدس الأطهر الأسمى؛ تدنِّسه بأرجاسها، وتحطُّ من قداسته، وتنزل بمقامه الرافع الى أدنى مكانة. ولقد خُتم على القلوب بهذا فلم تعد تقوى على أن تفقه غيره من شؤون الإسلام، وطُبع عليها بأقاويل المضلّين فهي لاتنهض بها بصيرة نيّرة لترى ما خلف معتكر الجهل والتضليل، وطمس على العيون بعماية الاغواء عن حقيقة النهج العظيم فهي لا ترى غير جثمانه الملفّع بالبرد الأخضر على صدره القرآن المنمّق الأنيق، يطلبه الناس حتى سلاطينهم يتبرّكون به فيجدونه في مظانِّ إجابة الدعاء في بيت الله، أو عند ضرائح الأولياء، ومقامات الأصفياء. في مثل وضع الدين هذا المألوف الرتيب العتيق الذي صفوته (المسجد والصلاة والمسبحة والأذكار، وطاعة أُولي الأمر أنّى كانوا، والقراءة أو المحاضرة في تاريخ الاسلام وشؤونه مما رأته عين الرقابة أو سمعته أُذنها).

في مثل هذا اللّيل الشتائي الراعد البهيم الأيهم في حياة الرسالة طلع وجود الإمام الزاهر المشرق.

وكان عجيب شأنه، وعظيم أمره، في وجوده الميمون ذاك ، أنه أبدى أُموراً هنَّ روح دينه الّتي بها يحيا لم يزلن في سجن الطغاة الرهيب في زنزانة الإنفراد، حررهن باقتداره من السجن فهو المحرِّر الأعظم، وطلع بشؤون لرسالته هنَّ صميمها المهجور قد زواهنَّ في المنفى البعيد القهر والتحريف والشبهات، فاستجلبهنَّ من منفاهنَّ فهو الفاتح الأكبر، ولقد كنَّ أُمورا وشؤونا لم يدع إليهنَّ سواه على تلك الحال الفريدة من الدعاء، قد أنصب فيها بدنه،

وأسهر عينه، وفارق داره وقراره، وما فتر فيها ليله ونهاره، وبذل فيها الدماء الغالية، وأجرى فيها فيض المهج الزاكية، وصارت شغله الوحيد في المشاغل، ومسألته الكبرى في المسائل، كلُّ همه فيها، وكلُّ فكره نصبها، وكلُّ سعيه إليها، وجهد إقباله عليها، فلا شيء غيرها يعدلها، ولا أمر ماخلاها يفضلها. لقد دعا الإمام الهمام الى الثورة والقيام، ودكّ العروش الطاغية بالهمم الوارية، فمن أين أتى لتلك العروش حق الحكم والتدبير وتصريف الأُمور، وملك رقاب الناس، والناس هم الأحرار في ذروة الحرية بعبوديّتهم لله وحده!، ومن خوّلهم أن يكونوا قادة الناس ورادتهم؛ إرادة الله ورأي الناس وصالح الأُمّة! أم القوّة الغاشمة والوراثة الظالمة وأيادي المستكبرين وتدبير الشياطين؟ أليس في الإسلام منهج الحكم وصفات الحاكمين؟ قد دلّ عليهم وعرّف بهم وأشار اليهم؛ فهم الرسل والأنبياء والأولياء والعلماء يسوسون عباد الله بأمره، ويحكمونهم بعدله، ويدلّونهم على صراطه، ويأخذون بأيديهم الى نميره العذب الزلال، وما سواهم الطغاة الظالمون، والفراعنة المتجبرون، والغاصبون المستبدّون. ومن جديد أمر الإمام في ثورته الشمّاء نداؤه بالأوبة الى هدي السماء، ورجوع الأُمة الشاهدة الى رسالتها الخالدة، وتحكيم شرع الله وهديه القويم في حياةٍ عمّها الضلال القديم، فالرقي والازدهار والعلاء في نهج الشريعة وأحكامها وتعاليمها، والهبوط والرجوع والتخلّف في نبذها واتّباع ماعداها من الجاهلية التي أراد لها الإسلام أن تزول من الوجود، لكن سعي أبنائها وأوليائها وضعف أعدائها وخصمائها مكّناها من الأوبة الظافرة على حالها التليد، ظلام خانق وعصاب مرير، وحياة تعمُّها الشرور. فالتقدُّم في رأي الإمام بالإسلام، والرجعية في ماعداه من مناهج الباطل التي اشتُقّت من الجاهلية الجديدة، وانتشرت لياليها العمياء من ديجورها المقيت.

وتطبيق الشريعة — في الواقع الرافع، وفي عصر الذرة والصاروخ المحلّق في الفضاء، والعلم الحديث المبدع الخلّاق — كان من مزايا قيام

الامام الفريدة، وآياته المجيدة. فحيث بهر البسطاء بضلالة القرن العشرين، وتحدّث المخلصون بصوت خفيض خائف، وسكت العملاء والأذناب، ودأب الأسياد والأرباب في جعل الاسلام دين عبادة هامدة، وشعائر جامدة، يكتفى منه بالأذكار في العشي والابكار، ويكون غيره مما سماه نتاج هذا الزمان من ضلالات الشيطان وحماقات الانسان هي الدليل الهادي الى الراحة، والسبيل الموصلة الى السعادة، وماسوى ذاك رحم عقيم لا تلد إلّا الخواء، وأرض يباب لاينبت فيها إلّا الجدب والمحول، هناك في تلك الحال نادى بصوته الهادر المدوي رجل الإسلام والثورة في هذا القرن بأن تطبيق الشريعة هو المطلوب غاية المطلوب، وهو الحل منتهى الحل، وهو الفريضة الأسمى التي لا تساميها فريضة، والسعي اليه هو أقدس واجب، والبذل فيه أغلى البذل، والفداء فيه والتضحية شهادة لاتجارى، ومنزلة لا تبارى، ولم يزل صوته راعدا واصبا ممتدا «**الاسلام هو الحل**» يقض مضاجع المستكبرين، ويكدّر صفو الطغاة، ويأخذ عليهم بالخناق فلا يفيئون معه الى راحة، ولا يصيبون حظا من سكينة ودعة. وليس هذا يعني في رأيه قدس سره إلّا أن تقوم دولة اسمها (**دولة الاسلام**) حيث تقوم من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها دول الكفر والضلال، فهل من العدل أن يكون الاسلام — رائد الحضارة وبانيها، ومؤسس الدولة العالمية الكبرى التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا — أعزل في الحياة، وجوده المجيد زاو، ويده الكريمة جذاء، وشريعته البيضاء معطلة، وألطافه الغامرة في المحجر، ودستوره الرائد العظيم تحت الوصاية، وأبناؤه يخيرون بين أن يقبلوه علاقة فردية بربهم، أو يساقوا الى الموت أو الطوامير، وقادته الحقيقيون العلماء الأبرار يقال لهم لكم امامة الناس في الصلاة ولنا قيادتهم في المسيرة، ولكم منهم صور الاحترام والتعظيم، ولنا منهم فرض الطاعة والتسليم، ولكم منهم أن يستفتوكم فتفتوهم في ما لا يخص شأن الدولة والسياسة لأن شأن دينكم غير شأنها، وهو أسمى من أن يبتلى بنقائصها أو يخوض في أوحالها، ولنا أن

نحكم عليهم فيسمعوا ويطيعوا لأننا الساسة والقادة. وليست تعني دولة القرآن في نظره الشريف الا (جمهورية اسلامية) حين تهب الجماهير تهتف للدين الحنيف بالاوبة والحكومة وتدبير الأمور، وتعطيها الرأي القاطع في استفتاء لم تعرف له الدنيا شبيها في صفائه وحريته وعصمته من شوب القيود والوعيد والوعود. وحين لا تكون الدولة دولة الجماهير وليست هي غير دولة الاسلام، ولا النظام نظامها الذي تختاره وليس هو غير نظام القرآن هناك يقول الامام انه الطاغوت، وانها الدكتاتورية، والرأي الفرد الظالم المطلق، شعاره السيف المرهف، ودثاره البطش والعنفوان. فيهب يصرخ: «الموت للطواغيت وضلالاتهم» يدعو غير هيّاب ولا خائف الى الكفر بهم، وحربهم والثورة عليهم، فرضا مبينا من الله، والزاما قاهرا من شرعه وهداه، «**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى...**».

وليس يقود دولة الاسلام في رأيه إلّا الفقهاء العلماء العارفون بربهم ودينهم وزمانهم، المخلصون المجاهدون الثائرون، الذين منحهم الله زمام الريادة والزعامة، وأولاهم فريضة القيادة والامامة، فهم وحدهم قادة الأُمة الى ربها وهم هداتها على دربها، بنورهم تستنير في الظلماء، وبهديهم تبصر في الفتن العمياء، وان لهم ولاية على الأُمة بعد ولاية الله ورسوله والهداة الميامين يسميها (ولاية الفقيه) فيها يكون أُولئك الفقهاء العارفون ولاة الامة وهداتها وهم بعد الرسول وخلفائه بدلالة الله ودلالتهم أُولو الامر الذين عناهم الله بقوله: «**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**». لا ما سوّلت الأهواء الساهية والآراء الخاوية، وغير ذلك انما هو ولاية الطاغوت، وفيها يكون الظالمون طغاة الأرض وجبارها. ودولة الامام (**الجمهورية الاسلامية**) هي دولة المستضعفين وهذه الكلمة القرآنية لم يحيها بذكره لها سواه، ولم يعرها طرف الفكر والسعي عداه، قام لواقعها المنشود أحسن القيام، وصاول اعتى المصاولة، وناضل نضالا قرآنيا مقدّسا هو أشد النضال وأضراه وأقساه، ولم يزل ذكره للمستضعفين مكرورا حتى عاد ذكرا من أذكاره ووردا من أوراده،

لابل يراه في تلك أسماها وفي هذه أعلاها، ويرى شأنهم بعد شأن الله، وحفظ حرمتهم بعد حرمته، وأداء حقهم بعد حقه، وأن السعي في أُمورهم أفضل من عامة صلاته وصيامه، وهو السنام الأعظم في مطلوب دينه واسلامه.

وان أعجب ما في هذه الدولة الفريدة دولة الإيمان في عصر الإلحاد والجاهلية (الاستقلالية عن كل القدرات) في زمن ناموسه المشهود وشأنه المعهود: (الاستعباد والعبودية) و(سيادة العمالقة) و(الارباب المزيفون وعبادهم المطيعون)، وإن هم حاولوا ستر ما في ذلك عن أُمتهم من المعائب الفاضحة والعاهات اللائحة بما يسمونه علاقات المودّة الصادقة!، وروابط الاحترام المتبادل!، واتفاقيات الصداقة الحميمة!. فدولة الامام هي دولة الاسلام، والاسلام حضارة رائدة، وطريق فرد بلا نظير، ومنهج عظيم، فيه من الخصائص العالية والمحامد السامية ما يكون بها — وقد كان — سبيل الخلاص لهذا العالم الغارق في بحر العذاب اللجي، وهو بما لديه وفيه من فضائله الفريدة وسموها الرفيع؛ ليس في حاجة الى شيء من ضلالات الارض القائمة، ولا غواياتها الجاثمة، وامته التي يصنعها — وهي الامة الشاهدة التي صنعها من قبل فجسد اروع الصنع لأروع امة — ليست بحاجة الى شهادة أُمة اخرى عليها أو سيادتها، وان دولته التي يبنيها بهداه ورشاده ونظامه الوتر المتكامل، والتي طوت عاديات الزمان وعرامات الشيطان امها وأصلها خير دولة تفتح الدنيا عينها على محيّاها المشرق الباسم تغمرها ضياء وانسا وبهاء بعد أن أغمضتها في عمايتها الفقهاء الممتدة، وليلتها الطخياء المتمادية. هذه الدولة في قمة الرشد والهدى لأسمى وأعلى من أن تحتاج الى انظمة الآخرين ودساتيرهم تدير بها شؤونها، وتصلح أُمورها، وتحل مشاكلها ففي دينها الالهي العظيم لها غناء عن ذلك وايما غناء، يتعالى بها عن مواضع الحاجة والاستجداء لشيء من سفساف هاتين القدرتين المتجبرتين وزيفها، أو للون من الجهل البشري الذي يتبدى عن تفاهتها وسخفها، حيث راح الأزلام

والخائفون والخانعون في متاهات اولئك الأسياديسيحون، ويحتفرون لهم آبار مصالحهم فيميهون، يرون — اذلة خاسئين— ربوع الأسياد الساخرين، قد امتطوهم زوامل ذللا إلىٰ غاياتهم، وسخروهم خدما مهطعين في شهواتهم.

وكان أعجب شعار طلع به الامام رائد الثورة العظمى بعد شعار الحاكمية للاسلام (لاشرقية لاغربية) وهو وصف شجرة الهدى في القرآن، تلك الزيتونة الطيبة التي يضيء بزيتها المضيء ذلك الكوكب الدري. وكان لعمري شعارا حيّر العقول السديدة، وأذهل الفطن الرشيدة، وصعقت منه قلوب المستكبرين بتيار مريع من الهول المبين، بعد ان وسمهم قبلها بميسم الاستكبار، ودأب الامتطاء والاستحمار، ولم لا يصعقون ويذهلون وقد طلع عليهم الصبح الخميني المسفر المنير بما يجلو الدياجير، ويفضح العشوات العنيدة، ويهتك أستار الحياة البليدة، ويدل الناس على طريق عزتهم الى أكناف الجوزاء في عنان السماء، ويشير اليهم بالنور الثاقب الى مواضع الآفات والعاهات، ومواطن الأدواء والبليات التي كانت امها العبودية والخنوع، والطاعة والانقياد لمن سماهم (الشياطين) او الشيطان الكبير. وهي من شعاراته الرافضة، وألقابه الثائرة، التي ينبز بها أعداءه الألداء، ويطعنهم بها في صدورهم طعنا درّاكا لا يجدون معه راحة ولا فسحة. وهم حين يصفهم الخميني بالاستكبار والاستحمار والشيطنة الماكرة، ويدعو أُمته بأروع شعار ثائر في العصر الحاضر «لا شرقية لا غربية» فمن ذا الذي لوفاء الى رشده برشاده يعنو لهم بعد اليوم، ويبقى على التبعية لهم والارتباط بهم؟ وأي امة آبت اليها عوازب هداها ونهاها لا تكسر الأغلال وتنطلق ماردا عظيما يدك حصون العبودية، ويهد قلاع التبعية؟. ومن هذا الأهم وغيره المهم ائتلفت كلمة القدرتين على حرب الخميني فتدجت عليه منها ليالي التبريح والايذاء، وتكثفت سحب العداوة الدكناء، تسح وابل الويلات والثبور، وتهتن الشرور تتلوها الشرور.

وكانت دولة الخميني هي الدولة الفرد التي أجمع العالم بقدرتيه

بأذنابها على حربها وايذائها، وتلك مفخرة كبرى لأنها تعني استقلال الرأي والإرادة، وان أُريدَ لها — رغماً على حقيقتها — أن تكون سبة في رهج الإعلام الظلوم بأنها العزلة في أحضان تخلفها ورجعيتها، وانها رفض العالم لها لأنها الناكصة على أعقابها تبحث عن خلق الأولين ونظام الأقدمين.

وكان سر الانتصار والغلبة في مسير الثورة الى هدفها العظيم سلاح مهيب هو كالعاصف الرهيب، لا تقابله الجحافل، ولا يصاوله مصاول، وقدعيَّ به المحللون وخر من فزعهم أمامه المجرمون، وقد أحسن الخميني تحريك ذلك السلاح والافادة به ونصرة الاسلام بفتكته وبطشته، ألا ذاك هو الدم المسفوح تجود به الامة الثائرة على هدى الامام الظافر في طريقه الكربلائي المتلفع برد عاشوراء المخضب بالدماء وهو يجدد دور ذلك المنحر الاقدس والقيام الارفع. وكان شعاره الفريد (الدم ينتصر على السيف) نظرية جديدة ومنهجا غريبا في النضال والمقاومة والجهاد في هذا العصر دهشت لها حلوم الكثيرين حتى من اوليائه وأ ائه، وفزعت لها قلوب لئك الجهلة المتنسكين، وصرخ في وجهها اولئك العبدة المتهتكون ووعاظ السلاطين. فما زال الخميني منذ خرداد وحتى اليوم يرى رأي جدّه صريع الطفوف أن شجرة الاسلام لا ترتوي بغير الدم الجاري، لأنها شجرة النفوس والأبدان، فغذاؤها من مائها، وان النجيع القاني هو الزيت المضيء يوقد منه كوكب الثورة لأنه أصل الحرارة فيها ومن الحرارة يكون الضياء، وأن فيض المهج خطيب بارع مصقع بصوت جاهر أرفع تسمعه آذان القلوب فتزيد وقدتها، وتشتد ثورتها، كيف لا وفي ذلك الفيض خلاصة البيان البديع لتلك الأرواح المطهّرة التي صعدت الى بارئها تاركة مقول الدم يتكلم بالكلام الرفيع.

وظل الخميني يرى أن قضية الإسلام وحدها هي التي تنتصر بالقرابين العليّة والدماء الزكيّة، ويغلب في ثورتها الدمُ المهراق بواتر الطغاة وصوارمهم. منذ ذلك اليوم الذي كان فيه دم الامة صانعة الحرية (سمية)

وزوجها المظلوم ياسر، يقهر بعنفوان الإيمان القاهر، والصمود الظافر؛ لواء أبي جهل والعتاة المردة من المشركين، ويردّ لفح سياطهم الى وجوههم، ويسعّر قلوبهم بضرام نار غوّالة لايعرفون كيف يطفئونها. ومشى معهم ذلك الدم في ساح المصاولة والمناضلة حتى فتّ أعضادهم فتّا، وفلّ سيوفهم فلاً، فقدّ رقابهم قدّا، وحتى هذا اليوم الذي حسب فيه المستكبرون وصوروا لأزلامهم أن المدافع والقوارع هي الحل الناجع، وأن سيفها هو السيف القاطع وأن السجون والمقاصل هي الحد الوثيق الفاصل بين مصالح القوى الكبرى وأدواتها، وبين رغبات الأُمة وطموحاتها. وقال الخميني إنَّ سحَّ الدماء يطفئ نار المدافع فإذا هي خابية، وإن حدَّها المرهف يفلُّها ويشلُّها فإذا هي عاثرة نابية، وإن الدم المؤمن المارد العملاق ليشدُّ على ذئاب البغي فتفرُّ أمامه فرار حُمرٍ مستنفرة فرَّت من قسورة، وصدَّق الواقع العظيم قوله الكريم فانهزمت قوة سمَّوها (السادسة) عميل قدرة سمَّوها (العظمى) أمام الجماهير العزلاء التي تحصَّنت بإيمانها وقرآنها، وشهرت على راحاتها قلوبَها تنزف الدماء، ترشُّها ناراً حرُّها يشوي وجوه الظالمين، وتصهر به أحشاؤهم، فتخور قواهم وعزائمهم، وتخوي هممهم ومدافعهم. وكانت المعجزة الجديدة للإسلام التي خرقت المألوف، وخرجت عن السنن (**أن ينتصر الدم على السيف**)، وأن تقهر الأُمة الجسور بدمائها الطهور قوى الغي والفجور.

«والانتظار» الذي هو فلسفة عميقة للاهبة والاستعداد ليوم الظهور الذي تزينت بالبشرى به الكتب السماوية والمسانيد والصحاح والمصادر على شتى مذاهبها ومشاربها، والذي يعني في أدق معانيه وارفعها وأصدقها مواصلة المسير بالمجاهدة والفداء كفرس في المضمار يُعَدُّ للصيال، أو كسيف لدى القيِّن يشحذه للقتال، إلى اليوم الذي تكون فيه المجاهدة في أعلى صورها ليكون الفتح في أعلى درجاته على يد الموعود المنتظر، والظافر المؤزَّر. هذا الانتظار بذلك المعنى المقدَّس الكبير، صيَّره الخانعون فلسفة للقعود والخمود، وذريعة إلى السكون والركود، احتج بها الساكتون دليلا على

سكوتهم، وآختبأ في وحلها القاعدون فلا يعتّفون على قعودهم، وآستدلوا لصوابها بمدخول الروايات فطمسوا بها معالم الآيات البيّنات، أو أخطأوا في فهمها فضلّوا عن حقيقة علمها. هذا الانتظار صيّره الإمام حركة وآستباقا، وظهورا بالهدى واشراقا، ونهوضا بواجب الأمر والنهي، وفريضة البذل والسعي، يأخذ من القرآن آيات الجهاد فيقارع بهن روّاد الفساد، ويضرب لهن واهن الأخبار دأب العليم عرض الجدار، يحكّمه عليها ولا يحكّمها، ويقدّمه أمامها ولا يقدّمها.

وكان هذا من فكره المبدع، ونفسه الصافية وفقهه البارع الواسع، وبصيرته النيرة الثاقبة، ومعرفته العليمة بربه ودينه، ومطالب رسالته، وشؤون دربه. كان من ابداعاته الجسيمة وآرائه القويمة، فالانتظار عنده ثورة الاباة المنتظرين يعدون أنفسهم بالاباء الى اليوم المكين، ويطهرون الأُفق الملبّد بالسحب والليالي، لظهور دولة الخير والمعالي، فانها تُصنع بالرجال لا بالخيال، وتأتي بالهمم العظام لا بأحلام المنام.

وصدور الثورة الكبرى الى أقطار الدنيا بالموعظة والحسنى كان من شعاراته البارعة وشموسه الساطعة، فثورته ثورة الإسلام والإسلام دين العالم، ومثل هذا الدين لا تحدّه الحدود، ولا تقف في وجهه السدود، بل هو النور من فيض الشمس ينساب من علٍ بالهدى والاستقامة، لتبصر الدنيا طريقها في زحمة الطرق المعتكرة المتشابكة، وترى به موطئ أقدامها في ظلمة أغدفت وأغدقت، فاشتد فيها الصدام والاحتدام، فما دام الإسلام كذلك فثورته العظمى يكون هدفها الأسمى صدوره بالموعظة الشافية والدليل النيّر والبرهان القاطع والحكمة الناجعة فإنه بذلك تسلس القلوب وتذعن النفوس، وتلين أزمّة الأرواح والضمائر، وتسلم البواطن والظواهر. وفي تجربة الإسلام الأُولى و سيادته العظمى وعبوره الى القارّات، وآمتداده عبر تلك المسافات دليل حيٌّ على شأن الإسلام في الوجود، وعظمته وآقتداره في الامتداد عبر الحدود، فهو دين العقول والبصائر، به تنشرح الصدور وتنعم

السرائر، فما على الإسلام اليوم بعد أن هزَّ الرُّكام الثقيل هزَّة قاهرة فانتفض من تحته كالبركان ألّا يعيد تجربته الأُولى فيبسم لعبوس الحياة الكالحة الكادحة، فينوّر وجهها بالبسمات لتبسم هي له بسمة الرضا والقبول، وينساب اليها شمما ساطعا ذاكيا يعطّر قلبها المليء بنتن الحياة وعفنها، فتبقى حلس روضه لا تفارقه، ويمديده الآسية الرؤوم يأسو كلمها، ويمسح قلبها الجريح، يشفيه من القرح الممضّ، ويضمُّها الى الصدر الودود، يذيقها من طيب حنانه ماترى به طيب الحياة، وبهجة العمر وحقيقة معنى الوجود؛ وجود الانسان الكريم في ظل ربّه الرحيم، ومن شعارات هذا الإمام التي هي من صميم الإسلام شعار (يوم القدس) يوم مسرى الرسول، ومهد عيسى، وأُولى القبلتين ومهوى قلوب المسلمين وأبنائها الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق، فقد برّحها الوجد وأضناها البعاد، وٱصطلت أنحاؤها كأبنائها بسعير اللهفة والحنين، فهذه السنون التي فصلت بينها وبين أهليها نصال تعبث في أحشائها، وهي في نفوسهم محنة من الفراق تشبُّ لها نار فيهم تأكل خضراء بهجتهم، ويقوم لها عندهم عاصف مُرزم يخضد روض دعتهم. وليس يعني القدس وحدها بل إنما يعنيه ذكر عاصمة البلاد ليس إلّا البلاد جميعها لأنَّها منها بمنزلة الرأس من الجسد، والقلب من البدن، على أنَّ فلسطين كانت من شعارات هذا الامام وغاياته، وكانت لها في نفسه لوعة ضارمة لاتهدأ، ووقده متسعِّرة لا تخبو، وحسرة لا هبة لا تنقطع، وكان لها على لسانه نداء رفيع الى تحريرها، ودعوة صادقة الى إنقاذها وشحذ للهمم الوانية والعزائم الدانية في نفوس العرب والمسلمين الذين يرونها تنتهك فلا تضرى فيهم نار الغيرة، ويبصرونها تُهان فلا يُبدون ولا يُعيدون، ويسمعونها تستغيث فلا تحمشهم الاستغاثة ولا تهزُّهم من رقدة الخنوع صرخة الحرة السليبة بين أيدي الغزاة المجرمين تنادي «يا للمسلمين».

ولعلَّ في ٱختيار شهر الصيام، وٱنتخاب الجمعة الأخيرة، من مداليله الكريمة ومراميه العظيمة ان المقدّسة التي اشتُق ٱسمها من القداسة

لابدَّ لها من يوم مقدَّس يُرفع فيه ذِكرها، وتُعلَن نصرتها، وتعاهَد على السعي الكبير وإن طال المسير الى تحريرها وتطهيرها، وأن الفكر بهذا عبادة سامية، وطاعة عالية، فليكن ذلك في أقدس الأيام وأسماها، وأطهرها وأعلاها، وأنها بعد طول الغياب في دياجي الاغتصاب، وعجز أبنائها عن ردِّها، وإعادة عزِّها ومجدها، وبعد طول مكث الغاصبين فيها، وحرصهم الأكيد عليها، وجعلها عاصمة لهم ليقولوا إنَّهم فيها ماكثون لا يحولون عنها ولا يغادرون، بعد هذا كله لا يصلح آسترجاعها في العقل والتدبير إلّا العزم الكبير يعاضده الإيمان والسلاح، وبذل المهج والأرواح، وقوة الإرادة على درب الجهاد لتحرير البلاد، ورأس ذلك الجهاد الصبر والمصابرة، والتحمُّل والمعاناة، وفي شهر رمضان لهذه المعاني السامية ألوانها الزاهية، وليس يكون للقدس منالها المحبوب، وطلوع شمسها بعد الغروب، إلّا بجلَد راسخ في دنيا الطاعات، وصبر مكين عن الشهوات، وأوّلها شهوة البقاء ولو بالذلَّة والاستخذاء، والسكوت عن نجدة الحق الغصيب لمعرّة الحق العصيب، فبالصوم عن الشهوات؛ شهوة البقاء، وشهوة الدعة والراحة، وشهوة الأمن والسلامة، يكون التقحُّم في الهلكات لأجل الشرف القدسي المضام، ويكون الخوض في غمرات النصب والوصب من أجل مكرمة الفتح المبين ويكون بذل النفس والنفيس لتعبق تلكم الأنفاس الفلسطينية في رياض فوّاحة للنصر الأغر.

وفي شعارات هذا الإمام بل واقعه الرفيع هو، وواقع أُمَّته الذي صنعه بدينه وعلمه وحكمته، حقيقة (حزب الله) فحيث يكون للشيطان أحزابه المشكلة، وجنوده المدرَّبون، وصفوفه المعبَّئة، وتنظيماته المبثوثة حملت على كاهلها أثقال الليالي وأعباء الدياجير، ورسالات الجاهليَّة وأوزار الصنميَّة، تريد لها أن تسود الأرض لتعود بعد الاستصباح في فحمة الظلماء، وبعد الهدى في غمرة الضياع، وبعد حرية الوحدانية وبهجتها في عبودية الأرباب وأغلال العذاب. وحيث يكون ذلك يكون لابدَّ للإسلام الأصيل

برأي قائده الجليل أن يكون له حزبه الرائد، وتنظيمه الراشد، يمشي في أحناء الأُمَّة مشي الدواء يشفي سقامها، ويفيض فيها روح الاستقامة يقوِّم بها أودها وآعوجاجها، وينساب فيها سيب فرقان فيصل تعرف بتوجيهه رشدها ونهاها، وتختار بدلالته صلاحها وهداها، ويمتاز بنوره حين تبصر به من أحبَّها ومن عاداها، وينبعث هذا الحزب في أحنائها روح هدى ورشاد وآستقامة وسداد، ويكون فيها ــ حفظا لمصالحها، وحرزا لثورتها، وحماية لمكاسبها ــ رائد الأمر ومدبِّرُه في رضا الله، وموجّه الركب ومسيّره الى مجده وعلاه، وتنبثّ خلايا هذا الحزب العظيم في أرض الله الواسعة، شموس الرسالة الهادية في الأرض الداجية، وسحائب الرشد القويم تهطل بالخير العميم، تعشب جدبها، وتورق محلها، وتبعث خواءها، وتحيي فناءها.

فلا خصوم الحقِّ ولا مدعوه يسوسون، ولا الدخلاء والعملاء يدبِّرون، هنالك حيث تكون الولاية للحقِّ المبين، والغلبة لحزبه المكين «ألا إن حزب الله هم الغالبون».

إنه يقول ــ قدِّس سرُّه ــ:

«إنني آمل أن يبرز الى الوجود حزب واحد، وعلى المسلمين في جميع أنحاء العالم الدخول في هذا الحزب الذي هو حزب الله، وهذا ما يوافق إرادة الله في وراثة الأرض».

«بتشكيل خلايا حزب الله للمقاومة في جميع أنحاء العالم سوف يستنقذ المسلمون الأرض الاسلامية...».

الإمام والحرب والشامتون

تلكم الحرب العوان التي فُرضت على أُمَّة الإسلام في إيران، بكل شراسة البغي ودعارة العدوان، فأناخت على الثورة الفتيّة بكلاكلها العصيّة، وٱندفعت صوب الحقيقة الماثلة بمعابلها القاتلة، وكان همُّها الوحيد الداعر قتل هذا الوليد الثائر في مهده الزاهر، وسدَّ باب هذا الشروق الرائع بنور الإيمان الساطع، فلا يمشي في الدياجير يبدّدها ويجلوها، ولا يتفجَّر في الضلالات يفضحها ويمحوها، لتقوم في عصر الشياطين حقيقة الدين المبين، بعدما أُريدَ له أن يبقى رهين الثرى، يبكيه الباكون، ويندبه النادبون.

تلكم الحرب الضروس كيف طلعت على الإمام بوجهها الكالح؟، وكيف طلع عليها بوجهه الباسل المقتدر؟، ماذا كابد منها من رزاياها، وماذا كابدت منه من مواقفه وبطولاته؟ وماذا تجلّت في هذه الحرب من الحقائق الواضحة؟. وماذا كان منها في صالح الإمام وثورته وأُمَّته؟، وما الذي جناه من ثمرها من جنان صموده وعناده وإبائه؟، ما الذي فجَّر في نفسه ينابيع الرفض القاطع لإيقافها؟، وصرفه حتى عن مجرد الفكرة في الراحة من رزاياها وبلاياها، حيث رأى دوامها فرضا لازما لامحيد عن أدائه، ووظيفة مقدّسة لابدّ من إنجازها؟، ما الذي جاء بالأمر العجاب محيِّر الألباب في لحظة هزَّت الدنيا وأمادتها، وصارت هي البركان الذي تفجّرها درّا، فذهبت حممه تغزو القلوب بجحافل الدهشة، وتطعن النفوس بحراب الذهول، وصارت حينها هي الحدث الأعظم الذي شخص في الأُفق الأعلى جسدا

حسّيا وإنسانا عليا، صارخا بلوعة الحق الأسمى عرجت به الظروف القاهرة، والخطوب الفاقرة، على غير ما يرجو، والسعي العظيم القدسي الذي عثرت به خطاه دون غايه، قد أدنى من فمه كأسا مصبَّرة من السُّمِّ الزعاف يريد أن يشربها؟

إنَّ ما طلعت به الحرب من حقائقها يفوق الإحصاء، وتتسامى معالمه الباهرة عن الوصف والثناء. لقد كان ممّا تجلَّت به السبب الذي من أجله شنَّت غارتها الرعناء، وشبَّت نار حربها الهوجاء، ولم يكن غير هاجس الخوف من تلك الأوبة المحظورة للإسلام التي أبى الاستكبار — منذ دهره السالف يوم طمس معالم الدين وضيَّعها — أن تري العالم روح ذاك الدين العظيم رأد الضحى، ونوره الوهّاج كالشمس الطالعة، وحكمه العدل كأنه القسطاس المستقيم، ورحمته الغامرة كالفيض الغامر، ونعمته السابغة وسع السماء، ترفع عن كاهل الإنسان شقاوة الحرمان في النفس والواقع، وبكلمة أجمع للمراد، حضارته الفريدة التي طلعت على البشريَّة كما يطلع عليها من أُفق التحقُّق نور الأمل الكبير، فعاشت فيها حياة الانسان مطهَّرة مهذَّبة، والواقع الرفيع النزيه، والحركة الصاعدة المتسامية بفكرها وعلومها ودأبها ونشاطها.

وممّا تجلَّت به الحرب وقوف الإستكبار كلّه ضد ثورة الاستضعاف التي رفعت — تقود المستضعفين — لواء التحرُّر من رقِّ الكبراء، وانعتاقهم من نير الاستخذاء، وقيامهم كالأُسود الكاسرة تحطِّم القيود الآسرة، وتهدم العروش الفاجرة، لتكون الأُمَّة رائد نفسها لايرودها سواها، وقائد واقعها لا يقوده عداها، ومالك مقدراتها وثرواتها تفعل فيها ما به صلاحها، وتضعه فيما تحب، وتختار مما فيه سؤددها ونجاحها، مختارة حرة، لا مكرهة ولا مضطرَّة.

وهذه هي الضربة التي رأى فيها المستكبرون مقتلهم إن نالتهم، فقاموا لعلاجها بألوان العداء، وهي الصيحة التي إن دوَّت فبلغت كل

القلوب عن الآذان الواعية لكانت هي الداهية، فسارعوا الى نصب الجدران وسدِّ الآذان، ودوّى لهم حولها رهج صاخب، وصراخ واصب، لتضيع فيها، وتموت في أحشائها. وهي الصبح المنير إن أطلَّ بوجهه البسّام في غمرة الظلام جلّى عن الأرض عشواتها، وبدَّد من حولها ظلماتها، فعادت مستنيرة مستصبحة، ترى طريق السلام والنعم الوافرة، وتهتدي الى شاطئ الأَمن في اللُّجج الغامرة.

وعاد — بوقفة المستكبرين كلِّهم لقتلها — يوم غابر طوته القرون، حين خندق الإسلام على نفسه وقد أحاطت به عوادي الشرور فعاد كالزورق المهيض في الخضم المزبد، أو الهباءة في الفسيح الواسع الممتد، وأبت الثورة اليوم كما أُمُّها بالأمس أن يعنوا للذل، او يضعفا أمام الكرب، او يلينا لفرط القسوة، او يخورا أمام العاصف المرزم، أو يحورا عن الهدف وقد وقفت على الدرب أمامها إليه كلُّ المحن والعقبات. وبقي فرع تلك الشجرة الطيبة الثابتة الأصل يتنامى ويمتد حتى أوشك أن يطبق الأرجاء ويأخذ على الظالمين أجواز الفضاء.

وكان من بركات تلك الحرب برهان تلك القضيَّة الكبيرة (دور الأُمَّة في ثورتها) فانّها نبتت في قلبها، وآرتوت من دمها، وامتدَّت فروعها مع عروقها في بدنها، وفاحت أريجا مع أنفاسها ومشاعرها. فالثورة كانت ثورة الأُمَّة فكانت الأُمَّةُ هي الحامي والذّاب والناصر، وكانت هي الكهف الحصين والملاذ الحريز، وكانت هي بدينها سرَّ المنشأ فهي مغزى البقاء، وكانت هي المستشار لذلك التيّار، فهي الذي يصونه ويرعاه ويحوطه ويتفدّاه. ووقفت الأُمَّة في حرب العدوِّ اللَّدود كالطود لا تهزُّها بوائق العدوان وقد طلع عليها بحالات وفنون من الخطوب والكروب، هي تاريخ كامل من البلايا والفجائع لم يلفها أحد في فصل واحد من فصول الرزايا في التاريخ، ولم ترها عين الزمان في حقبة واحدة منه، فراحت تجمع الفصول والحقب بعضها الى بعض حتى آئتلفت كتاب فاجعة عظمى، عندها رأت فيها كفؤ

فاجعة الحرب الظالمة، وعدل رزيّتها القاصمة، وبانت في الحرب حقيقة سامية ممّا كشفه الفكر العملاق للإمام من واقع الرسالة العظمى وتاريخها، وأفاد منه وبه أروع الإفادة وأعلاها، ألا تلك حقيقة (**انتصار الدم على السيف**)، وفيض المهجة على قذيفة المدفع، فحين طلع العدو بلامة حرب لم ترلها عين الدهر مثيلا في واقع مناضلة وميدان مصاولة من كلّ جديد فريد ابتدعه الأسياد وادّخروه في مضامير المذاخر للأيام المشهودة... طلعت الأُمَّة في إيران كما هو شأنها في طلوعها على أعدائها باليد العزلاء أو شبهها، قد أحمت مواسم العلاج للداء العضال دمها الفائر في عروقها، ومهجها الضامئة الحرّى الى البذل، وقلوبها اللهيفة الى العطاء. والتهب الدم الفوّار نارا حامية، واشتعلت المهجة لظى متوقّدا، وانتشرت أفلاذ القلب حمما قاتلة من بركان العزم الذي يسعِّره الإيمان، ويفجِّره القرآن.

وبقيت الثورة كما هي أكثر عزما وشموخا واقتدارا، لأن أُمَّتها التي أنجبتها أرادت لها البقاء لتُستعلَن بذلك حقيقتان باهرتان هما لا ثورة بلا أُمَّة، وإن ثورة الإسلام في إيران هي دم تلك الأُمَّة الثائرة على هدى الإمام العظيم ونهجه الكريم.

ولقد طلعت في هذه الحرب من صنع الإيمان والأُمَّة المؤمنة معاجز للفداء والعطاء لم تبصرها ناظرة التاريخ في هذه الأُمَّة الشاهدة إلّا في فصل واحد هو الصدر الاول لهذا الدين. فلقد أنجبها رسوخ الاعتقاد. وصدق الايمان وعزمة الحق، وروح البذل، ونداء القائد وحكمته، وفداء القيادة واستبسالها؛ صورا باهرة تدهش بها العقول، وتطير لها القلوب شعاعا في الأجواء من عجب وحيرة للصمود والتصدّي، والرفض والتحدّي، والإباء والفداء، والجود والسخاء.

وجسّدت الحرب أروع التجسيد حقيقة الارتباط بهذه الثورة وربّها، وصدورها عن أمره، وصنعها على عينه، وأخذها من مصدره، وفيضها من نبعه، وسيرها على هداه الذي أنارلها دربها به ولي من أوليائه العظام،

ودليل من أدلائه في الأنام. وحين كانت الثورة ثورته كان حقّا عليه نصرها وهي لم تعتمد سواه ولم تصمد الى غيره، وقد كفرت بكل آلهة الدنيا وأربابها وأصنامها وجاهليتها لتتمحَّض عبودية له، وإيمانا به وعملا بشريعته.

وتجسَّمت في العون الإلٰهي الكبير في الحرب وماقبلها ومابعدها حقيقة المصدر الربّاني في الثورة، وقضية التأييد الغيبي لدين الحق والسداد وإمام الرُّشد وأُمَّة الثورة، ولولا ذلك ماقامت لها قائمة في محنة أيسر وصفها أنها قاصمة ولأضحت شوكتها مخضودة، ونبتتها محصودة، تحرق بنار الغيظ والعداء، وتذرى رمادا في الهواء. ولقد قال لي أخ في الله — ولم يعدُ الصدق في التعبير عمّا في نفسه—: إنني لا أبحث بعد اليوم عن أدلّة معمّقة أو ميسّرة عن وجود الله وحقّانية الرسالة الخاتمة، فعندي ببقاء هذه الثورة في حوازب المحن، وجوائح الخطوب من بين يديها ومن خلفها، ومن فوقها ومن تحتها، وعن يمينها وعن شمالها ماعزَّ على غوص الفطنة فهم كنه بأسه، ومعرفة فرط وقعه، فظلَّ رهن الأحاسيس والخيال، فليس له مايتسع له غيرهما من مجال، عندي بذلك ألف دليل على وجود الحقِّ الذي أبى إلّا صون الحقيقة الغرّاء، ووجود الإله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأعزَّ جنده، ولولا ذلك الوجود المشهود بدلائل العقل والوجدان لما بقيت هذه الثورة ساعة واحدة تتنسَّم عبير الحياة، فضلا عن أن تبقى عزيزة شامخة تُرمى في الأتون ولا تحترق، وتُقذف بكل غضب الدنيا ونار سخطها فيكون ذلك عليها بردا وسلاما، وها هي تمتدُّ كأنّها النور لا تصدّه الغرابيل، وتنساب لطيفة كأنّها الموج الخفي لا تعوقه العوائق. وتجلّى في الحرب بعد كل ذلك وقبله خلق الثورة وخلق قائدها وأُمَّتها، ذلك الخلق الذي طلع من الإسلام فأشرق بخصاله، ونبع من عينه ففاض بشمائله، وتمثّل له في أُمَّته بأرفع الفضائل والخلال في المواجهة والدفاع رغم أنَّه المظلوم المضطهَد، فدفاع أُمَّته كان أنزه الدفاع، قد خلا من السبل الملتوية، والحيف الحرام، والظلم المرفوض،

ورد العنف الذي طال الأبرياء بعنف مثله يفعله فعله، إلّا بقدر الضرورة مما يسمح به الدين الحنيف لردع المعتدي وصدّ المبتدي.

ولقد دخلت إيران الحرب وخرجت منها بثوب نقي هو ثوب الظلامة والطهر واليد البيضاء من الرذائل، ودخلها عدوُّها وخرج منها وهو ألأم من عليها، وأوغلهم في الجريمة، وأبعدهم في التيه، وأكثرهم وزرا مما جنت يداه فيها من عظيم الجرم وكبير الإثم، وغريب الجنايات، وفادح التبعات. وشتان بين مانزلته ايران في الحرب وبعدها في قلوب البشر من المنزلة العالية، وحظيت به من المكانة السامية. — لأنّها المظلوم الصابر الذي لم يخرجه أبشع الظلم عن حدّ التقى والنزاهة والاستقامة— وما هوى فيه عدوُّها من القعر البعيد لذلك الحضيض في مستنقع العار والشنار تهتن عليه فيه لعنات اللاعنين من شتى الأمصار والديار، وتعرض على الناس سوءاته وسيئاته يندى لها جبين البشرية على شتّى سلائقها وأذواقها.

ولقد طلعت سجيّة التقوى عند الإمام من أجلى الأُمور الرفيعة في هذه الحرب؛ تلك التقوى التي حالفته سحابة عمره رفيقا لم يصاحب غيره، وأنيسا لم يهنأ عيشه بغير الأُنس به. حالفته وصاحبته في كلِّ خطوة خطاها على دربه المليء بالأشواك والعثرات والمداحض، وكان يقدر— لو أسلس عنان نفسه وأرخى زمامها لتذر التقوى ولو حينا— أن يصل الى غايته ببعض راحته عن طريق سالكة خالية من نصال الهموم وسهام الغموم لكنّها غير طريق التقوى، وكان يمكنه في الحرب — لو نزع لباس الخشية من ربّه آنا من عمرها — أن يظفر بعدوّه ظفرا قاهرا لكنّه غير ظفر المتقين الأبرار. وكان في وسعه وهو رغيب النفس الأمّارة، وسجيّة الاصرار والعناد على ما تبدّلت فيه الأحوال والظروف، مخافة حزّ السيوف الباترة للشامتين، ووقع النصال الضمأى للحاقدين— كان في وسعه أن يديم الحرب حتى يأمن قلبه الوادع الذي أتعبته المحن والسنون تلك الطعنات النجلاء التي تصميه فترشّه أوصالا في الفضاء، وليكن بعد ذلك مايكون، ولو كان قتل الاسلام

والثورة، وتدمير البلاد وإهلاك العباد لكنّ تقواه الوتر، وخوفه الفرد من ربّه، وإخلاصه ووفاءه لبارئه وثورته وأُمّته، أبت عليه إلّا أن يقرَّ للواقع الجديد الذي يفرض عليه؛ أن يقبل بما تأبّاه، وأن يذعن للإلزام به ويرضاه، لأنَّ به مصلحة الدين وخير المؤمنين. ويدخل الحرب ويخرج منها نقيَّ الثوب، سليما من العيب، قد رفعته تقواه فيها عن المزالق ومواضع العثرات، واجتالته عن المسير الى الغاية للسبل الملتويات، وظلَّ رهن التقوى يكابد فيها بالعياذ بها مرارة الصبر على الطاعة والمعصية، مع عدو لم يصرفه صارف دين ولا ضمير ولا قانون، عن أن يأتي في عدائه وحربه أيَّ دعارة وعرامة، وفجور وشراسة، ومجافاة للعرف والأخلاق، ولأيسر ما اتَّفقت عليه كلمة الناس من مبادئهم وقيمهم، ولقد كان في رخصة كاملة من الإلزامات الدينية والإنسانية والدولية؛ يصول صيال الوحش الكاسر ويخبط فجوره خبط العشواء في الليلة الظلماء، واذا ما كانت الأشياء والأُمور تعرف من أضدادها فعدوُّ الامام الكريم كان ذلك العدوَّ اللئيم، وهذا من مفاخر المقرَّبين، وسيماء الصالحين.

ولا ننسى ما أنجبته الحرب من قضية الزيف في مدّعيات المدّعين ومزاعم الزاعمين فيما سمّوه المنظّمات العالمية لإنصاف المظلوم، وردع المعتدي، والذبِّ عن حقوق الإنسان، فاستبانت هذه بالحرب أداة بيد الظالمين يضربون بها خصومهم، ويحقّقون بها مآربهم، ودوابَّ ذللا يمتطونها الى غاياتهم، وثيابا برّاقة يستغشونها تستر عن عين الدنيا كلوح وجوههم وقبح فعالهم. وكانت الحرب، وطلعت على الدنيا بجرائرها التي عزَّلها النظير، وكأنَّ عين تلك المنظمات كانت عمياء لا تبصر شيئا مما يجري، ثم لمّا أحاطت الخطيئة بصاحبها، وانتقض غزل الغازل، واحتبلته شراكه؛ ارتفعت عقيرة المنظّمات تنادي بحقِّ الانسان، وقبح سفك الدماء، واقتتال الجيران، وألوان الدمار، وفجائع الخراب، وحرمة الإصرار، على ما فيه الهلاك والبوار.

ومما ٱلتمع في معمعة الحرب من حقائقها الزاهية؛ حقيقة عالية يزاح

بها الستار الذي كثّفه الظالمون على وجه دوافعها الزاكية في مواصلة الحرب حتى بعد أن قمعت عدوَّها فانكفأ ذليلا صاغرا يلعق جرحه ويندب حظَّه. فثمة حقيقتان في شأن الإصرار على المصاولة والنضال المقدّس هما سرُّ ذلك العناد الأشم، ومغزى ذلك الرفض القاطع.

لقد كان عقاب البادئ المعتدي الذي سفك الدماء البريئة، وخرَّب الديار العامرة، وانتهك الحقوق؛ ممّا فرضه الله في كتبه، أو أقرَّته الأُمم في ضمائرها أو في عصبتها، وتجاوز كلَّ الحدود التي رسمتها الشعوب أو منظَّماتها، يراد بذلك العقاب أن يكون نكالا لما بين يديه وما خلفه ومثلاً للآتين، وآية على مصير الجناة الظالمين. كان ذلك أُولى الحقيقتين وحقيقة أُخرى تأتي بعدها تظاهرها في بيان الدافع؛ هي نصرة المظلوم المستنصر في الدين «**وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر**» فالعراقيون المجاهدون الذين خاضوا الحرب ضد عدوِّهم في عقر داره ومن خارج الحدود، وسطَّروا للمجد في ذلك الجهاد أروع الصفحات، وأنزلوا من سماء العزِّ والفخار لها أسمى الآيات، يتلوهنَّ الواقع العظيم فتخشع القلوب، وتقشعرّ الأبدان. وأعطوا للدين الذي أرادوه حكما وشريعة ونظاما أغلى العطاء هو عطاء الأسخياء. أُولئك كانوا في صميم الحرب، وطليعة ركبها الحافد الى النصر؛ يسألون إمام المسلمين نصرتهم، ويستنصرون أُمَّته على عدوِّهم، ويناشدونها بفرض الدين والإنسانية، وحق المسلم على أخيه في نجدته أن ينصراهم في صيالهم، وأن يعضداهم في قتالهم. وجاء إلزام هذه الفريضة ليؤازر فريضة ردِّ البغي وعقاب الباغي فتكونا، فاطر العناد الكبير وبارئ الاصرار المثير، في لجج الفواجع، ورعود القوارع، وفواقر النكبات، وبوائق المصيبات.

ثم ماذا كانت الحال؟. وكيف آل المآل؟.

رضي الرافض المصر بوقف القتال بعد أن كان يراه عين الضلال. فماذا عدا مما بدا لتذهب تلك الجهود سدى؟ لماذا كان الإصرار والعناد

حيث يقال له لا تصر ولا تعاند؟، ولماذا الرضى والقبول وقد كان يسميها خيانة لله ولرسوله؟. لماذا لم تتوقف الحرب والعدو ضعيف مهزوم ينشد الصلح مستجديا ذليلا يعد أن يعطي كل شيء ويقرّ بكل شيء؟ أين صار طريق القدس الذي قال إنه يمر عبر كربلاء؟، وأين إنقاذ الشعب المظلوم في العراق يستنصر الأُباة على الطغاة والظالمين؟

لقد آلت الحرب الى السلام، لأن ذلك هو مصلحة الاسلام، بعد أن حالت فيها الاحوال، وتغيّرت الظروف، وتمادت الأُمور، وولدت (عناوين ثانوية) من رحم الواقع المرير ليُغضّ بها الطرف عن (الحكم الأوّلي) وذلك هو رأي الاسلام والعقل والوجدان، وأنجبت الظروف القاهرة المصلحة الأهم التي ترجح مادونها فيعزب عن هذه بتلك بفرض الدين والعقل والحكمة وأحاطت ببيضة الإسلام وثورته من المحن الفاقرة، وأتلعت أعناقها من كلِّ صوب لتنهدّ نحوها بالبلاء العياء كلُّ غريبة من الرزايا وعجيبة من البلايا، ممّا صار معها الحفاظ على تلك البيضة أقدس الواجبات، وألزم الفروض، وأعلى التكاليف، وأوضح مطالب النُّهى والشريعة والذوق. وأبصرت حكمة الإمام النافذة، ورأت بصيرته المدركة، وأشرفت على الأمر من على قمّة الفطنة والتقوى والحصافة باقتدار الفقاهة العميقة، ومعرفة سرّالله في دينه، ورأي الدين في الوقائع، وبعزمة اليقين المكين من البيّنة الواضحة في أمره، والحجة اللائحة في رأيه، فهو رافع الراية، وصاحب الولاية، وهو الحجّة التي جعلها الأئمة الهداةبجعلهم خط الفقهاء العارفين حجة على أُمّتهم، وألزموها بالطاعة و التسليم والإنقياد لهم، وترك الملاددة والإباء والعناد، فهو الفقيه الذي صان نفسه عن المحرّمات والشبهات، ووزعها بوازع العقل والدين عن الضلال والباطل، وخطمها بخطام الاعتصام والتقوى فلم تتقحّم في الورطات، وعقلها بعقال الزهد والترفّع عن أن تذهب به في مسلك الشهوات، وله بعد ذلك من البصيرة والبصر ما حيّر الفكر، وله من المعرفة بشؤون الدين والزمان مايعيى

عن وصفه اللسان بأرفع البيان، وله مع ذلك من الأخلاق والفضائل ما هو آية بيّنة لحقيقة الامام الحق. أبصر الامام ذلك كله فرأى فيه فرض ايقاف الحرب أسمى الفروض وان كان فيه شماتة الشامتين وعيب العائبين وقدح القادحين، وما عليه ان يناله من ذلك فيشربه سما ناقعا وقد نال منه من هو أسمى منه... جدّه المصطفى وآباؤه الهداة.

ألم يقم نبي الهدى ليقول للناس إني ذاهب للعمرة فهبّوا نعتمر لله ونجدد عهدنا ببيته الذي أرهقه البعاد كما أرهقنا، وذاب شوقا الى اللقاء كما ذبنا، ويذهب الناس معه والرؤى الحالمة لرؤية الوطن السعيد تملأ الآفاق أمام ناظر المشرّد الطريد، فحيثما ينظر لايرى سواها تملأ قلبه بالبهجة، وتطوف بنفسه في عوالم الأُنس، وتصعد بها الى ذرى الراحة. كان ذلك الأمر هو مصلحة الإسلام والرسالة وأهلها. رآه الرسول فبشّر به، ودعا إليه وسعى مهطعا شطره.

ثم ماذا كان؟.

وقف الرسول محجوزا دون غايته بالظروف القاهرة. وصُدَّ ممنوعا دون هدفه بالسدود الفاصلة، ورضي — حيث كانت مصلحة الإسلام — بالصلح مع قريش المشركة الظالمة، ورضي لتلك المصلحة — بمارضي الخميني اليوم معشاره — رضي أن يحذف اسم الله واسم رسوله من صحيفة الصلح. وعاد الرسول الذي يرى لطف الله يسدّد خطاه حتى فيما ظنّه بعض صحبه غير السداد، ويبصر بركاته تحوطه وترعاه، يغمره اليقين بأن العاقبة للمتّقين، وإن طال المسير، أو تأخَّر المحبوب، أو ائتلف موج المكروه... عاد بلاعمرة مريحة، ولا نصرة صريحة، سوى وعد الله بالنصر المبين لعباده الصالحين، ولقد غرق الناس آنئذ في بحر تلك الواقعة يخوضون لجج الظنون، ويكابدون شراسة التيّار للوساوس، ويصارعون أزّ الشيطان ونفثاته، ويساورون تخبيله ونزغاته، حتى قام فيهم من قام بدعارة الظن السيئ، وعرامة الشك الخانق، ليُسمع الرسول مايكرهه فيما فعله ممّا أعطىٰ به الدنيّة وأذلَّ المسلمين وأعزَّ المشركين!!

لقد قال له: ألست برسول الله؟

«بلى».

ألسنا بالمسلمين؟

«بلى».

أليسوا بالمشركين؟

«بلى».

فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟!

ويكون جوابه الحق المبين من نبع التقى واليقين:

«إنّي رضيت وتأبى؟!، أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمره ولن يضيعني».

وقالت كل طوائف الإسلام: إن رسول الله كان محقّا حيث ذهب للعمرة وحيث صالح وحيث عاد بدونها.

وفي صفّين ماذا كان من عليٍّ أمير المؤمنين بعد أن رأى حرب عدوّه الباغي فرضا لازما يهون لأجل إقامته بذل الدماء، وتُستَرخص لها مهج الأزكياء، ويُستَسهَل لها خوض الملاحم النكراء في لهوات البلاء. وحين لام اللائمون وعنّف المعنّفون لم يعطهم سمعا واعيا ولا أُذنا صاغية، ومشى في الطريق العسير ذلك المشي المقدّس المرير الذي ذهب ضحيته الآلاف المؤلَّفة بعد أن أطبقت فيه عليهم دياجي البلاء المغدفة، وأسرعت فيه إليهم المنايا الموجفة؟

ثم ماذا كان المآل بعد ذلك الكرب العضال، حيث تغيّرت الظروف وتبدّلت الأحوال، ودخل في الأمر مالم يكن في الحسبان من فعال الإنسان ونوازع الشيطان؟، لقد صار الرضى بالصلح بقهر الطارئات وغلبتها من رضى الدين وهواه، فصالح ليؤوب بحسراته وزفراته بعد أن تركها ساحة غرقت في الدماء، ومُلِئت بالجثث والأشلاء.

وقالت طوائف المسلمين كلُّها إلّا من أجمعت على ضلاله، بأن عليّا كان محقا حيث حارب بالمسلمين المسلمين الباغين وحيث صالح فلم يظفر

بشيء من غايته.

ومثل هذا قُل في شأن صراع ولده الحسن مع عدوّ ربّه ودينه وأبيه، وقال المسلمون بصواب ذلك، ورووا فيه عن رسول الإسلام رواية كريمة تجعل صلح سبطه الأمين من مكرماته وحسناته. فمثل هذا فليقل اليوم المسلمون لو أنهم أحسنوا التأسّي بأسلافهم المخلصين في فهم الشريعة واتّباع أهلها وقادتها وأولياء الأمر فيها، فصحّحوا عمل أوليائهم في حالي الرفض والرضا وإن كانا متنافرين، وفي مسلكي الحرب والصلح وإن كانا متعادين، وفي نهجي القبول والردّ وان كانا ضدّين متخاصمين، وذلك هو فرض دينهم عليهم بطاعة أُولي الأمر وحسن التسليم وكمال الأنقياد، فالخميني فقيه الإسلام، وولي الأمر، وقائد الامة، وزعيم المسيرة، وحامل الراية، طاعته فرض لازم، واتّباعه أمر حتم، والرضا برضاه على كل حال هو حقُّه على المسلمين، لأنه فقيههم ورائدهم وحامل رايتهم وزعيم ثورتهم، وعدوُّه اللئيم من لم يخف خبره على المسلمين، رجل من رجال الكفر والإلحاد، بعثي الدين والهوى، عفلقي التربية والتوجيه، أقام حكمه على الأشلاء والدماء، هو والإسلام كقطبي هذه الأرض، بل هو والإيمان بالله كالذي بين السماء وهذه المعمورة، نشر فكر البعث والحاده وفساده، وحظر الاسلام الأصيل ومنعه وقمعه، وقتل العلماء الأبرار، وأعدم المجاهدين الأخيار، وحالف الكافرين وسار على منهاجهم وأخذ منهم ضلالاتهم، قد تجسَّد شرّا، وتمحَّض كفرا، لم يأمن مكره حتى أصحابه المقربون، فهم بنار شرِّه يذوبون، وبسيف خوفه وتوجُّسه منهم يُذبَّحون.

وهو بعد ذلك بدأ العدوان على ايران وأضرم تلكم النيران، فأحرق خضراء بلاده قبل من اعتدى عليها، وقتل أبناء العراق ورجاله في لهوات حربه قبل أبناء ايران ورجالها، وأتى بها ألوانا من الدمار والخراب، تحارفي وصفها الألباب، قد شاب من هولها الرضيع، وذاب الصخر الأصم، وتفتت الجلمود، لم يدع في عدوانه بابا في الشر إلّا ولجه، ولا سبيلا إلّا سلكها، ولا آلة إلّا صال بها، ولم يدع حرمة إلّا انتهكها، ولا محظورا إلّا ارتكبه ولا حدّالله أو للدين

أو للقانون أو للإنسانية إلّا تجاوزه.

لقد رضـي الإمام بما كان يراه هـو الضلال، لأنه قد تبدّل بتـبدُّل الشروط الموضوعية و الأحوال (موضـوع الـحكم) فهو غير ذلك الذي كان حكمه في الدين الـحرمة عين اليقين، و جاءت (العناو ين الثانوية) لتقول: إننـي على (الـحكم الأوّلـي) فـائـقة، وصـار التـزاحم بين حـرب أصـبحـت المهـم وقد كـانت هي الأهم، وصلح غدا هـو الأهـم قـد فضل الـحرب وفاتها في الأهمِّيَّـة،مـذ خـفت مـوازينها في غبطة الإسـلام و الأُمـة بما وردها من الطـارف الذي أذهب عنها جُلّ شأنها الأوّل، وثقـلت موازيـنه هو في ذلك بما أتـاه من الـجديـد الذي لم يكن في الـحسبان فأضحـى الراجح في الميزان.

و كـان الاصـرار و العنـاد مـنه على الـحرب أقرب وسـائـله و أيسرها الى طاعة ربه و رضوانه، و كان خلافه خيانة له، ومخالفـة عن أمره، وحين صار الأمر غير الامر؛ غدا الـحكم غير الـحكم، فعاد ما كـانت الـخيانة بـقبوله، امرا مقبولا يخون من يأباه لأنه بعين الفقيه العارف فرض الله.

ولم تتوقـف الـحرب و العـدو ضـعيف مـهزوم لأن ضعفـه و انهزامه كـانا يعضدان الـحكم اللازم بالسعـي الى عقابه وتأديبه، وأخذ حق الأُمة منه، وأي رسول أو خـليـفة رسول أو عـاقل لـبيب له أدنـى مسكـة من عـقل و رشد يرى في دعوة عدوِّه الظـالم المهـزوم ملزمـا إلٰهـيا أو عقـليـا الى قبول الصـلح مـعه، و إعطاء الدنيّـة بالمسـالمة، و الرجـوع عن عدوٍّ جائـر قد أطلـق ساقيه للريح هـاربا، فإن هو تُرِك سالما عاد الى شانه في الـجور و الإفساد وظلم العباد.

وحين كان المسير على الطـريـق الى كربلاء المسلـمـة المسـتـنصرة فرضا، وفتح تلك الأرض المقدّسة الطهور المستغيثـة عزيـمة، كان الهدف الأسمـى بعد فتحهـا نصـرة القبلة الأُولى، و مـعونة الشعب الطـريد، و إعادة الـحق الغصـيب، و هـذا في غايات الثورة أرفعـها و أعلاها، و هوفي أهدافهـا أشرفها و أزكاها. و أمّا السعـي الى تـلك الغاية السامـية.. . نصـرة أبناء العراق المسـتنصرين في الدين، فـقد حال دونهـا و دوَن ماهو أسـمـى منهـا ما حال بين الـرسول وخلـفـائه و بعض

أهدافهم السامية، فحجزهم حجزا قاهرا بالظرف الغالب القاهر، وصدّهم عنها صدّا ملأ قلوبهم قيحا، وشحن صدورهم غيظا، لكنهم راضون برضا الله غير ساخطين، مستسلمون لارادته، متوكلون عليه، صامدون اليه، وإن لم يواتهم المحبوب له ولهم، ولم يوافهم المرغوب عنده وعندهم.

ولم تذهب جهود الامام وأُمَّته في تلك الحرب سدى، كما لم تذهب جهود إسوتهم وقدوتهم كذلك، وإنما كان بذل الجهود لرضا الله لا لتحقيق النصر، ولو رضي الله بلانصر فهو أسمى الظفر، ولو كان الظفر بلا رضاه فهو الهزيمة المنكرة. أوليس على الساعي الباذل جهده لغاية كريمة أن يبلغها وله بعد ذلك أجر الساعي و أجر البالغ غايته وهدفه، فمن همَّ بحسنة فلم يفعلها بحجز القواهر كتبت له، وسُجِّلت في صفحة الحسنات، وعُدَّت له عند ربِّه والمنصفين من المكرمات.

ومسك الختام في هذا الموضوع كلمات الإمام –قدّس سرّه– في حربه وما جناه، وأفاده منها وأفاد به، وماذا يقوله هو عن عاذليه ولائميه وعائبيه:

(إن نظرة منصفة تحلِّل أحداث الثورة – خصوصاً أحداث السنين العشر التي أعقبت انتصار الثورة – تحكم بأنَّ الثورة الإسلامية في ايران كانت موفّقة في أكثر الأهداف وعلى مختلف الأصعدة، وبحمد الله لم تهزم في أي مجال ولم تخسر، وحتى في الحرب كان النصر حليفنا ولم يحصل اعداؤنا على شيء مقابل تلك الخسائر الجسيمة التي لحقت بهم.

ولو أن جميع العلل والأسباب اكتملت وتمكنّا منها لبلغنا في الحرب أهدافا أكبر واكثر كنّا نتطلّع اليها، ولا يعني هذا أن العدوَّ هزمنا وأننا لم نحقِّق هدفنا الأساسي المتمثّل في ردِّ هجوم العدو وإثبات صلابة الإسلام، كلّا.

في كلِّ يوم من أيّام الحرب كانت لدينا بركة نستثمرها في مختلف المجالات.

* إن ثورتنا قد صُدِّرت الى العالم أثناء الحرب.

* لقد أثبتنا ظلم العدوّ وأثبتنا مظلوميتنا في الحرب.
* استطعنا من خلال الحرب أن نزيح عن وجه المستكبرين قناع التزوير.
* إننا من خلال الحرب عرفنا الأصدقاء من الأعداء.
* إننا من خلال الحرب توصّلنا الى حتمية الإعتماد على النفس.
* إننا من خلال الحرب حطّمنا هيبة الشرق والغرب العظمى.
* إننا من خلال الحرب عمّقنا أواصر الأُخوة وحبَّ الوطن في وجدان أفراد شعبنا.
* إننا من خلال الحرب أثبتنا لشعوب العالم — وخصوصا شعوب المنطقة — إمكانية محاربة القوى العظمى، والصمود في هذه الحرب لسنين متمادية.
* إن المساعدة في فتح أفغانستان إحدى ثمار حربنا.
* حربنا سوف يعقبها فتح فلسطين.
* لقد أحس جميع قادة الأنظمة الفاسدة بالذلّة مقابل الاسلام ونتيجة لحربنا.
* لقد تسبَّبت حربنا في صحوة الهند وباكستان.
* إنها الحرب التي جعلت صناعاتنا الحربية تنمو بهذا الشكل. والأهم من كل ذلك أن استمرار روحية الاسلام الثوري كان في خلال الحرب.
* كل هذه الإنجازات هي من بركة دماء الشهداء الطاهرة التي أراقتها ثماني سنين من الحرب.
* إنها ثمرة جهود الأُمهات والآباء وشعب إيران العزيز في عشر سنين من النضال ضدَّ أمريكا والغرب وروسيا والشرق.
* حربنا حرب الحق والباطل وهي لانهائية.
* لقد كانت حربنا حرب الايمان ضد الرذيلة، وهذه الحرب كانت منذ آدم وستبقى الى الأبد.
* كم هم قصيرو النظر أُولئك الذين يتصوَّرون أن عدم وصولنا غايتنا النهائية في الحرب يعني أن الاستشهاد والإيثار والفتوّة والتضحية والصمود عديمة الجدوى! والحال أن نداء افريقيا المطالب بالإسلام نتيجة لحرب الثماني

سنين.

* إن رغبة شعوب أمريكا و أوربا وآسيا و أفريقيا في التعرُّف على الاسلام هي من ثمار حرب الثماني سنين.

* إنني من هذا المكان أعلن و بشكل رسمي اعتذاري لجميع أُمّهات وآباء وأخوات و إخوان وزوجات وأبناء الشهداء ومعوّقي الحرب عن التحليلات الخاطئة التي تطرح هذه الأيام، وأسأل الله أن يقبلني في صف شهداء الحرب المفروضة.

* نحن غير نادمين ولا متأسّفين للحظة واحدة عن خوضنا الحرب.

* حقّاً، أَوَنسينا أننا حاربنا من أجل العمل و التكليف؟ والنتيجة هي فرع عنه! إن شعبنا بقي الى اليوم الذي كان يشعر فيه بالقدرة وتوجُّه تكليف الحرب إليه مؤدّيا لواجبه — وطوبى لأُولئك الذين لم يتردّدوا حتى اللحظة الاخيرة... تلك اللحظة التي اقتضت فيها مصلحة الثورة قبول القرار فخضعوا للواجب الشرعي وعملوا به وهل العمل بالواجب يبعث على القلق؟!

* لا ينبغي في إبداء وجهات النظر، و إظهار العقائد أن نتصرف بطريقة خاطئة من أجل إرضاء بعض من الليبراليين العملاء بحيث يشعر حزب الله العزيز أن الجمهورية الاسلامية أخذت تحيد عن مبادئها.

* ماذا ينتج عن تحليل الأمر على صورة أن الجمهورية الاسلامية لم تجن شيئا، أو أنها لم توفّق، غير إنهاك النظام و التشكيك في المسؤولين؟ إنّ تأخُّر بلوغنا جميع الأهداف لايعني أننا تخلينا عن مبادئنا، نحن جميعا ملزمون بأداء الواجب و ليس بتحقيق النتيجة.

* لوكان جميع الأنبياء و المعصومين عليهم السلام مكلّفين بتحقيق النتائج في عصرهم لما كان ينبغي لهم أن ينطلقوا الى أبعاد خارج قدرتهم العملية أبدا، ولا أن يذكروا ذلك ، ولا أن يطرحوا الأهداف الكلية بعيدة المدى التي لم تتحقّق في حياتهم أبداً! والحال إنَّ شعبنا تمكّن بلطف الله من تحقيق

شعارات الثورة التي نادى بها في أكثر الميادين).

و يقول فيما يشبه هذا المورد:

(إن السؤال: ماهي نتيجة الدماء التي أُريقت؟ سؤال خاطئ و هو كسؤال من يسألنا «لقد أدَّيتم الصلاة عشرين سنة ماذا حصل؟» إننا نؤدّي واجبنا الشرعي واذا تحقَّق النصر فللّه الحمد و إلّا فقد أدّينا ماعلينا).

* لقد كان كثير من المنظِّرين يطرحون أن النصر في هذه الثورة هو أمر مستحيل وليس عملها إلّا تقديم القتلى بدون نتيجة، إذا تحقَّق لنا النصر فيها و اذا قُتِلنا فهذا شأن الانبياء والأوصياء الذين نهض وثار كثير منهم ولم يتمكَّنوا من تحقيق أهدافهم.

خط الإمام

حيث تتشعّب الخطوط وتختلف، وتلتقي المناهج وتأتلف، وتضرب في شتى الجهات والأنحاء، تنمّقها الآراء والأهواء، وتمتد في الحياة طرقا من الأوحال، يكابد منها سالكوها أشد الوبال، وتحت قشرها الافعواني تكمن الأهوال، أرضية يغمرها تراب الأفكار الواهنة، شهوانية عجّت بأفانين الرغبات الماجنة، لها فنون وشؤون من سجية الحيوان، وعليها ظاهر خادع من طبيعة الإنسان، نفخت لها الأبواق حتى صيّرتها قمة الابداع، وتحدثت عنها الصحف فسمّتها الأريج والشعاع. وذهبت في الحياة والأحياء كلَّ مذهب، وطارت إليهم في الفضاء على متن كلِّ مركب، فتكنّفتهم كما تتكنف الظلمات من في أطوائها، وطوتهم طيَّ السجل للكتاب في أحشائها، فهم في غمراتها الهادرة يصطرعون، وفي نيرانها المستعرة يصطرخون، كلّما أنضجت جلودهم أبدلتهم جلودا عداها، وكلما أذابت قلوبهم وعقولهم أعارتهم من سخفها سواها في رهج الخطوط والمناهج هذه يمتد منهج نوري علوي من كبد الضياء والعلياء، ويشرق شروق الشمس الضاحكة في الأرجاء، ويسدّده مسدّد سماوي هو الله العظيم، ويدعو إليه لهيفا عبده الخميني الكريم، قد انداح قلبه مع امتداده يدعو اليه العباد، ينادي بصوت رفيع هنا طريق الرشاد، وتفيض في أرجائه نفسه النقية الطهور، أمواجا من الندى والبهجة والنور، فتهفو إليه ظمأى القلوب والنفوس والألباب، وتهشُّ له في غمرة القلق والحيرة والعصاب، تقول له مرحى لهذا المنقذ المسدَّد الأمين، يدلُّ الورى مخلصا على منهج الرشد المبين.

ولذلك الخط أهداف وصفات، وعليه أقاويل وشبهات، وله اليوم

في الحياة آثار واضحة، وله فيها معالم لائحة، وله منها وجوده الوتر المجيد، يفيض منه البهاء الفريد، وله أتباعه ودعاته المخلصون قد أحضنوا عليه دأب الأُم الحنون، قد اشترى منهم أرواحهم فباعوها غانمين، واستوهبهم راحتهم فاسترخصوها باذلين، فهم من أجله يخوضون الرواجف لايعبأون، ويمشون على متون الأهاويل لا يحفلون، فهم له ثورة دائمة ليس لها ركود، وصيحة هادية ليس لها خمود.

صفات ذلك الخط هي صفات الإسلام وخصال الإمام لأنه رائده وداعيه والذائب فيه، وشمائل ذلك المنهج هي شمائل الرسالة الخاتمة والقرآن المجيد، وخلال عارصها وحافظها وناشرها والذابِّ عنها، والمضحّي بكل شيء في سبيلها.

وفضائل ذلك الطريق الخميني هي فضائل الدين الحنيف في أصالته وعظمته ونزاهته، قد جسّدها حامل رايته في واقع فذ فريد، أصالة بلا نظير، وعظمة تستجلب الدهشة، ونزاهة كأنها روح الصفاء والنقاء، فتبدي للناس بذلك الواقع المشهود ماتضمره وتبديه رسالة الاسلام التي ذاب فيها مجسّمها وداعيها وحاميها من حقائق الخير والكمال، ودلائل الفضل والجلال.

ولقد تكشفت بذلك الخط حقائق غيره ممّن تسمى بالاسلام وتظاهر به، وطلع مخادعا بمظاهر منه ليست من الدين إلّا اسمه ورسمه، يفتل الناس به عن النهج الصحيح لدينهم، ويصرفهم عن المسير المرسوم في شريعتهم، ويغويهم عن الطريق السوي المتكامل الأصيل الثائر الرافض الى طريق كله الأود والنقيصة، والخنوع والاستسلام، والرضا بالقوى العظمى وما تمليه وما تعطيه، بل عبادتها في معابد الخوف والخضوع، وفي محاريب الرهبة والبخوع. وقد سمى هذا خط الإمام (الإسلام الأمريكي) الذي لفّقته أمريكا مما يرضيها من الإسلام، ونزّهته ممّا يخيفها، وصيّرته مسيحية أُخرى تشدّ الإنسان بربه في زوايا المحاريب والمعابد والمساجد، ولا علاقة لها بواقع هذا الانسان وحياته وشؤونه ومسيره. ويرتكب المنكر الموبق من يدنّس ساحته بفرية الادّعاء

أنه دين سياسة، ودستور حكم، ونظام حياة في شتّى مناحيها، وطريق خلاص من عذاب الضلالات القائمة !!.

امّا أهداف ذلك الخط فجمّة قد يضيق الحصر بها والاحصاء، كما ضاق الوصف والإطراء، وهي نفسها معالم التجديد في مسيرة الإمام الثائر المجدّد، الذي تنفَّس صبح نهجه من روح الإسلام المضيئة. قيام أوَّل دولة إسلامية للإسلام الأصيل أوّل أهدافه وأسمى مراميه. وحين تقوم هذه الدولة في ايران تكون المشعل الذي ينير الداجيات، يبصر به المسلمون وغيرهم مسالكهم التي راحوا فيها يخبطون ويتيهون ويشقون، ويكابدون علقم المرارات وجمر الحسرات، وحين تدعو تلك الدولة أبناء الاسلام وأهل الأرض الى هدى الله وواقعها الكريم بالحسنى والموعظة الشافية، والكلمة الصادقة، والدعوة المخلصة، تعضدها دلائل الواقع البهيّ المنير الذي مضى في الصدر الأوّل في الإسلام والذي أرادت هذه الدولة اليوم أن تجدّده وتطلع به على الحياة من جديد، تتملى فيه بعين العجب لترى محاسنه الرفيعة، ومحامده البديعة، وواقعه الطهر السامي العظيم الذي ظلمته صروف الحياة فحجبته، وسترته، وضيَّعته واستبدلته بواقع حيوانية مبعثها الشهوات والحماقات، ودليلها الجاهليات والضلالات، راح منها الإنسان المتوحِّش على نهج الغاب يمزِّق أوصاله بمخالب الطمع والجشع، والرغبة الجامحة، والأهواء السادرة لايألوفي ذلك جهدا وسعيا وبذلا ولوكان فيه مضاعفات الآلام والتهمام، وغاية العذاب والأوصاب.

ومن أهداف ذلك الخط إعادة الدور الرائد العظيم لأُمة الإسلام... دور الشهادة على البشرية والقيادة للانسانية، كما كانت الأُمة الإسلامية في الأيام الخالية والقرون الماضية سيدة الأُمم وقائدتها ودليلها ورائدتها، وتلك هي الغاية الأسمى التي خُلِقت لأجلها وخصَّتها السماء برسالتها الخالدة ونبيها الخاتم، وانتهت بدورها أدوار الرسالات واكتملت به النبوّات. ولم يزل يحز في نفس هذا الخط أن يرى هذه الأُمة التي كانت

صانعة الحضارة ومستشارها ورائد الركب ودليله... أُمة عاجزة ضعيفة ذيلية تابعة قد أسلست للغير عنانها، وأرخت له زمامها، يقودها كما يحبُّ الى مايحبُّ، ويسخِّرها كما يشاء الى مايشاء، خاوية القوى، مسلوبة الارادة، منهوبة الثروات، خانعة خاضعة كأنَّها القن الذي لايملك من أمره شيئا.

وإمام هذا الخط يرى أن عودة ذلك المجد الأثيل لا تكون إلّا بتيّار اسلامي مارد، ينحدر صارخا هادرا من قمَّة الوعي، والصمود والفداء ليهدَّ معاقل الشرك والضلال والفساد والاستعباد، ولايكون ذلك إلّا حين ينفخ (حزب الله) من روحه في هذا الهيكل الخاوي في أُمة الاسلام لتعود حيَّة ناهضة مقتدرة، وحين تنساب تلك الروح الإلٰهية في هذه الكتل المتصارعة للأُمة الواحدة لتجمعها في حلبة الاسلام ومضماره، وتلمَّ شملها على حبِّ الله ورسوله، وتعدَّ منها (كوادر التعبئة الإسلامية العالمية) التي تقود الى الفتح الزاهر، وتهدي الى النصر الباهر، بتلك الأُهبة المباركة والإعداد المقدَّس يعود تاريخ الاسلام، يبدِّد الجاهليات، ويدك العروش والأصنام. وهذا الخط يرى أن دوره في الوجود هو الإعداد لليوم الموعود، يوم يعود لهذا الدين مجده المشهود، ولا يكون ذلك إلّا في إياب الأُمة الى دينها وانتظارها للفرج، انتظار الثائرين الرافضين لا المستسلمين الخانعين. ويدعو هذا الخط — بنداء قلب أرمضته الآهة الحرّى، والحسرة الضارمة لما فقدته الأُمة بعد دورها الشاهد الرائد حيث ضعفت وخافت وخنعت— إلى عودة الأُمة الى استقلالها ووحدتها بعد أن ذهبت بها المذاهب في مفاوز الظالمين ومتاهاتهم، قد تفرقت أيدي سبأ وهي أُمّة التوحيد والوحدة وعادت أوصالا تقطعتها ذئاب الحياة المستكبرة وقد كان بيدها زمام العالم، وأفلاذا انتهشتها نصال الفراعنة والطغاة، وبات دمها وعرقها وقود شهواتهم، وباتت ثرواتها وخيراتها مرتع السيد الأمير تعمل هي فيه كالأجير، يصفعها ان توانت أو لانت. فليتها اذ خسرت دورها لم تفقد استقلالها وشخصيتها، وليتها اذ ضيعت رسالتها لم تضيّع عزّتها وكرامتها، ولكن أنّى وكيف وبينها دأب العلة والمعلول. إن

زالت تلك فهذا يزول، وشأن القلب النابض بماء الحياة في عروق البدن وانحائه لا حياة له بغير نبضه، ولا قرار له بغير خفقانه.

وقيادة الفقهاء العارفين بربِّهم، الواعين لدينهم، المحيطين بشؤون زمانهم، المبصرين بناظرة الحكمة والبصيرة والفطنة في معتكرات الليالي السود، وعشاوات الضلال والشبهات وصخب الإعلام المضلل الخادع، وكثافة الأحابيل والشراك والمكائد. هذه القيادة هي دعوة هذا الخط ونداؤه، قد تزيّنت بها رايته ولواؤه، يدعو إليها بديلا عن قيادات الزائفين من المستكبرين المضلّين أو أزلامهم المخدوعين، فأين قيادة هؤلاء الأغرار الأوشاب الجاهلين من قيادة أُولئك العلماء الحكماء العظاء يزهر في قلوبهم نور الايمان، وحقيقة العرفان، وتسمو بعقولهم معارف الشريعة السامية، وحكمها العالية، وتتعالى في نفوسهم عن الرذايل والصغائر نزعة الترفّع عن التافهات، وزهدهم فيما لا يبقى من معرفتهم بقدر الحياة وشأنها ودورها في وجود الانسان، وأنّها ليست إلّا معبرا للوجود الأبقى، وسبيلا الى الحياة الأسمى، وتهفو بقلوبهم الرحيمة الممتلئة برحمة الاسلام الى الرحمة بعباد الله والاحسان اليهم، وفك إصر البؤس والحرمان عنهم بعد أغلال الضلالة والضياع التي كانت عليهم، وانها بكلمة أجمع للمراد قيادة النبيين والصالحين، فأين منها قيادة الشياطين والساقطين؟!

وهذا المنهج الفريد ينادي برفع كلاكل الحرمان عن كل المحرومين، وهو يبذل جهده ما وسعه البذل في إعانتهم أنّى كانوا، فهم نظائر في الانسانية ان لم يكونوا مماثلين في الدين، وللانسانية حقها الكبير، ولها حرمتها وأحكامها والتزاماتها، وللانسان على الانسان — برأي هذا الخط — حق العون والنجدة، وحق النصيحة والتسديد، وهو — في رأيه — شيء مهم في وظيفة التعارف التي أرادها الله من خلقه بشريته وعباده: «يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا».

أمّا آثار ذلك الخط في الحياة بعد دأبه الجاهد الى أهدافه فكانت

ويقولها صاخّة تصمُّ سمع الرعد القاصف، هادرة متفجّرة تفزع البراكين، ليسمعها الطغاة المستكبرون، والكافرون الحاقدون، نذير بلاء ليس له مثيل، ومكربة قاصمة هي الهول المهول، إن هم عادوا الى إصلات هذه السيوف الغادرة، وشنِّ مثل هذه الحرب الفاجرة.

وتسمعها آيات الشيطان ووسواسها، قد نفث بها للغواية خنّاسها... حفيد سيف بن عمرو وآياته العلى، التي بها شفاعة الظالمين تُرتجى، ليعرف أن مناوأة الحقّ والإسلام شيء ليس بعده إلّا الموت الزؤام، وأنَّ منابذة الرسول المصطفى، داهية تقول له عليك يا سلمان العفا، فهذا الخميني حفيد النبوَّة ووارثها وحاميها، قد أرهف البتّار يفري به قلوب أعاديها، ولو كانوا جبابرة العالمين أو أُجراءهم، أو كانوا ذوي النفاق الخادع وأشباههم.

وتسمع الصرخة العظمى كلُّ الدنيا فتمور مورا من فزعها، وتفور فورا من هلعها، ويسرع المفسدون فيها الى الاعتذار وفيه من روح الهزيمة ما فيه، وقد صكّت أسماعهم تلك الصرخة الخمينية تردِّدها حناجر المسلمين المقيمين في بلادهم، يفهمون من ذلك أن الخميني هو وليُّ المسلمين، وأنهم أتباعه المخلصون المطيعون، يمشون على خطه لايحيدون، ويستنيرون بهداه حيث كانوا لا يحفلون ولا يخشون.

ويبادر كثير من الأصحاب والأذناب الى منع ذلك الكتاب، وحسبك هذا شاهدا على الضعف البادي أمام عزمة الإسلام تفجّرت من قلب الإمام، بل تبادر الصين الملحدة الى حظر كتاب وهَن المسلمين وأهانهم تخشى غائلة ذلك الهول الذي كانت بعض آيات فعله وتأثيره مع رشدي وأسياده. فأي نصر كان هو للحق والهدى ذلك الموقف الخميني الجبار المهدُّ من عزة الجبروت!، وأيُّ إعزاز للدين الحنيف كانت تلك الفتوى التي لم يشهد لها الكفر الحاقد نظيرا من البلوى. فللّه أنت يارافع راية الهدى الوضّاء، تنشر أنواره وتذود عن حماه، يامن أقام الدنيا ولم يقعدها لكرامة الإسلام العظيم ونبيِّه الكريم، يا صاحب الفتوى التي

كانت لوحدها ثورة... أسمى ثورة، وُصمت بها الردّة الحاقدة وأسيادها المتجبِّرين بوصمة الذلّ والفناء، يا من هو وحده عرّى الزيف في رهج الأدعياء والمخادعين، وكانت وقفاته العملاق الفيصل الكشّاف لحقائق المخلصين والخاتلين.

ولله أنت يا ذلك القلب الخميني الذي صُنِع على عين التسديد وهداه، فلم تزل الفتوّة تطفح من حناياه، قد أوشكت أن تقاربه التسعون، فلكأنّها من فتوّة الإيمان أربعون، يصول بها الله صيال الرجال، ويذبُّ بها عن حمى الاسلام ذبَّ الأبطال، لا يعيى وقد عيَّت الزعازع الغضوب بالنطاح، ولاينثني وقد ونت الجبال الراسيات في فورة الجماح، لا يضيق فيسأم ويستكين، ولا يتبرَّم فينحني ويلين.

ولقد انقسم الناس في الخط حين طلع عليهم بوجهه الظافر ودولته المنتصرة الى طوائف ثلاث:

طائفة هلّلت واستبشرت، ووجدت فيه غاية أُنسها وبهجتها لأنه غاية مطلوبها ومرغوبها، وهو قد نبت في قلبها، وارتوى من دمها، ومشى بأثقاله الباهظة على أكتافها، وطائفة هلعت وفزعت، وصرخت بالويل والثبور وعظائم الأُمور، لأنها عدوه اللّدود الذي لم يزل يقارعه ويثاوره حتى لان مستخذيا، وذلّ مقهورا حين غلب الحقُّ الباطل، وبدَّدت الحقيقة ذلك الزبد فولّى، وبقي ماينفع الناس في الأرض يورق في مفاوزها الخاوية ربوع الخير، ويعشب بيدها الجرداء بالبركة والعطاء. وطائفة أُخرى توقفت في الخط لا هي له لأنها لم تفهم محاسنه الفاتنات ولم تع آياته البيِّنات، ولا هي عليه لأنها لم تر منه مايؤزُّها على عدائه، وحربه، أو يؤلِّبها على سبِّه وعيبه، سوى ما حام حوله من شبهات تسمعها فلا تصدّقها ولا تكذِّبها، وهي تتربَّص وتترقَّب مؤمِّلة أن يُتاح لها من الألطاف ما يعرّفها على الحقيقة ليمتلئ بها صدرها، وتدبّر على ضوئها — إن استطاعت — أمرها.

وأدت عوامل ثلاثة الى أن تنمحي أو تكاد هذه الطائفة من وجود

وفقهائه من الفراغ يملأونه على نوره وهداه بالموائم الملائم لشؤون الزمن القائم. استوعب ذلك كلَّ الحياة، فلم يغادر من أمرها صغيرا ولا كبيرا إلّا أحصاه، وأحاط به حكمه، واضعا له هديه ورشده وصلاحه.

وقالت هذه الدولة القائمة في قلب القرن العشرين تفجّر فيه بركان الحيرة منها والعجب بها:

* إنها الممكن الفريد الذي أُريد له ان لايرى وجه الدنيا بتهمة الامتناع.
* وإنها الأمر الواقع الذي دوّى ضدَّه الضجيج – قبل أن يقوم– بأنه الأمر المستحيل.
* إنها صُلب الدين لأنه به يقوم، وأعظم مراده لأن به تحكيمه وهو غاية النبوة.
* وإنها أسمى وسيلة لتحقيق أسمى هدف، وان نظامها – الموسوم بسمات الحاقدين في أعين الجاهلين والمغفّلين– هو نظام الحياة في كلِّ أعصارها وأمصارها، وانه شريعتها في كل أحيانها وأوطانها، وانه الكنز الذي كانت تحنُّ اليه نفوس الطامحين كأعظم منشود، وتبحث عنه في الخيالات بعد أن أيأسها منه الواقع المشهود.

لقد كان من أعجب مافعلته الروح المؤمنة الثائرة المجدِّدة العملاق عند الإمام في نهجها الجديد هو أنها صيّرت أخبث الأشياء في أعين الجاهلين والمخدوعين أطيبها، ورجسها أطهرها، وأبعدها أقربها، ومستحيلها ميسّرها، حين كانت فرية فصل الدين عن الدولة، والتنزيه الخادع للإسلام عن السياسة يستشريان ويطغيان، ويدخلان عقول الناس ونفوسهم بوساوس السلاطين ووعّاظهم، وإعلام المجرمين وتضليلهم، حتى صارا دينا يدان به، وعقيدة تمتلئ بها القلوب ينزَّه بها الدين ويعظَّم، ويحمى من شرّ الضلالات والبدع والانحرافات، ويصان صونا لازما كصون الفريضة من مستحدثات الفتن والأباطيل ترأستها ضلالة السياسة التي أُريد إدخالها الى الدين الحنيف، تهتك بها حرماته، وتحصد مقدساته لتُداس دوس الحصيد،

وتُذرى ذروه!!

ومشت هذه الشبهة الرعناء وغيرها أسرع المشي وأقواه، وأكثره تأثيرا ووقعا، قد تألّب الأشرار والأغرار على معاضدتها ومظاهرتها حتى قرارها المطلوب لأن فيها غاية المرغوب، أن يظلّ الإسلام وراء الحجب الساترة لا تبدر منه للواقع أية بادرة، فلا يعود ذلك المارد المهول الذي أخذ عليهم أقطار الأرض وآفاق السماء، فطبَّق حكمه الإلٰهي الواقع كله، وعمت حضارته الأسمى شرق الأرض وغربها، حيث ماتت الضلالات، وانجحرت العمايات، وخنس الباطل المستشري، وانكعم الشيطان الغوي. في مثل هذا الركام الهائل الذي دفن القلوب في أحشائه لتلك الشبهة، ومشى الواقع عبر الأجيال المتمادية كما تحبّ، دينا معزولا في زوايا المساجد والبيوت لا تعرف منه إلّا الأذكار الخاوية، والعبادات الضاوية، لا يمتنع من حمايتها وأدوائها حتى الطغاة المجرمون وأذنابهم، خداعا وتضليلا وتغريرا، وقرآنا منمّقا تُزيَّن به المعابد والمنازل، ويُحمَل في الجيوب دفعا للبلايا والمنايا، واستجلابا للمحبوب والمرغوب، وتُقرَأ آياته على المرضى للشفاء، ويضعه حتى السلاطين في بروجهم وقصورهم، وتُقرأ لهم آيات منه في محافلهم ومناسباتهم وإذاعاتهم، ويعلّقه قضاتهم الجائرون على صدورهم، وينقشون آيات العدل والقسطاس المستقيم منه على موازينهم الجائرة، وسيوفهم الباترة التي راحت تقدّ رقاب أبنائه وأتباعه، وتقطّع أوصالهم، أما غير ذلك من كون القرآن دستور حياة شاهدة، ونور حضارة هادية؛ فذلك هو الضلال البعيد ويالها من ظلمات موبقة من الشبهات نبتت عليها الأجيال، وخبطت في ديماسها، وعشت في عماياتها، وشربت من مائها الآسن، وأكلت من مرعاها الوبيل، فشبَّ جسمها عليها وشاب، لا تعرف غيرها، ولا تدري سواها. في كلّ هذا يطلع ذلك الثائر المحمدي بصوت مقدّس صارخ مادت له الأرض، وخشعت السماء، واهتزّت العروش الظالمة، وخُلِعت الأفئدة المتجبّرة، وهفت إليه القلوب المحروبة المستضعفة، وحفدت نحوه لتعانقه وتشدّ على يديه،

وتبايعه بيعة الوفاء الوتر لا مثيل لها، وتعاهده عهد الصادقين على التضحية لا شفع له.

وكان من آثار ذلك الخط؛ ذلك التحرك الواسع في العلن والخفاء لإعادة تجربته في أماكن اخرى غير ايران من دنيا العالم الاسلامي، وانطلقت لذلك التحرك صرخات مدوّية تنادي بدولة الإسلام، وحكم الشريعة، وتنظيم مسار الواقع على هدي السماء كالذي فعلته ايران الإسلام بقيادة الإمام.

وكان من آثاره الحسان حقيقة البيعة والولاء لإمام الخط الوضاء لما صنع فحيّر، وأبدع بما دبّر، فقد بايعته جموع المسلمين وكوادرها المخلصة إماما لها، وارتضته قائدا لمسيرتها، وعاهدته على الانقياد والتسليم لأنه القائد الرسالي العظيم، ورأت فيه رافع اللّواء الذي تجب له الطاعة والولاء، وإنك لتراها في كل مكان من هذا العالم تلهج بذكره كأنّه وِرد من أورادها، وترفع صوره على مرأى من الزعامات الزائفة وأسيادها. لا تخشى في ذلك غوائل الجفاة الطغام، فانها البيعة الصادقة للولي الإمام.

وبقدر هذا الوداد لرائد الخط كان الوداد لما خلقه فسوّاه ونفخ فيه من روح هداه... ثورته العصماء ودولته الغرّاء، فها هي أُمّة الإسلام حيث كانت ولو تحت أثقال الكبت والصمت والوعيد والتهديد. تعبّر عن صادق الولاء والثناء بأروع لون من التعبير، وهي تمشي على طريق حبّها الكبير لاتحور ولاتخور، وتفعل فعل الألسنة والأيدي والضمائر في حسن التأسّي بها، وتسعى جهدها أن تحيي ذكرهما إن منعتها العوائق أن تجدِّد تجربتها وتمشي من بركات هذا النهج شعاراته الرافعة كأنّها الشموس الطالعة، تعرِّف الأُمّة بحقيقة الأهداف النبيلة، وسموِّ الغايات الجليلة، وواقع الرفض والصمود، وموجبات البلاء الشرود، وتزوِّدها من الفكر الأصيل من صحائفها النبوية مايغذِّيها بزاد من الفكر يغنيها عن فتات الموائد لحماقات الجاهلين، وتصرف عنها الظمأ الى الماء الآسن في حياض المفسدين.

ولا تعجب فليس نكرا أن تسمع تلك الشعارات الثائرة تهتف بها تلك الحناجر الهادرة، من هنا وهناك في أرض الإسلام لأنها شعارات خط الإمام.

وهلمّ من مواقف الخط وآثاره ذلك الامر العجاب الذي صُعِقت به القلوب والألباب، أمرا لم تعرف له الدنيا نظيرا، ولم تر مثله أمرا وترا مثيرا، عرفت به أُمّة الإسلام قائدها ورائدها وحامي كرامتها، والذابّ عنها وعن حرمات دينها ورسالتها، وعرف به المستكبرون عدوّهم أشرس عدوٍّ يكابدون عداءه علقما يتمزّزون كؤوسه أنفاسا، وحميا يشربونه فيقطّع أحشاءهم. قد رأى العداء للطغاة والجبابرة فرض دينه كصلاته، فهو في محراب العبادة الثائرة الرافضة يتقرّب بها الى ربّه، بل رآه أصل دينه يجسِّد حقيقة التوحيد، فهو عبد ربِّه لا عبد الطواغيت، وربُّه العظيم هو مولاه لا الأسياد والمستكبرون، وأسمى فروضه اليوم وألزمها نبذ هذا الشرك الجديد وحربه، والكفر بأصنامه وتحطيمها، وكشفها للناس، وإزاحة الستار عن دعاتها وعبّادها والراكعين لها في محاريب الذلّة والخنوع. هذا موقف الإمام في قضية (سلمان رشدي) حين نجمت فأُهين بها الدين دأب كفر عالمي حاقد يشن الغارة الهوجاء على الصحوة الإسلامية الصاعدة، فسكت أزاءها العملاء والأذناب، وخاف من عدا الصمت أمامها أدعياء الإسلام والحفاظ على حرماته، والدفاع عن مقدّساته. لكن الأُمة المسلمة هبّت كأسد هصور أُهين في عرينه المقدّس، يقودها إمامها الذي ملئ قلبه الرسالي بحبِّ الله ورسوله ودينه كأعظم مايكون الحب وأصفاه وأنقاه، ونبتت مشاعره وشبّت وفتيت على الهدى والاستقامة والرشاد، ودواعيها من الصمود والصلابة والعناد، وذابت روحه في الرسالة ذوب التقديس والإجلال والإعظام، فأنّى لذلك الصبِّ المعنَّى بربّه وهداه أن يقرّ على سبّه وأذاه؟، وأنّى لذلك المحمّدي المتين أن يهدأ، ومحمد قد أُهين؟، **وأنّى لذلك** الرسالي الكريم أن يطعم الكرى ودينه قد باء بالكرب العظيم؟!

ويقولها صاخّة تصمُّ سمع الرعد القاصف، هادرة متفجِّرة تفزع البراكين، ليسمعها الطغاة المستكبرون، والكافرون الحاقدون، نذير بلاء ليس له مثيل، ومكربة قاصمة هي الهول المهول، إن هم عادوا الى إصلات هذه السيوف الغادرة، وشنِّ مثل هذه الحرب الفاجرة.

وتسمعها آيات الشيطان ووسواسها، قد نفث بها للغواية خنّاسها... حفيد سيف بن عمرو وآياته العلى، التي بها شفاعة الظالمين تُرتجى، ليعرف أن مناوأة الحقّ والإسلام شيء ليس بعده إلّا الموت الزؤام، وأنَّ منابذة الرسول المصطفى، داهية تقول له عليك يا سلمان العفا، فهذا الخميني حفيد النبوَّة ووارثها وحاميها، قد أرهف البتّار يفري به قلوب أعاديها، ولو كانوا جبابرة العالمين أو أُجراءهم، أو كانوا ذوي النفاق الخادع وأشباههم.

وتسمع الصرخة العظمى كلُّ الدنيا فتمور مورا من فزعها، وتفور فورا من هلعها، ويسرع المفسدون فيها الى الاعتذار وفيه من روح الهزيمة ما فيه، وقد صكّت أسماعهم تلك الصرخة الخمينية تردِّدها حناجر المسلمين المقيمين في بلادهم، يفهمون من ذلك أن الخميني هو وليُّ المسلمين، وأنهم أتباعه المخلصون المطيعون، يمشون على خطه لايحيدون، ويستنيرون بهداه حيث كانوا لا يحفلون ولا يخشون.

ويبادر كثير من الأصحاب والأذناب الى منع ذلك الكتاب، وحسبك هذا شاهدا على الضعف البادي أمام عزمة الإسلام تفجّرت من قلب الإمام، بل تبادر الصين الملحدة الى حظر كتاب وهَن المسلمين وأهانهم تخشى غائلة ذلك الهول الذي كانت بعض آيات فعله وتأثيره مع رشدي وأسياده. فأي نصر كان هو للحق والهدى ذلك الموقف الخميني الجبار المنهدُّ من عزة الجبروت!، وأيُّ إعزاز للدين الحنيف كانت تلك الفتوى التي لم يشهد لها الكفر الحاقد نظيرا من البلوى. فللّه أنت يارافع راية الهدى الوضّاء، تنشر أنواره وتذود عن حماه، يامن أقام الدنيا ولم يقعدها لكرامة الإسلام العظيم ونبيِّه الكريم، يا صاحب الفتوى التي

كانت لوحدها ثورة... أسمى ثورة، وُصمت بها الردّة الحاقدة وأسيادها المتجبِّرين بوصمة الذلّ والفناء، يا من هو وحده عرّى الزيف في رهج الأدعياء والمخادعين، وكانت وقفاته العملاق الفيصل الكشّاف لحقائق المخلصين والمخاتلين.

ولله أنت يا ذلك القلب الخميني الذي صُنِع على عين التسديد وهداه، فلم تزل الفتوّة تطفح من حناياه، قد أوشكت أن تقاربه التسعون، فلكأنّها من فتوّة الإيمان أربعون، يصول بها الله صيال الرجال، ويذبُّ بها عن حمى الاسلام ذبَّ الأبطال، لا يعيى وقد عيَّت الزعازع الغضوب بالنطاح، ولايني وقد ونت الجبال الراسيات في فورة الجماح، لا يضيق فيسأم ويستكين، ولا يتبرَّم فينحني ويلين.

ولقد انقسم الناس في الخط حين طلع عليهم بوجهه الظافر ودولته المنتصرة الى طوائف ثلاث:

طائفة هلّلت واستبشرت، ووجدت فيه غاية أُنسها وبهجتها لأنه غاية مطلوبها ومرغوبها، وهو قد نبت في قلبها، وارتوى من دمها، ومشى بأثقاله الباهظة على أكتافها، وطائفة هلعت وفزعت، وصرخت بالويل والثبور وعظائم الأُمور، لأنها عدوه اللّدود الذي لم يزل يقارعه ويثاوره حتى لان مستخذيا، وذلّ مقهورا حين غلب الحقُّ الباطل، وبدَّدت الحقيقة ذلك الزبد فولّى، وبقي ماينفع الناس في الأرض يورق في مفاوزها الخاوية ربوع الخير، ويعشب بيدها الجرداء بالبركة والعطاء. وطائفة أُخرى توقفت في الخط لا هي له لأنها لم تفهم محاسنه الفاتنات ولم تع آياته البيِّنات، ولا هي عليه لأنها لم تر منه مايؤزُّها على عدائه، وحربه، أو يؤلّبها على سبِّه وعيبه، سوى ما حام حوله من شبهات تسمعها فلا تصدّقها ولا تكذّبها، وهي تتربَّص وتترقَّب مؤمَّلة أن يُتاح لها من الألطاف ما يعرّفها على الحقيقة ليمتلئ بها صدرها، وتدبّر على ضوئها — إن استطاعت — أمرها.

وأدت عوامل ثلاثة الى أن تنمحي أو تكاد هذه الطائفة من وجود

الموقف من هذا الخط لتبقى الطائفتان الوالهة والقالية تصطرعان في الحبِّ والعداء. فكان منها سعي كلٍّ من الطائفتين الى كسب فريق من المتوقِّفين إليها، ببيان الدليل القاطع، أو بمكر الشبهات والتضليل، وكانت حقائق الخط التي أشرقت من فجر الفضائل والمحامد التي هي روحه، ومن أُفق المواقف الباهرة التي جسَّدها في الواقع العظيم في جهاده، وصموده، ووفائه للأُمة، وحرصه على الإسلام، وطلبه لخير المسلمين والمحرومين.

وكان ظهور الوجوه على حقائقها لأعدائه وأوليائه حيث استبان أن الطغاة والمجرمين والملحدين وأعداء دين الأُمة من الجبابرة والظلمة هم أعداؤه، وأن المستضعفين من المؤمنين وعباد الله المخلصين وكلّ المحرومين هم أولياؤه. وقد أعانت مواقف الطائفتين ــ الجاهرة أو المستورة ــ على أن يفهم أكثر المتوقِّفين حقيقة المحبّين والمبغضين، فاستعانوا بهدي (ان الأشياء تُعرَف من أضدادها) و(ان الطيور تقع على أشكالها) ليستبصروا بعد وقفتهم في دجى الحيرة وظلامها.

وسعت طائفة الحقد سعيها بشتى السبل الملتوية أن تحطَّ من شأن ذلك الخط، وتحدَّ من انتشاره، بعد أن يئست من هلكه وبواره، فكان شرُّ سعيها ــ قبل حرب السلاح والنطاح وبعدها، ومصاولة الإعلام والكلام ــ حرب الشبهات والإفتراءات، والأكاذيب الباطلة، والأراجيف القاتلة على نهج حرب نفسيَّة دونها ألف مرة حرب النصال، وصيال أعصاب لا يناظره صيال يقدُّ الرقاب، حيث تعتكر على الأُمة بالشبهات ليالي الحيرة في أمرها، وتتدجّى حولها الظلمات الرعناء، تصرفها عن سواء السبيل في سيرها، فاذا هي ترتاب من وساوس الخنّاسين، وتشكُّ مما نفثته في صدرها سموم الشياطين، وإذا هي تكفُّ يد النصرة بعد أن بسطتها، وتوقف قدم السعي بعد أن حرّكتها، وتطوي راية البذل والفداء بعد أن نشرتها، ثم لا تلبث ــ إذا هي مشت في عروقها سكرة الشبهات بآفاتها وآلامها، وسرت في أنحائها آفة التخذيل بأسقامها ــ أن تعود الأُمة ــ الناصبة المعادية لما كانت له محبَّة

موالية — تنصب له العداء والبغضاء، وتسومه سوم الأعداء الألدّاء، تقصده بكل معبل، وتنشد له أسوأ مقتل.

ولقد رأى الظالمون المستكبرون كم كان لهم بحرب الشبهات ومكرها في كل دار صريع، وفي كل أرض فجيع، وكم قلبوا بتيّارها الهادر أوضاع الدول، وأزاحوا بإعصارها القاصف ماكان راسخا رسوخ القلل، وكم غيَّروا بقدرتها الأُمور والأحوال، وبدّلوا ماكان شأنه في الثبات شأن الجبال.

ولقد كانت ثمَّة وسائل للدفاع، دفاع نهج الإمام عن نفسه في هذا الصراع العوان مع الشبهات والبهتان، وكان أوّلها وأهمُّها وضوح ذلك الخط وصدقه، وما طلع به لهذين من آياتها السامية، ودلائلها العالية. وكانت الحقائق الرفيعة لهذا الخط في مسيرته أقوى الروادع لتلك الشبهات القوارع، وكان وعي الأُمة بنهجها، ومعرفتها بإمامها، وبيِّنتها من مسيرها، وبصيرتها بثورتها، ومكائد أعدائها. كلُّ ذلك جعلها في الحصن الحريز من تأثير تلك السهام التي أُريد أن تصيب المقتل في حبِّ الأُمة لثورتها وإمامها، أو تنال من الولاء وعزمة الفداء، تصيب بذلك بعض ما تشتهي لهذا النهج من البلاء، نكالا لما كان منه وما هو كائن، من سبِّ الآلهة الجديدة (القدرات العظمى) ولعن شرائع الحماقات الصنميَّة لجاهليَّة القرن العشرين، وقطع أيدي الظالمين عن ثروات المستضعفين، وتحكيم هؤلاء في مقدَّراتهم ومصالحهم، وتقرير مصيرهم بأنفسهم. وكان حبُّ الأُمة وولاؤها لإمامها ونهجه، وثورتها ودولتها، حجابا مستورا وباديا، يصدُّ عنها عاديات المكائد والشبهات، ويحوز قلبها كلَّه إليه فلا يأذن بشيء من أسباب البغض والكراهية أن تصيب لها حظا فيه، فبقي الحبُّ سليما واريا، وظل الولاء نقيّا صافيا، وبقي نهج الإمام في نفس الأُمة معشوقها الذي صبَّت به وهامت هيامها المشهود، وحبيبها الذي أحبَّته دون من سواه في الوجود.

وكان الإعلام الإسلامي الصادق لنهج الإمام في بيان ظلامته، والدفاع عن حرمته، وكبح جماح الأضاليل، وردع سورة الأكاذيب، وفضح

زيف المدَّعيات، وبيان الحقائق الجليَّة في دوافع العداء، وإقامة البراهين القاطعة تطعن البراهين الملفّقة. وكان ذلك الإعلام بكل وسائله وسبله، لسان الأُمة المحبَّة في كلِّ مكان، والقلم المرهف كحدِّ السنان، والكلم الرفيع يبدِّد الزبد الوضيع. كان موفَّقا في دفاعه وذبِّه عن الحرمات، منتصرا ظافرا في حربه مع الشبهات. وجاءت قبل هذا وبعده المواقف العليَّة بحقائقها القويَّة الجليَّة، تدمغ الباطل فاذا هو زاهق، وتتنزَّل من سماء الحقّانية بمثل الصواعق، تحرق الأكاذيب الباطلة، وتمحق الأراجيف الماحلة.

حق الإمام والثورة على المسلمين

لثورة الإسلام ونهج الإمام واجب على الأمة هو في الواجبات أعلاها وأسناها، ولهما حقٌّ هو في حقوقهما عليها أسماها وأبهاها، واجب وحق يفرضهما عليها الإيمان والقرآن والعقل والوجدان، ودور الأُمة الشاهدة في هذه الحياة، وشأنها في حرب الجناة، وردّ الطغاة. فإن هي ضيّعت الفرض الأقدس، وسامته النكران، ونبذت حفظ الحقِّ الأعظم وراءها ظهريّا وباءت منها بالنسيان خانت بذلك دينها وقضيّتها، وألقت حملها الكبير لرسالتها، ومشت في الحياة مع الماشين سواها، غير هادفة ولا عارفة ولا شاهدة، تطويها صروف هذه الدنيا الفاسدة، تجتالها عن عظائم الأُمور وجلائلها، وتعرج بها بمن عرجت بهم من أراذلها وأسافلها، على التوافه الدانية الوضيعة، والمناقص المزرية الشنيعة.

لنهج الإمام وثورته على شعبه وأُمته، وعلى كلِّ أُمَّة الإيمان في كلِّ مكان، حق المعرفة بها، والدراية بشأنها، فبهذين تعرف الحقيقة الجليَّة للثورة الغرَّاء ونهجها الوضّاء، وبعرفان تلك الحقيقة تُعرَف الوظيفة أزاءها، والفريضة تجاهها، وبها يُحمى حماهما، من كلِّ ما فيه أذاهما، من الأقاويل الباطلة، والحماقات الجاهلة، فيبقيان في الأُمة كالطود الأرفع الأشم، من نابذه وناطحه تحطَّم، أوعاد بالخيبة والضلال عن الرغيب، يندب حظَّه الخاسر التريب. واذا كانت المعرفة بالحبيب مستثار حبِّه، واللهوف اليه، وحياطته بالبذل والتضحية، فلتكن معرفة الأُمّة بأسمى شأن من شؤونها في عصرها وأقدس فرض من فروضها في دهرها، منبع الحبِّ والعرفان لنهج

الحق والإيمان، نهج الإمام الثائر وقيامه الفذّ الظافر، وسبيله المهيع المستقيم، الى ربِّه العظيم. ولا ينبغي بل لا يصحُّ معرفة الثورة ونهج الإمام إلّا من مصادرهما وحقائقها، لا من مصادر الأعداء وشبهات الخصماء، وذلك حقُّ المعرفة الصحيحة، وفرضها بمنطق العقل السليم.

الايمان يفرض على الأُمة — بعد معرفته بالدليل والبرهان ومابه يسكن الضمير والوجدان— معرفة ثورته الهادرة، تدلُّ على معالمه الزاهرة، فهي صولته الجسور، وقضاؤه المبرم المحذور، والقرآن العظيم يعظِّم ذلك الحقَّ في نفوس أبنائه وأحبّائه بعظيم حق القيام على المنكر والأمر بالمعروف، والكفر بالطاغوت وردع الضلال، ومتابعة الأولياء، وطاعة أُولي الأمر، ومنابذة المفسدين، وتحكيم شريعة الإسلام، وبسط ظلِّها على الأنام.

ونهج الإمام — في مناهج الضلال القائمة— هو نهج الله وطريق هداه، يدعو الى ربِّه، ونصرة دينه، وتطبيق نظامه، وإحياء مجد الإسلام، وإعادة شأنه، يدلُّ الناس على الهدى والرشاد، ويأخذ بأيديهم على سبيل السداد، فما أجدره بنصرة المؤمنين، ومعاضدة الصالحين، ومظاهرة العارفين بربِّهم ورسالتهم ودورهم.

وحكم العقل السليم، قبل إرشاد الدين العظيم، يلزم بالخير والصلاح، واللهوف الى المطلع الوضّاح، لبهجة الاصباح، يهتف بمن أحبُّوا الخير أن يهطعوا إليه، وينادي بمن ظفروا به أن يحرصوا عليه، فليس بعد الخير في الحياة إلّا شرُّها المستطير، يصلى به أهلها عذاب السعير، في الخطب العسير.

وأيُّ نهج — كنهج الإمام— دعا الناس الى الخير بلسانه، وسعى الى ما دعاهم اليه بأركانه، وأعطى لما سعى اليه من سحاب العطاء الهتّان، مايفوق الوصف والبيان، وبإلزام العقل تكون السبيل الى الواجب المبين — وهو حفظ الدين ونهج خير المرسلين— واجبة وجوب الغاية التي تدلُّ عليها، مقدّسة قداسة النهاية التي تنتهي إليها، وليس في حياتنا الغويّة

الهامدة؛ إلّا تلك السبيل الرائدة الراشدة ، سبيل الإمام العظيم، ونهجه القويم، همُّه النصرة العظمى للرسالة الأسمى. ودور الأُمَّة في حياتها بفرض رسالتها، دور الشهادة على الأُمم والريادة لها بالهدى والصلاح يفرض عليها أن تسلك هذا المنهج الخميني الذي يسير سيرا سجحا حافدا الى ذلك الدور، داعيا إليه أصدق الدعاء، مناديا بإعادته الى الوجود أرفع النداء، فمن شذَّ عنه من المسلمين فقد شذَّ عن هداه ونهاه، ومن نأى عنه فقد نأى عن دوره الإلهي في الحياة. وما هو فرض على الأُمة لنهج الامام والثورة واجب التطلُّع فيها تطلُّع المؤمن بالمرآة الصافية يرى فيها محاسن هيئته ومعايبها، ليرى في مرآة النهج مناقص مسيرته ومكارمها، ومثالب واقعه ومحامده، وليكون له بتلك المتابعة والملاحقة لشؤون النهج والثورة؛ ذلك الانشداد والارتباط الفرض بركبها، وهو دون غاية المطلوب من الانمياث فيها، والذوبان في تيّارهما، ليكون قطرة من قطرات نميرهما العذب، همُّه أن يطفئ غلَّة الأرض الصادية الى أهنأ الشراب (هداية غرّاء) ومسيرة عصماء، على نهج السماء.

وأن يستمع المسلمون لرائد المنهج، من فيضه ينهلون ويرتوون، وبسداده يرشدون ويعتصمون، وبأحكامه ومعارفه يعملون ويهتدون، وبأنواره يستضيئون ويستصبحون؛ لهو فرض كبير على الأُمة للنهج، تفرضه لوازم الطاعة والانقياد، ودواعي الرشد و السداد، ومعرفة معالم المسير الصاعد الى ذرى العلياء، في جمحان الأتون المتلظّي من الظلم والعداء.

ومن فروض النهج على الأُمة كلِّها أن تتفهَّم أهدافه وغاياته، وأن تعمِّق النظر النزيه الفاحص في كلِّ خطوة من خطواته، وأن تتدبَّر في حقيقة الإصرار العجاب، الذي أذهل به النفوس والألباب، وأن تطيل الوقوف عند التضحيات الجسيمة، ومواقف الفداء والبذل العظيمة، لتعرف من ذلك كلِّه الحقيقة كلَّها، حيث ترى سموَّ الأهداف والغايات وانها لأهداف ربِّ العالمين ونبيِّه الأمين، وتبصر نزاهة ونبل تلك الخطوات الغرّاء، تفتفي خطى سيد الأنبياء، وأصحابه الأولياء، وتشاهد عظمة ذلك الإصرارالله على

طريق الهدى، وشموخ تلك التضحيات لدينه ذي الندى.

وهذا من المعارف بهذا النهج أولاها بالاهتمام. لانه أوفرها حظا من قدرة الفيض والالهام، يضيئ بسنائه الطريق الى رؤية النهج في سدف الوساوس، ويجلو أمام عين البصيرة ما كثّفته الشبهات من الحنادس، فاذا هو نهج مضيئ زاهر عاطر، بهيٌّ باسم باهر، عليه من جلال الإسلام العظيم أسمى جلال، وفيه من خصاله الزهراء أسمى خصال. تتجلّى فيه المبدئية الشمّاء والأصالة العصماء، وعمق الارتباط بنهج السماء، تجلّيا تخشع له قلوب المدركين، وتنساب في قدسه ذوبا نفوس العارفين من ذا الذي يبصر في أهداف النهج ورائده وغاياته ما قد سبق بيانه فلا يدرك الحقَّ اللّألاء؟.

ومن ذا الذي يرى في المتبنى للمنهج من تلك الغايات، والمبذول للسعي اليه أغلى التضحيات — أوبة مجد الإسلام وسيادته، ودور الأُمَّة الشاهدة، والاستقلال بالبلاد والعباد، ومناوأة الطغاة والمستكبرين، وهيمنة الأُمة ورسالتها على واقعها وتقريرها هي لمصيرها، وإرجاع الأرض الغصيبة الى أهلها وتحرير فلسطين، وشدّ عرى الأُخوّة وأواصر الحب في الله والإسلام بين صفوف أُمّته التي مزّقها المستكبرون شرَّ ممزَّق، والدفاع عن المسلمين في كل الأرجاء، وإغاثة المحرومين في شتّى الأنحاء— من ذا الذي يرى هذا في قاموس النهج وجهوده ومساعيه وتضحياته، ثم لا يقول إنه النهج الذي يجدِّد الإسلام الأصيل، ويبعث روحه المشرقة في عصر الأُفول، حيث غربت الفضائل فإذا الدنيا تمور في حمأة الرذائل، وأفلت فيها أنوار المحامد فهي تعمه في دياجي المفاسد، تخبط خبط نافرة شموس حرون، تذوق للتيه والعصاب والقلق مثل طعم المنون.

وكم هو عظيم في فروض الدين على الأُمة لثورة الإسلام ورائدها الإمام، فرض التبشير بها طريقا للخلاص بعد أن بشَّر المبشِّرون بما عداهما فجاءوا بالبلاء الشديد، ووعدوا بالنجاة فيما بشَّروا فأوقعوا في الدمار المبيد. ومن لوازم التبشير بذلك الدفاع عنها لتكون أمّتها هي وسيلة الإعلام الممتدَّة

الواسعة المنتشرة الضاربة في كلِّ أوساط الحياة وأعماقها، وعلى كلِّ مستوياتها. تدعو إليها دعاء المحبِّ الرفيق، وتدافع عنها دفاع الحريص الشفيق، بالحكمة والحسنى والكلمة الطيبة، والخلق الرفيع، والسلوك المتزكّي، والعمل المرضي، وبالقوة إن كانت هي الميسم، وبالقدرة إن لم يُجدِ غيرها من مرهم.

ولذلك النهج – نهج الإمام وثورته– على امته من حقوقه أن لاتسمع فيه عيب العائبين، ولا تصغي لنعق الناعقين، ولا تقرأ لهم ما يسطرون، ولا تنظر فيا ينشرون، ترى في مجالسهم مجالس اللّهو الحرام، وفي كتبهم الزائفة كتب الضلال، إلّا عارفوها المبصرون والمدركون الواعون، يحضرون للذبِّ والدفاع، ويقرأون للردّ والتفنيد ومعرفة أساليب الظالمين في حرب الإمام والثورة، وبذلك تأمن الأُمة من بوائق الأكاذيب، ووضع الكذّابين، ويبقى نهجها في نفسها على صفائه المكين.

ومما هو حقُّ الثورة وقائدها على الأُمة ينفعها خير النفع في معرفتها ويأخذها من أيسر الطريق الى رؤيتها على حقيقتها، حقيقة الأصالة والحقانية وروح العلقة الإلهيّة، فما هما بالدخيلين، ولا المنحولين، ولا الدعيّين، وليسهما من الباطل في شيء، ولا للباطل فيها نصيب. وليسهما بفرية الأرض على السماء، أو تقوُّلا عليها، قد أُلحِقا بها إلحاق الدعيِّ بل هما شنجة من بدنها، ونفحة من روحها، ذلك الامر النافع خير النفع هو معرفة الضدّ، ولله هذه المعرفة ما أجداها وأعلاها وأكثر خيرها! . لو امتلأ بها ذهن الأُمة امتلأ بالعلم الكثير، يدلُّها دلالة المرشد البصير، ولو فاضت ألطافها في ضميرها وشعورها فانفعلت بها وتفاعلت معها، ألفت بذلك هداها وسعودها وعزّتها وصعودها. وحين تبصر الأُمة في معرفة الضدِّ ألدَّ أعدائها وخصماء رسالتها وحسّاد مجدها و دورها، والطالبين لها الجاهدين فيا يطلبون حال المذلّة والهوان، والتبعية والخلوَّ جسدا هامدا من روح الرسالة، ودم العقيدة، وعزمة الأوبة الى ذلك المجد، مجد العنفوان الثائر على

سبيل الله، ودور الشهادة والريادة– حين تلفي في معرفتها تلك القوى الكبرى المتجبِّرة بغيِّها وطغيانها، وترى الصهيونية النابتة حربتها في أحشائها بما تكنُّه لها وتظهره من فورة العداء القديم، وما تضمره في آحنائها من أحلامها في تسخير وجود هذه الأُمة لصالحها، مقدَّراتها، ثرواتها، طاقاتها.

وحين ترى أذناب ذينك العدوّين من الأزلام والفاسدين والغاوين الذين باعوا أنفسهم وحرمة بلادهم وكرامة أُمتهم، بالثمن البخس، توافه الحطام من المال والكرسي والسمعة، في ذلَّة وصغار، وهلك وبوار. حين ترى كلَّ اولئك عدوَّ ثورتها وإمامها، يجيش في صدورهم مرجل العداء يسعرهم فيجمحون في درب المعاداة الظالمة يقصدونها بكل ألوانها وفنونها، ويؤزُّهم الحقد الأعمى فينتفضون وحشا كاسراً يهمّ بها أبشع الهم– سترى اين موقع الثورة والامام في مقاوم الصدق والحق، ومدارج العزِّ والمجد، ومنازل الحسن والكمال، ودرجات الارتباط بالله ورسوله، وحقيقة الانبعاث المهيب من روح الرسالة وقلبها، والسير الصادق الجاهد الى استخراج ذلك الأمل الكبير من سجن المستحيل... عودة الإسلام الى الواقع بعد أن حكم عليه الظالمون بالحظر المؤبد.

بقي على الأُمة من فرضها لإمامها وثورتها النظر المتدبّر فيما حققاه في هذا الأمد القصير كيوم أو بعض يوم من فراغ البال من البلبال، لما ملئ من المحن والصعاب والآلام ما لم ير مقصود بالعداء سواهما مثله، بلى رأت دونه ثورات لم يسندها الغيب فبدّدها، ودول قائمة لم تعضدها السماء فأبادها.

فما الذي تحقَّق في هذه السنون المعدودة المشحونة بالأذى والكيد، المليئة بما يفوق ذلك من ألطاف الله وتأييده وبركاته. أليس هو الكثير مما أسلفنا ذكره في أهداف النهج ورائده؟ وظلَّ الخميني بإيمانه واصراره يسعى مُغذّاً صوب أهدافه المنشودة بعزم بركاني، وصلابة طودية، وانطلاق مارد لايعيى ولا يخور. ترى لو لم تتعرَّض ثورته لما رأت من البلايا الفاقرة، وما انهدَّ به جموح الغيظ، وعصفت له رياح المكر، وأحاطت بها من جهاتها

أمواج البلاء كأنَّها معها في كبد الخضم المزبد تتعاورها سوراته، وتتقاذفها لهواته. أين قد وصلت اليوم في انطلاقها الى غاياتها ورغباتها و هي غايات الإسلام ورغباته؟

حين ترى الأمة ذلك تجد فيه نبل الأهداف وسموَّها، وعظم ماتحقَّق ومحيّر أمره وفرط العزم والتصميم على بلوغ الهدف المرسوم، وان الثورة التي تحميها الأُمة المحبّة الصادقة، وترعاها المشيئة العظيمة، لهي أقوىٰ في المسير الى الغاية من أي سائر الى غايته سواها، و هي أقدر على الوصول الى ماغذَّت خطاها اليه من أي مقتدر عداها، وانها بعد ذلك فوق الانحناء في الخطب العياء، لأنها تسير الى السماء. حيث غيرها المرقلون في انحدارهم في سبل الإخلاد الى الأرض، يضعفون و ينحنون و يساومون

في رحاب العروج الملائكي

يادار سعدى لقد طال ليل الـمعمود الـمسهَّد، بجوى النوى له جمرة في الـحشا تتوقَّـد، لم تـكـتحل عـيـنه بالغـمض، ولم يـزُرْه طائر الكـرى، مـذ أصاب القلب سهم رائش لوتر أرزاء الورى، مذ جاءه خبر الرحيل وقيل له أيها الصبُّ المضام، لقد رحلت سعدى بليل ساهر لم يذق طعم الـمنام، شدَّت رحلها ليس تلوي على غير الرحيـل، كأنَّه منشودهـا الذي ليست الـى غيـره تميل. فبكى حتى ظـنَّ القفر البلقع اليباب، حين فاض فيه ماء شؤونه، أنَّه هاطل السحاب، يرنـو وماء الشـجو يغشِّـي نـاظريـه محدِّقـا في الدرب البـعيـد، وقد عصـفت في الروح ريـاح الغمِّ الشديد، فـلا يرى غير الغراب بلباسه الأسفع الشجـي، ناعبا للشؤم و الغماء والـخطب العصيِّ، فـتضطرم أحشاؤه بنار الهول للفراق الـمرير، يفيض عليها من مآقيـه من الـجمر و السعير، فإذا به وقد كان همُّه إخمادها، قد زاد غلواءَها واتِّقادها، ويقف ذاهلاً بفرط مصابه الهائل، ينـاجـي قلبه اللَّهفان حبـيبه الراحل، الـى أيـن يا سعدى الفؤاد؟ فيم أزمعـت النوى والبعاد؟ ، فيم شددت رحل الفراق الـذميم؟ وانـطـلـقت نـائية في الـلَّـيـل البهيم؟ ، لم تؤذنـي المـتيم المـتبول أو تودِّعيـه، لـكـأنَّـك أبيت إلّا أن تفجـعـيه؟ ، ماضرَّك قبل أن تخطـي خطـاك راحـلـة عـن الحـيِّ والمحـبين، أن تـودِّعـيـه بـروح الـتحـيَّـة لـلـفـراق الحـزين؟ ، وذلك قلبه غدا بـدونه جسمه كنبت أذبله المحل والجدوب، هلّا رحمت هذا المعنّى قـد بـراه الهيـام، وتـقـحَّم بـه الـعشق في الـمهـالك الـجسام، مازال في الـمحراب حلس معبد الهـوى، يماشـي النجوم المثقـلات في فحمة الدجى، قد هوى السهـاد فـعـاف طـيـب الرقاد، وحـالـف الأرق المضـنـي يسعِّـره الشوق

والوداد. ويؤوب بالخيبة محسورا يقلّب الطرف في دارها، كأنّه يراها في جنباتها وآثارها، فليتها ترى قلبه الحرّان قد أظمأت هواجره الحوازب الشداد، وفتَّ فيه فرط الأسى من قسوة الصدّ وحرِّ البعاد، تسحُّ دموعه عاصفة بالحزن كصيِّب من السماء، ويرفضُّ شجنا قطعا دامية حمرا.

ولقد عمي عن النظر اليها حين رآها فمكث مليًّا يكفكف الدمع غشى حجابه نور البصر الوهان، ووجف القلب قد عصفت به ريح زعزع للشوق تشوبها النيران، وانطلقت مقتدرة روح صبٍّ يدعوها داعي الهوى فليس لها ألّا تجيب، ويزجرها زاجر الوفاء عن الأوبة فتمضي ولا تؤوب، تعتنق طيف الحبيب قد شفَّها مبرح الوجد والهيام، عناقا عجبا لاينتظم وصفه بديع الكلام.

ويعلو نداء الفؤاد مفجوعا تسمعه واعية الجلاميد، فتميد مهدودة يصدعها خطب شديد، يقول لها أيّان يالوعة الجرح النازف يوم الوصال؟ وحتامَ ياخفقة القلب الواجف هذا البعاد كحزِّ النصال؟ أُنظري هذه الأشواق تضرى كاللَّظى تسعَّرت بين الضلوع، من مستثار اللَّهيب لم يطفئها تهتان الدموع، وهذا الهوى العذري لم يفتأ يذيب الفؤاد اللَّهيف، فيجري في العروق مذابا عاصفا له فيها دويٌّ وقصيف.

ويلحُّ النداء دؤوبا واصبا كأنَّه قد قُدَّ من كبد الشجون، فتلحُّ عليه بالهول عادية الصمت والسكون، وأزلف اليأس، ومحال لمثله أن يلج القلوب الوالهات، حتى يذيبها حرُّ الهوى في اتون الوفاء والثبات، فدافعه عن حمى الروح يذوده ببأس الصدق في المحبَّة واليقين، وقد اشتجرت رماحه عليه بطعن درّاك واصب مبين، ينازعه على مقامها في القلب فيصرخ دون ذلك جهد الأهوال، ويساوره على ودّها في الأعماق، فتهتف أن ذلك عين المحال، وظلّ لها الحبُّ شريفا طاهرا كطهر التقى، ولم تبرح النفس نقيَّة مشرقة بالهوى العذري رأد الضحى — وأنّى له نسيان ذيّاك الهيام وشأنه العجاب، وتلك العهود المقدّسات كحرمة الكتاب؟ أو تغيب عن باله ربوع العشق

التي ما أمحلت لتغدو يبابا نبتها الأحزان— ولا ذاك التتيم لاهبا لم تزل متّقدة له فورة النيران، ولا تلك معاهد الهوى وتلعابه لدى التوباد، ولا سحر وقدة الجوى، ولا طيب ذلك السهاد. وصاح وقته ونِضوه وحيرته هلمَّ الإياب الى الحي. فقال: نادوا القلب إن كان يسمع ووقر الحب في أُذنيه، ونادوا الروح إن كانت تجتمع وقد ذهبت شعاعا من فرط حبٍّ راحت تحترق فيه، أو ترحلون ويبقى القلب في قرن الحبِّ مرتهنا الى مزار الحبيب، قد أوهقته عنيدة شراك العشق العجيب، يعبُّ من تياره صاب المرارات يحسبها السلافة العصماء، ويتشمم نتن العذاب يخاله أريج الروضة الغنّاء، وتلفحه نار السموم فكأنَّه في جنة النعيم، هو في بحبوحتها مقيم.

* * *

ربّاه ماذا أرى! أفي عالم الحقيقة هذا المشهد الجسيم؟ أم هو الخيال البائس الذميم؟ أهو الواقع العلقمي المؤلم كأنَّه فاض من معين الصابِ والأوجاع؟ أم هي أضغاث أحلام صنعة [illegible]م المضطرب المرتاع؟

هل أصدِّق عيني فيما ترى وقلبي يقول لها لقد أخطأت فيما ترين؟ أم أُكذِّب النفس التي راحت تستغشي الوهم حتى لا ترى مايطلع به عليها الواقع، وتملأ اذنيها بالوقر عسى أن لا تسمع صيحة النبأ وواعية الخطب؟ وان كذَّبتها فمن بعدها أولى منها بالتصديق؟ وإن كانت تهرب من الحقيقة الحنظلية؛ فهي إنّما تريد أن تريحني من وقع الألم المرير ولا تفجعني بحقيقة الرُّزء العسير.

يا إلهي لمن هذا الجثمان حفَّت به القلوب، وحامت حوله النفوس وتسمّرت به العيون، وانفصلت الأرواح عن أبدانها لتعتنقه اعتناقا ليس له مثيل فيما قرأنا في التاريخ أو سمعنا منه؟

يارب ماهذا العشق الوتر الذي لم يخامر عقول الشعراء ولا خواطرهم لتتفتَّق قرائحهم في التعبير عنه بالبيان البديع والوصف الرفيع... عشق الأُمة لرجل من رجالها ذابت في حبِّه ذوبا، وانماثت في هواه انمياثا، وهامت فيه

صبابة وولها، وأرته في حياته من معاني العشق ما لم يخطر ببال عاشق، ولم يكن في واقع متيّم، ولم تحكه الحقائق أو الأساطير في نظير له من صور الهوى الغلّاب صنعة الخيال النافذ أو الحقيقة. وها هي تريد — وهو في أرقى درجة للعشق درجة التجرُّد للهوى والتمحُّض للحبِّ، والفراغ من هواجس الطين الخنّاس قد تحدُّ بحبسها وحدودها الضيِّقة من قدرة الروح الهائمة على التحليق في سماوات الحبِّ — أن تذيب هذا الحبس الترابي لتهيم مثله في سبحات الهيام حيث الصبابة الصافية بلا شوب، وحيث الغرام النقي بلا كدر، وحيث الوله الزكي الملائكي في عالم الطهر والصفاء والنقاء.

ربّاه ماذا أرى! في أي فصل من فصول الدهر رأت عينه هذا اللّون من القداسة والمجد راحت فيها الأُمة المقدّسة الممجَّدة تطلع على الدنيا تحيِّرها وتسلبها عقلها بصور التقديس والتمجيد لقائدها ووليِّ أمرها؟ في أيِّ حقبة من حقب الزمان تجسَّد الوفاء والولاء من أُمّة لرائدها هذا التجسُّد الذي لم يبلغ كنهه سعي الفطنة، ولم يسبق لعين إنسيٍّ أن رأته في عالم الناس ولا لأُذنه أن سمعت به؟

يا إلهي! ما الذي يوشك أن يذيب قلوب الأُمّة في صدورها لفراق زعيمها، غير الحبِّ المقدس، والهوى العلويِّ، والصبابة الإلهية، والودِّ السمائي المفروض لأهل السماء تغرسه لهم في النفوس وتسقيه من العروق، وتمدُّ فروعه في أنحاء العاشقين ليعودوا به شجرة العشق أغصانها الهوى، وورقها الهيام وطلعها الوفاء بلا مثيل، ووردها الصبابة الوتر؟

يارب! فيمَ هذا السهر العاشق الولهان في ظلال الجثمان؟!
فيمَ هذا الأرق الصبُّ في نجاء الحبيب المسجّى؟
فيمَ هذه اللّوعة التي ما تضمَّنها صدر الزمان من كلِّ فجائعه؟
فيمَ هذه الزفرة الضارمة التي ماعرفت حرارتها نيران الدهور؟
فيمَ هذا الألم الثائر الذي وجفت له قلوب البراكين؟
فيمَ هذا التقديس لهذا الجسد الراقد كأنّه مجمع المقدّسات؟

لَمَ هذه العهود – تخلقها القلوب الخاشعة، وتسوِّيها الضمائر الحيَّة، وتطهِّرها من شوب الوهن والكذب؛ الدموع الساجمة الطهور– على الوفاء الصادق صدق هذه الآهات والحسرات، والمسير على الخط المقدَّس مسير الأولياء الأوفياء على خط الأنبياء؟

هل هو الندم على التقصير في حقِّ ذلك الحبيب وهو لم يَرَمنكِ إلّا غاية الولاء والوفاء، قد ذكره أروع الذكر، وصاغه بأرفع التعبير؟

أم هو الخوف من خلق الأوَّلين وسننهم مع عظمائهم الأصفياء حين نقضوا وخاسوا؟ فياليتهم لم يكونوا إلّا فيك يا أُمة العشق والوداد والصدق لكأنَّك تريدين بما تجسِّدين من هذه المثل السامية أن ترحضي العار من صفحات التاريخ، سوّدت به وجهه أجيال الغدر والخيانة.

فيمَ أنت مبهوتة جامدة كأنَّك قد صُعِقت بالنبأ الفادح صعقة الموت؟!

أهدَّك هدّا أن تري قاهر الموت قد لُفَّ في الأكفان؟

هل أخذ بمجامع قلبك أن تري مزلزل الدنيا قد أمسى ساكنا بلا حراك؟

هل أجَّج الأسى في أحشائك أن تبصري خالع القلوب بعزمات قلبه الجسور؛ قد غدا قلبه جامدا بلا خفقان؟

هل فجعك بالرزء الأعظم أن تري من أخذ على الناس آفاق السماء وأقطار الأرض حتى عاد شغلهم الشاغل قد غدا وليس له من الأرض إلّا قيد قدّه؟

هل أصمى فؤادك الشريف أن تري تلك الآمال العريضة المقدَّسة النبيلة لله وفي الله قد جمدت في القلب العظيم لم يرَ وجهها الباسم يطلع عليه من أُفق التحقُّق المنير؟

هل صهر نفسك في مصهر الأسى ماترينه من الجسد المسجَّى لمن أذلَّ القوى العظمى وسجَّاها، وقهرها وأخزاها، كيف غدا مقهورا للون من البلاء اسمه الموت والفناء. ولم تعلمي أنها أسمى المنى نالها إمام التقى كان

يدأب في الدعاء من أجلها، ويلحُّ على دنياه بالمجاهدة لنيلها... الوصل العاطر الأبهى بربّه العظيم، واللّقاء الأرفع الأسمى بمعشوقه الكريم، لم يزل يحنُّ إليه حنين الوالهين، ويذكره ذكر المتيّمين.

أشقَّ عليك يا أُمة الخير أن تعلمي أن إمامك الطهر قد مزَّقت قلبه سهام العناء لم يزل مرماها سحابة دهره، واشتجرت عليه رماح الإيذاء لم يفتأ قرينها طيلة عمره، حتى غدا قلبه النازف وجرحه الراعف يؤذيانه ويؤرّقانه ويحمّلانه من الاذى مالاقِبَل للمتاع بشريٍّ به. ولقد علمت أن دربه الذي اختاره دون سواه بحبٍّ ويقين، واصطفاه على غيره بِوَلَهٍ وعزم متين؛ هو درب المحن والآلام، مسلك العظماء، وطريق الغموم والتهمام سبيل الأصفياء، فيها مغداهم بلا مراح، ولايعرفون البهجة والانشراح، قرناء الحسرات ورفقاء الزفرات؟

أتراك يا أُمة الخير قد لدغتك على حين غرَّة لدغتها الصاعقة تلك المصيبة الماحقة — ذبول الامل الزاهر بعودة الإمام معافى الى جمران بعد أن خرج منها يتوكف إجابة الدعاء بسرعة الأوبة الى ربّه— وأنت على يقين في نفسك تصنعه المحبّة الطاغية بأنَّ الحبيب الأسمى لايموت، وأن قاهر الردى لايفنى، وان مذلّ المردة والطغاة والشوكة في عيون الحاقدين لن يُشمِت بك الأعداء ولن يفجع أولياءه الأوفياء، وان الخارج من جمران — على زجل الدعوات والصلوات لتنقى كما تظنين سماؤه من سحابة الصيف العابرة— سيؤوب اليها بصحو ربيعي زاهر عاطر، تعيشين في أفيائه الباردة الناعمة الحالمة، وتستروحين نسيمه الشذي العابق المتأرِّج. وكنت تدعين وتلحّين في الدعوات، وتناجين وتذوبين في المناجاة، تسألين الله أن لايخيّب الأمل الأسمى، ولا تكبو القدم للحلم الأعلى. وأخذتك بغتة صيحة النبأ الذي كنت أبعد شيء عن توقُّع سماعه فإذا بها آمالك الزهر وأحلامك الغرّ تذوب ذوبة طورية راح فيها التجلّي الصاعق يدكُّ الجبل الراسي ليذره هباء، وانتفض قلبك الذي كان نبضه نبض ذلك القلب السليم على

فراش العلاج كأنَّه يريد أن يتوقّف، وأوشك ان يتجمّد في عروقك مبعث الحياة فيك مذ تجمّد الدم الطهر في عروق إمامك العظيم، واندفعتِ عنفا من الألم والأسى والندم تلدمين الصدور كأنَّك تقولين للقلوب بين جوانحها: عليك بعد قلبه العفا، وتضربين الوجوه كأنَّك تقولين لها: لا تذوّقت حواسُّك طعم الحياة وأرفع الوجوه قد فارقها...

لله انت يا تلك الروح المطهَّرة التي لم تعرف غير الله، ولم تلهج بذكر سواه فهو خشوعها وصلاتها، وهو قيامها وثورتها، وهو فداؤها وحماستها، وهو آهاتها وحسراتها، وهو رفضها وعنادها، وهو آلامها و تهمامها، بل هو لحظات سنينها الطوال، لم تغادر منها لحظة واحدة لم تحزها اليها تذيبها في نار العشق العجيب.

لله انت يا تلك الأنفاس العلويَّة التي كانت تنبعث من روض الإيمان شميا عابقا يحلّق بالنفوس في أجواء الطهر والفضيلة والتسامي.

لله أنت يا تلك العظمة التي صنعها الله على عينه، وسوَّاها بيده من الهدى والنور لتتجسَّد في الأرض منارا، وقدوة تثير في القلوب عزمة التعالي، وتلهمها عشق ذرى المجد.

لله أنت يا تلك الكلمات التي كانت كأنَّها الوحي بل هي الوحي لأنها شنجة من آيات الله الموحاة تتلى على مسامع العالمين، وأحكامه المفروضة تنشر في الأرض، ومواعظه الشافية تُهدَى رحمة للبشر، وأمثاله الحكيمة تضرب للناس لعلهم يعقلون.

لله أنت يا تلك الفتوَّة المؤمنة التي لم تزل مع النشاط والألق والحماس والانطلاق في تركاض دائب في شؤون الإسلام والمحرومين.

لله أنت يا ذلك الفكر العملاق الذي صاغ الواقع على هدى الدين أرفع صياغة، واستنزل الرأي السديد والهدي الرشيد من سماوات العقل والنظر الى الحياة القائمة ليفعل غاية المطلوب وحقيقة المرغوب، دينا يطبّق، ورسالة تجسَّد، وقرآنا يحكم، ولم يقل حسبي الموعظة والنصيحة فهما كلُّ

وظيفتي.

لله أنت يا ذلك اللسان الذي مانطق إلاّ في فم القلب لتخرج منه كلماته، حكمة وسدادا، وعشقا وأشواقا، وهدى وضياء، وبصيرة ورشادا، ولم يكن له في فمه إلاّ لسان عقله بعقاله فلا ينطق إلاّ مستهديا بالبصيرة النافذة، مسترشدا بالدلالة الهادية، وفي غير ذلك هو صمت حكيم، وسكوت كريم، ينطقان بأروع البيان عن أرفع المعاني وأسماها.

لله أنت يا تلك المعرفة الوتر بالله والإيمان والزمان، قد سارت بهداها الى ربّها ـ في متاهات الحياة ـ قوافل المؤمنين على الصراط السويّ، ومشت على نورها الى منهل الاسلام تروي ظمأها الحازب الى فيضه. قد عرفت ببلاغة فطنتها وبصيرتها شؤون الزمن القائم فتعاملت معه بتسديدها تعامل الحكمة المبصرة بأرفع درجاتها وأطوارها.

لله أنت يا من يذكّرني بنوح في العالمين طالت به الأيام مع الدعوة ليلا ونهارا، جهرة واسرارا، فاستخلص من الناس صفوة المؤمنين، قد حملهم في لجج الطوفان الهادر للغضب الجسيم في فلك النجاة، ألواحها قلبه الرشيد وعقله السديد، ودسرها جهاده الصبور، وآلامه الزكيّة، وتضحياته الجسيمة السامية، فهم في سفينة الخلاص، يغرق سواهم في المتاهة وهم سالمون، ويعذب غيرهم في الضلالة وهم وادعون.

لله أنت يامن يذكّرني بذلك الشيخ الأوّاه الحيم، الحنيف، الرافض الثائر فما زلت حنيفا مسلما في عرامة الشرك والجاهليات الوافدة، ومازلت رافضا تجسّد الرفض عنفوانا ابراهيميا يجعل المعبودات والمدّعيات جذاذا، ومازلت ثائرا تفجّر الثورة في السدود والأطواق والأغلال، والنماردة والعروش والبروج، وكثافات الظلمات ودياجير الضلالات.

ويلتهمك عنف الجاهلية وغيظ الجاهلين ليقذفوك في لهوات البلاء، شأنهم الغابر مع الانسان الأُمة حين بنوا له بنيانا وألقوه في الجحيم، وقال قلبك للنار يفرغ عن لسان الوحي في القرآن وقد تلفّع البُرد الذي

لايحترق ولا تنفذ منه النار، وذلك التوكُّل الفذ والثبات المبين **«وكان حقّا علينا نصر المؤمنين»**. وقال ربُّك العظيم لسعير الدنيا التي تأجَّجت من حولك نارا وضراما **«كوني بردا وسلاماً»** ومشيت على أثباج اللَّظى كأنَّك تمشي في الرياض، ووطأت هامات اللَّهيب كأنَّك ترقى في الذرى كلَّ رغيب، وبقيت النار خلف ركبك العظيم تهتن سحب عزمه الكبير بأسا وثباتاً... دُخاناً يخنق من سعَّرها.

لله أنت يامن يذكِّرني بموسى فالق البحار بعصا ربِّه الجبّار، يتحدى الفراعنة المتجبِّرين، ويفك الكبول والأصفاد عن الضعفاء المسترَقِّين، فمازلت – ياقبسة النبوَّة– تخوض بحار الأهوال، تفجِّرها وتعبرها بروح التقوى والتوكُّل والاحتساب، من جانب الطور الأيمن، لعرفانك، تنفخها في عصاك القاهرة، أُمتك الثائرة لتصنع لك المعجزات الخارقة لمألوف الأسباب والمسبِّبات وإن كانت من صميمها، تخرلها الحلوم المقهورة المفحمة ساجدة، وتعنو لها القدرات والسطوات والجمحات ذليلة خاسئة.

لله أنت يامن يذكِّرني بعيسى روح الله، باعث الفضيلة وروح السموِّ والصعود في ارتكاس الماديَّة وهبوطها، ومحيي الموتى وشافي المرضى، فاسمك أيُّها الرضي هو وصف ذلك النبيِّ العظيم، ومسيرك الإلهي الرافع معراج التسامي راح منه طلّاب الكمال يعرجون إلىٰ رحابه، وروحك الأبيَّة العليَّة تبعث رهائن الأجداث من صرعى الضلال، وطبُّ هداك يشفي ذوي الأسقام في مباءة الغي والوبال.

لله أنت يامن يذكِّرني بسيِّد النبيِّين، بصباه المفجوع باليتم والمحن، بشبابه المترفِّع النزيه، بخصاله المثيرة للاعجاب، بانصرافه عن الباطل ورفضه للصنميّة والجاهلية، بدعوته للحق والهدى، بما عانىٰ وأتباعه من فواقر المصيبات، بهجرته المحفوفة بالأذى والإكراه عن داره ووطنه الى أرض الغربة والجهاد وإدامة النضال المقدَّس، بعودته الظافرة المؤزَّرة، بإبلاغ الرسالة وإتمامها، بتشابه الأمدين؛ أمد الدعوة قبل الدولة تساورها شراسة الجهل

والظلم والعناد، وأمد الوجود الشريف في ظل الدولة يصنعها على عين هداه، ويسدِّدها برشده ونهاه.

إنَّه التاريخ يعيد نفسه، وإنّها مقاطع العظمة في مسيرة الإنسانية تتجدَّد وإنّها السير العليَّة لرموز المجد والشموخ تحيا بأحفادها المتأسّين، وإنّها المُثل الرفيعة يجسِّمها الخلق الخميني – تجسيم آبائه الميامين– نورا متفجِّرا في ليل التسافل والانحطاط وذهاب القيم، وفضيلة زهراء غرّاء تطلع بوجهها البهي الوضيء في عصر الرذيلة تبصِّر الدنيا آفاق التسامي للإنسان خليفة الرحمن، وتدلُّهم طريق السموِّ في خبط المتاهة للهبوط والانحدار، وتعرِّفهم عزمة الدين واقتدار العقيدة في صنع الكمال الذي هو غاية الخلق، ومبعث السعادة، وروح الأمان والسكينة والقرار.

لله أنت يا صريع الهموم لله والثورة والدين المبين، وقتيل الغموم للضعفاء والعانين والمحرومين، مازلت تثاور أجنادها بالصبر والاحتساب، وتصاول فرسانها بالعزم العجاب، حتى اذا أثخنت قلبك الجراح، ففاض دمه الفوّاح بعطر الياسمين والأقاح أمسيت قعيد الكلم الراعف، وأخيذ الجرح النازف، تفيض الروح بفرط الرضا والقبول، وتنسل نفسك القدسيَّة من حبسها الطيني الى رحاب الخالق الجليل، قلبك باسم بسمة الحبور لمشهد الرضوان والنور، ونفسك الرضيَّة الناعمة تهش للكواعب الحور، ومواكب الأبرار قد أقبلت تزيّنها حلل المسرات، تحيِّيك يامن حقَّقت لها أغلى الأُمنيات، تقول مرحى ياصانع المجد العظيم، وباعث الصبح في اللَّيل البهيم.

لله تلك السكينة الغامرة التي ملأت مابين جوانحك بما طلع عليك من وجه الرضى والرضوان، وملأ أُنسه روحك من نعيم الجنان، فأنت في ملم الموت قرير العين، وادع المفاصل والأعصاب وقد غدت نفسك الطهور تنساب منها بيسر ورفق، قد أقبلت على ماترى طلائعه المأنوسة ببشارة الملائكة الكرام، فانت تودع هذه الدنيا ومافيها وداع السجين لطامورة البلاء في جوف الأرض يصبّ على رأسه فيها عذاب الحميم في ليل دائم بهيم. وهذا هو

البشر الطافح المتضوِّع من رياض الانس والراحة الدائمة، قد أشرق عاطرا في وجه روحك المكدودة في وعثاء الحياة ولأوائها، يسقيها من كأسه الرويَّة شربة الانشراح والارتياح، ويرى ذلك بناظر البصيرة أهل بيتك فلا يعجبون حين تقول لهم وأنت في آخر لحظة من عمرك «**أطفئوا الضياء ولينصرف من شاء منكم الانصراف**» ولو أسعفتك فرصة من اللسان المشغول بترانيم العشق لقلت لهم بالبيان الساحر الآسر:إذهبوا عني يا أبناء الدنيا الموحشة المقفرة، يا أبناء اللوعة والأذى والصدى، فإنني فيما قد أقبلت عليه وأقبل عليّ — ممّا يعجز الخيال الدنيوي الواهن أن يعرف كنهه ليبلغ وصفه من الرضوان الذي تدفّق عليَّ أمواجا خضراً من النور الإلهي، أُحس إشراقها الأخّاذ في نظري، وانسها الغلّاب في قلبي، وعطرها الأرِج في أنفي، وطعمها الشهديَّ في حلقي — لأزري بدنياكم الجدبة القاحلة، وأرثي لكم في محولها وقفرها تكابدون ماتكابدون. أطفئوا ضياءكم الخافت الشاحب فهذا ضياء المعشوق بغمرة الشمس لو كنتم تبصرون، وهذا تجلّيه الذي يذيب الجبال قد ذاب في قهره القلب المتيَّم، يسبح في سبحاته الممتدة بلا حدود، ويدور في أفلاكه المتمادية بلا نهاية. اذهبوا يا قرناء الضعف والتنغيص ورهائن الكدوح والأوزار الترابية الباهظة. فهذا الجمال الفرد والكمال الوتر، والاقتدار الأوحد، والتجرُّد والأمن والقرار والراحة الدائمة، والابتسام الواصب المتصل، قد احاطت بي أفواجها الظافرة المستبشرة، تحيِّيني تحية الملك القاهر المنتصر تجلّة واحتراما، وتكرمة وإعظاما، تقول لي: يا قاهر الدنيا ليهنئك ظفرك بالحياة الأسمى.

يا غالب النفس ومذلَّها في الحرب العوان؛ هذه هي نفسك في سيِّدات النفوس في أحضان الكرامة والإجلال.

يا مكبِّل الروح بأغلال التقى والنهى؛ هذه هي روحك قد غدت عتيق ربِّها راضية مرضيَّة.

يا منغّص العيش بقسوة الزهد والترفُّع؛ بشراك هذا نعيم الكريم وافر مقيم.

يا من سخوت لله بكل شيء؛ هذا عطاء ربِّك المنّان، وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟

* * *

آه يا مبضع الجرّاح! هل علمتَ وشفرتك المرهفة تمشي في الجسد تبحث عن موضع الداء أنها إنما مشت في قلوب هذه الملايين لتبصر فيها لموضع داء الإمام ملايين المواضع، وتجد عندها عبوس الخشية والفزع من عقبى (الجراحة) تثاورها بسمة الأمل بالشفاء والعافية لإمامها؟ وهل علمت يا ذلك المبضع أن الأُمة لو كانت تدري أنك ستكون ذلك البتَّار الذي سيقدُّ رقبة الرجاء لما أمكنتك من قائدها، ولأخذته إلى أحضانها تمسح على موضع العلَّة فيه بعواطفها واشواقها وعشقها، ليصنع حبُّها الفرد معجزته الكبرى فيشفى عليلها العظيم من دائه الذميم.

آه يا تلك الساعة التي دعي فيها قلب الأُمة الى سرير (الجراحة) ليستسلم لسطوة المباضع فقام بنشاطه المشهود في أيامه المنكرة. من كان يدري أن بينك وبين ساعة الفراق الأبدي أياما معدودات تذوي فيها جنة الآمال وتموت روضة الأحلام، فاذا هي متاهات مظلمة مقفرة ممتدَّة من الشقاوة والعناء والضنىٰ، تخوض فيها الأُمةُ العشواءَ في اللَّيلة الطخياء، لا تملك — وقد صيح بها على حين غِرَّة لمثل يوم الحساب فدُهِشت وارتاعت — شيئا من فكرها وبصيرتها تستمسك بها في خطب اللَّوعة وبأسائها، ولا تدري — وقد مشى في جسدها التيّار الصاعق لصرخة الناعي — ما الذي تصنع غير لدم الصدور، وضرب الوجوه، والوقوع في نار الأسى حتى تموت او تكاد. وكانت صرخة كبرى أيقظت الرعب المارد في النفوس الوادعة فهو يطويها بيمينه، وشبَّ له فيها إعصار فيه نار لايذرلها خضراء إلّا أحرقها. وانتفض لتلك النفخة الصورية كلُّ أهل الإسلام لقيامة الفاجعة في يوم كان مقداره ألف سنة من الآلام، تذهل لنكباته كلُّ مرضعة عما أرضعت، وتضع من خطبه الصاعق كلُّ ذات حمل حملها، وترى الناس في هوله الفظيع سكارى

وماهم بسكارى الصهباء بل البليّة الفقهاء.

آه ياتلك العمامة الشامخة على صدر الجثمان، أين منك — يا تاج الفخار— مزيف التيجان؟

لك المجد يا عمامة الهدى، لك الفخار يا منبع الندى.

يا شعلة وهّاجة يستضيء بها الذين يطلبون النور في إطباق الظلام.

يا نفحة علويّة يتنسّم منها الذي أرمضتهم حدابير الأيّام شميم الخير والسلام.

يا معقل الإسلام وسيفه الصمصام.

يا هالة محمديّة تألّق فيها الإعجاز والإقدام والإكبار.

يا هلّة قدسيّة تبسّمت على ثغر ذي الفقار.

يا ضحكة طفيّة طفحت على جبين الدم القاني في شموخ كربلاء.

يا صيحة الرفض والعناد تقضُّ مضاجع البغي والفساد.

يا مسيرة الرشد فى الفتن الداجيات لم تتحوّل، ويا وقفة الحق في المحن الطاغيات لم تتبدّل.

أين منكِ السها يا ابنة العزِّ في الأُفق الأعلى؟ وأين منك الشمس يا مطلع النور من صبح الهدى؟ وأين منك الزيف والزائفون يا حقيقة سوّتها يد العليم الخبير؟ وأين منك الونى والوانون يا اقتدار العليِّ الكبير؟

لازلت تحيين والحاقدون طعمة الموت والفناء، ومازلت تشعشعين يفضح نورك المبين ظلماء الغيِّ والغاوين.

وما فتئت يا بضعة الخلود تمشين بأبراد البهاء في هذا الوجود، وما عتمت ترقلين الخطى القاهرات بأعظم الصبر والثبات من كرامة هذه الحياة الدنيا الى نعيم تلك الحياة الأعلى ولم يزل الإيمان في أحضانك الرؤوم الطهور، ترضعينه لبان البذل والقلب والشعور، فتطلعين به في غمرات الجهالات والحماقات فكرا زاهرا يبدّد أطباق العشاوات، ودما ثائرا تحترق بناره عروش الطغاة الظالمين، وتمشي على هديه السنيِّ مواكب الثائرين.

مازلت تحفدين الى مقاوم الفخار بالهموم العظام، وتغذّين المسير الى الغاية الكبرى في اتون الأهوال الجسام، حتى أشرقت بسمة النصر على شفتيك معجزة القرون، في دولة للحقّ عزّ على مثلها في عصرنا أن يكون.

لله أنت يا منهل الخير الوفير، كم أنجبت ألطافك من عظائم الأُمور، وصنعت جلائل الصنع البديع وكلُّ صنعك رفيع. على كفّك كان قلبك المشرق الوثّاب، ترشّينه على الدرب ضياء للبصائر والألباب، وفي الباحات كنت تجالدين بصارم اليراع والإبداع أجناد الجاهلية والضياع، وفي المحن الشداد على الدرب الطويل كنت تثاورين الهول بالرفض المهول، وكنت عزما قاهرا جاءه موج البلاء من كلّ مكان فما هان ولا لان، بل تجلّى عنفوانا يتحدّى وما استكان. ومضيت تحثّين الخطى والهة الى حياض الردى، قربانا لدين بات يستصرخ أهل الفداء، «**أيُّها الباذلون هل من دم طاهر يروي غلّتي وصداي ؟، أيُّها الأوفياء ذبّا فقد طغى الخطب في ساحتي وحماي**» فشعشعت عمّة خمينية نوراء محبورة تهشُّ لداعيها، وهبّت هبوب المارد الجبّار تبذل الروح لباريها.

لله أنت ياروضة الحق النديّة الفيّاحة بالأريج تساورها الأعاصير فلا تذوي.

ويا شجرة الهدى الطيّبة الزيتونة يوقَد منها كوكب المسيرة تنتابها الأعاصير فلا تميد.

ويا بسمة اللُّطف السنيّة العلويّة لاتهزمها جحافل التجهُّم.

ويا طلعة الرشاد البهيّة الصبوح رأد الضحى لا تنال من اشراقها عرامة اللّيل الأيهم.

أنت عزمة الظفر بسبيل النهوض، نهوض الحياة الناكسة بعد هبوطها، وقيام العلم في أرجائها البُله، وابتسام الفجر في أنحائها الدُّكن، وحريٌّ بما يقيمه العقل أن يتسامى ويونق، ومايغمره النور أن يضيء ويشرق. هاهو ذا بأسك العوان يهزم مقتدرا دعارات الضلالات الشقيّة، وتهدُّ ريح عزمته

الجسور صروح الأحلام الغويَّة، ويذري بشروق الغضب الميمون ليالي الأماني الخادعة للحماقات الرُّعن، فقوَّضت أعراس مبتغاها من هول حقيقتك الزاحفة، وأضحى شعاعا في الفضاء ذلك البأس الكذوب تراءى مخيفا به عدوَّك المريب، وأراح سيب قدرتك الدفيق عرامات الشيطان الى المهوى السحيق.

لله كم ذببت عن الإسلام مكائد الجناة الطغام قد همَّت أن تأكل خضراءه وتذبل مجده وعلاءه، وانصببت مزنا هاطلة على النار الغوّالة لشحناء الضلالة؛ فخبا ضرام ثائر، وحاق المكر السيىء بالماكر.

وكم بسطوة النور يا نوراء كشفت أسداف اللَّيل المريب، فأنبعث فجر الحق من سمائك كالمارد يصرع أخباء الظلماء، وينفث من روحه النديَّة الضاحكة لطف الحياة الرشيدة وسحرها.

لقد أطلَّت من عليائك مشاهد شامخة لاتحصى ولا تنسى صنائع نفس عذب فيها الهدى، وتأرّج طيب الاستقامة، قد وشجت عليها فصولها ونمت أُصولها، فلا تصدر إلّا في خير، ولا تفيض إلّا تساميا وشموخا، قد غربت عنها أهواء الجهالة، وغربت عن دنياها التي أشرقت بالصبح البهيِّ ظلماء الضلالة، فمعدنها سراج، وظاهرها نور وهّاج.

وتمعن فيك على العجب عين الدنيا، كيف لا تزالين تثاورين، وفنون الكيد تكتَّفتك من كلِّ حدب، وسهام البغي تقصدك من كلِّ صوب؟

أيُّ قدر قاهر شاء ذلك فأمضاه، ولمثلك فيه حتف جازم، وموت لازم؟

إنّها السماء يا صنعة السماء، وأنت على عينها، فأنَّى تلين للبأس الغشوم قناة قد نفث الله فيها روح الصلابة؟ فلتقم في وجهه ببأس اليقين، ولتقرع كيده المسعور بالكيد المتين، ولتقعد له كلَّ مرصد، فليقف منها موقف الخائف المترقِّب المذعور، لا الطامع المتربِّص المغرور. وليبصر فيها بعينه

العمياء شيئا من نور المشيئة العلويّة، ومن ضياء التأييد والتسديد، وليبق مع الحيرة تقيمه وتقعده، والفزع يعصف فيه عصف الريح الغضوب، وقد أحسَّ أنَّك اليوم قد أخذت عليه أقطار دنياه، فحيث يولي فثمَّ أنت ثورة تيفع، ولواء يُرفع، ومارد يهبُّ، وبلاء يستقطب.

ربّاه أموت هذا حزين فاجع يأسر الناس مصابه الأليم فيقعدون عن كل شيء، سوى الدمعة والزفرة؟ أم هو الصحوة الهادرة يبعثها هذا العملاق الثائر المسجّى صانع أعظم ثورة بعد ثورة جدّه **الحسين**؟

ربّاه ماذا أرى مما يصنعه هذا الجثمان؟! انه يحرِّك الناس كأنَّ له لسانا ناطقا بأروع بيان الحماسة، وكأنَّ له يدا من حديد تهتزُّ في الفضاء رمزا للبأس والقوَّة، وكأنَّ له انطلاقة فذّة أمام الجماهير في ثورتها، فها هي الأُمة على هيئتها يوم جاءها إمامها في الثاني عشر من بهمن من أرض الهجرة، وهي تتأهَّب لكلِّ محتمل من البلاء، قد أعدَّت له مواسمه من الدّماء والعطاء، حتى تبلغ بثورتها غايتها، لكأنَّها وهي تودّعه اليوم الى مثواه تمشي خلفه في بدء مسيرته الثائرة الى كلِّ أهدافه المقدَّسة التي خاضت فيها معه كلَّ الأهوال، وبذلت لها بأمره كلَّ نفيس وغال، وهاهي في هذه المسيرة في قمَّة الصحوة والإقبال على الله والإسلام،تردِّد شعاراتها الثائرة، وتجدِّد العهد والبيعة، وتعلن الوفاء والولاء، وتقدّم في ذلك القرابين في فورة العزم وحماس الصدق في البيعة. ما أسماها وأعجبها من ثورة لميِّت لُفَّ في الأكفان، وسيربه مشيعاً في غمرة الأحزان، الى روضة من رياض الجنان! وما أروع فصول هذه الثورة الفريدة التي يصنعها الموت لسيِّد الثائرين في هذا الزمان دأب جدّه سيّد الشهداء الذي صنع بموته ثورة ليس لها انقطاع ولا نفاد، ترثها الأجيال كأنَّها الطبائع والخصال.

هذه هي الوصيَّة الثورة بالكتاب والعترة، تنبعث جديدة تدلُّ على المسير الهادي في تشعُّب المسارات، وتنير طريق السالكين في دياجير المتاهات، وأوَّل فعل الثائرين دلالتهم على الطريق والمنهج، وهذا ماصنعه ذلك

المسجّى الثائر، وهذه هي عصارة قلبه ينتزعها من بين مخالب الموت ليسطّرها في وصيّته الخالدة نهجا للثائرين، ودليلا للقادة والمصلحين، ورشادا للضالّين التائهين، مداد كلماتها قلبه المتحفِّز الوثّاب، ومعانيها السامية هي روحه الطهر الزاكية، ومضامينها المشعشعة اللألاء هي شعوره المشرق الوضّاء، وتعاليمها ومفاهيمها هي نفسه المرشدة الهادية ترسم طريق الثورة، ومنهج الدولة، وصلاح الحكم والحاكمين، وسبيل العدل والإنصاف، وما فيه غبطة الإسلام والمسلمين، وسعادة المستضعفين والمحرومين، وواجب الرعاة للرعيّة، ووظيفة هذه لأُولئك، وعلاقة هذا الوجود الإسلامي بما حوله من الدنيا، ومواضع الداءِ في هذا الوجود، ورموز الضلالة والانحراف في قياداته الزائفة، وماذا على أُمة الإسلام لدينها في هذا الخضم المزبد الذي أحاط بها فعادت فيه كزورق مهيض. كلُّ أُولئك كان مهم الفصول في ثورة الراحل يفجّرها وهو ينقل خطى السكينة والاطمئنان الى عالم الخلود حيث تنقل هي خطاها الى مثله على قدر عمر الحياة، ومدى الخلود . حيث تستقر في القلوب والدماء، فتكون هي نبض تلك وتكون هي سرَّ الحياة الجاري هذه.

كم من ممات لعظيم رائد أعقبته الردَّة النكوص. أمّا موت الخميني فإنَّه أفرغ الجسد العجوز من روح الفتوّة ليفيضها خمينية ثائرة مقتدرة في الأُمة، لتقوم بتلك النفس الفريدة بعنفوانها المشهود، فتبقيها متجدِّدة خطّاً وروحاً وثورة، ليس يعروها البلى لأنَّها حياة متمحّضة للبقاء ولا ينتابها الفناء لأنَّها فوق ناموسه، ولا عجب فهي روح الإسلام، وقد قضى الله خلود هذا الدين وبقاءه. وثورة الخلق العظيم في الدنيا الهابطة المتسافلة كانت جزءاً من ثورة الموت الخميني، ذلك الخلق الذي يلتمع فيه سيِّد الفضائل للقيادة الرشيدة، وذلك الزهد والعزوف عن الدنيا، ذلك العزوف الذي حالفه سميرا لايأنس بسواه، وأنيسا لايهنأ عيشه بغير صحبته. يموت القائد العظيم ولا تحفظ له الآذان وصيّة دنيوية لأهله وعياله ولابنه الوحيد يرثون بها من وجوده الكبير، المنصب والزعامة والملك الواسع كما يرث غيرهم في شرق الأرض

وغيرها من آبائهم الملوك وذويهم السلاطين مقدّرات الناس وأزمّتهم ورقابهم ومصالحهم، يسخِّرونها كما يحبُّون وفيما يشتهون. بل حفظت ووعت آذان أهله وعياله وصيَّته لهم بالصبر على مرارات الحياة وآلامها، والسير فيها الى الختام مع الدين والتقى والفضيلة والرغبة عن مطالبها.

ولقد ظنَّ من لا عهد لهم بالفضائل السامية التي تحلّى بها الإمام، ولم يخبروا زهده وإعراضه عن الدنيا وصدقه في ذلك، ولم يصدِّقوا الإنباء به أُولئك الذين رأوا بناظر الواقع المشهود ممّا يفعله أهل الدنيا ولم يروا خلافه من شأن أهل الآخرة وفعلهم – ظنّوا أن الإمام سيوصي لابنه بالزعامة من بعده، وقد كان يكفيهم واقع الإمام مع نفسه وأهل بيته في الإعراض عن زهرة الدنيا وبهجتها، وعزله ابنه عن كلِّ شيء من أُمور الحكم والسلطة ومواضع القدرة. وحين طلع عليهم واقع مابعد الإمام، وأنَّ أهل بيته ليس لهم من بعده في الوجود الذي صنعه باقتداره الالٰهي – إلَّا تعزية المعزِّين وتسلية المسلِّين، يقابلونها بالصبر والاحتساب والاسترجاع ويهطعون الى بيعة القائد الجديد الذي جاءت به القيم والضوابط والأُصول، تعضدها وتعينها في الاختيار إشارات الإمام ودلالاته.

وخذ إليك في الزهد لهذا الذي يظنُّ أو يعلم أنه يوشك أن يُدعى فيجيب أن ينصرف باله عن أن يستعين بطبِّ الدنيا من حول إيران مما بلغ الذروة في فن العلاج يذهب إليه يطلبه حثيثا ليستقبله ذلك حفيّا حريصا يطلب بعلاجه فخار الدنيا، وحسن العلاقة، وأداء حق الاختيار وشكره، أو يدعوه – إن شاء– الى ايران ليأتيه بتلك الحال لهذه الغاية. ويكتفي الإمام بطبِّ بلاده وهو يعلم أنَّه ليس أرقى من طبِّ العالم ويزهد بما سوى الأطبّاء الذين أنجبتهم بلاده وهو يدري أنَّهم ليسوا فوق غيرهم في هذا الفن.

وإن من هم دونه شأنا ليقصدون أنحاء شتّى في هذه المعمورة يطلبون فيها العلاج فيجدونه لكنَّه يتأبّى إلّا أحضان بلاده، ودواء أطبّائها، ومباضع جراحيها، شأنه شأن من لا عهد له في أبناء شعبه بطبِّ الدنيا، خارج ايران،

ولا قدرة له عليه.

وهلمَّ في معالم هذه الثورة التي يصنعها موت الخمينيِّ هذه الصحوة المؤمنة التي تجلَّت في الحزن الثائر الذي طبَّق الملايين المسلمة في أنحاء العالم لاتخاف في ذلك لومة اللآئمين، ولا رقابة سلاطينها الظالمين، فهي تتحدّاهم كأنّها تثور عليهم، وتدوس بقدم العزم والجرأة حواجز الوعيد بينها وبين حبِّ الإمام وعشقه، وإظهارهما بأيِّ لون من الإظهار. أمّا الأُمة في ايران فكانت صحوتها شيئا عجبا لم يَر التاريخ له مثيلا، فقد هبَّت ملايينها — كمن صِيح به عن نوم— فزعة مبهوتة لا تصدِّق النبأ أوَّل ساعاته، ثم عادت الى رشدها رويدا رويدا. بعينها نور الحقيقة الناصعة لموت الأنبياء والأولياء على أن تمحو سدف الريب التي كثَّفها على قلبها الاعجاز الشخصي لفقيدها، وإباء التسليم للخيبة في الحبِّ العجاب الذي أوهمها أن حبيبها خالد خلود حبِّها، وأن ذلك النور الذي عشقته فحامت حوله وذابت فيه لن ينطفئ، وأن ذلك المعين الذي راحت تنهل منه حياتها ووجودها لن ينضب. واستسلمت للأمر الواقع وانتشرت في فسيح إيران سوادا حالكا سواد الحزن الأسفع في قلوبها المفجوعة تجسِّد اللَّوعة تجسيدا لم تكن اللَّوعة تحلم أنَّها تتجسَّم في الدنيا على هيئتها التي طلعت بها الأُمة المسلمة في ايران حسرة على رحيل الإمام، وأسى على فراقه واحتراقا في مصابها به. وانطلقت في ثورة الحزن العاصف تهزُّ الضمائر الخاوية، وتوقظ القلوب الدويَّة، وتكسر أغلال النفوس المأسورة بالطيش والحماقة لتنبعث كلّها — بسورة الندم وعزمة التكفير— تبايع بيعة الصدق والوفاء. وكان الأمر الأعجب في ثورة الحزن تلك السهام والأشواك التي انتشرت في عصف ريح المشهد الفريد للولاء والعشق المقدَّس الفذِّ، والعهد الصادق الذي لا تشوبه شائبة، على دوام المسير في طريق الحق والنور والثبات، ثبات الجبال الراسيات على نهج الإمام، لا تحرِّكه قيد أنملة عن موضع الرسوخ جوائح الخطوب وعرامات الكروب. ومضت يجذبها حقد الحاقدين، وشماتة الشامتين لتصمي قلوبهم، وتفقأ

عيونهم، وتذرهم في حيرة نكراء ودهشة موبقة تذيبهم، وفزع رهيب تتعاورهم مخالبه تقطعهم مزعا، وتصيّرهم أفلاذا تلتهمها غربان الشؤم والتعاسة، فلا قرة العيون التي ظنوا أنها عطاء الفاجعة، ولا حبور الأفئدة الذي حسبوه الوليد الوحيد للمصاب، ولا راحة البال من أغلظ الهم والبلبال، ولا الحياة المستكبرة الوادعة الراتعة بغيبة المارد العملاق، قاهر المستكبرين وقائد المستضعفين فالخميني الذي ظنُّوا موته نهاية قد صار فقده البداية التي ليس لها انتهاء، وغدا القائد الذي سكن القلوب التي صارت مأواه ومثواه يقودها ويحرِّكها من داخلها بأزمَّتها بعدما كان يقودها بزمام الكلمات والنداءات، وحيث سكنت روحه نفوس الأُمة صار قبره مزارها الخالد تقصده وتبثُّه أشواقها وتأنس بقطرات الدم والدموع، وصار الاحتراق والذوبان والموت بنار العشق غاية المطلوب لخشوعها في عبادتها. وحين يصير الخمينيُّ بموته بهذه المثابة فقد أصبح موته غاية العزِّ والثبات لأمره العظيم، وصار تحوُّلاً كبيرا في أُمته لقضيَّته، وغدا قفزة العملاق في مسيره الى الهدف أدنته منه دنوّاً صعق الآمال الغويَّة فعض أصحابها على الأنامل أسى وحسرة وغيظا، وراحوا يعبّون من تيّار الحيرة للموت الخميني الذي يصنع الحياة بأرقى صورها وأشكالها، بعدما كانوا يعبُّون من مثله من قبله لحياته التي لم يروا لها نظيرا طلعت عليهم بخارق العادة وفائق المألوف تنفخ في صورها (الثورة)، وتبعث الأموات في أجداث الخنوع الى موقف حشرها (قيادة المستضعفين)، وتسوقهم زمرا الى نعيمها (الحريَّة وتقرير المصير) حيث ترى المستكبرين خاشعين من الذلّ، ترهقهم قترة الهزيمة وإرغام الأنف في وحل الخيبة والصغار، وضياع الهيبة الزائفة.

أرأيت تشييع الجثمان الى جنَّة الزهراء؟ أرأيت قبله وفيه فورة الأشواق الثاقبة في القلوب تحرِّك الأبدان الى لمس ذلك الجثمان ومسح الوجوه – تبركاً – بالأيدي التي مرت على الأعواد التي حملته أو الكفن الذي لُفَّ به؟ أرأيت تلك الحشود المليونيَّة التي راحت تصارع الدولة على

جسد زعيمها وإمامها تأبى إلّا ان تحمله بين يديها تروي بعض الغليل الى ضمِّه ولثمه وشمِّه قبل أن تفعل ذلك معه روضة قبره؟

أرأيت مايشبه الحكم العسكري عند مثواه يمكن به وحده تخليص البدن الكريم من أيدي الملايين التي تريد ان تدفنه في قلوبها جوار روحه التي نزلتها؟

أرأيت مايبدي مجسّم الحشر ليوم الحساب عند قبر الإمام، حيث كأنَّ الارض قد مادت وانشقَّت، وأخرجت أثقالها وحُقَّت وكأنَّ قد خرج الناس إناثا وذكرانا، شيبا وشبّانا، صبايا وصبيانا؛ من ضرائحهم مهطعين الى الداعي حيث عظم الشفق، وأُلجم العرق، وأُذهِلت كلُّ مرضعة ووضعت كلُّ ذات حمل حملها، وانصرف كلُّ امرئ لما يغنيه من شأن البلاء، ويحوزه اليه مشغولاً به وحده عن الأخلاء؟

أرأيت أُولئك الذين استطاعوا باقتدار العشق المتفجّر، وعزمة الاسى المندفع كالاعصار؛ أن يرموا بأنفسهم في الضريح قبل أن يوسَّد فيه قائدهم، كأنَّهم يقولون: أُدفنونا دون إمامنا؟

أرأيت تلك الآلاف المؤلَّفة التي أصابها من مكربة التشييع ما أصابها من الكلوم والجراحات عالجتها على عجل أو ألجأتها الى المستشفيات؟

أرأيت أُولئك الذين ضاقت عليهم الأرض في طوق اللَّوعة بما رحبت، وضاقت عليهم في لظى الحسرة أنفسهم، فلم يجدوا إلّا في الموت متَّسعا ومنجاة، ففارقوا الدنيا التي برموا بها، بعد أن أفلت عنها شمس الإمام أُفولَها الأبدي؟

أرأيت هذا وغيره لتبصر فيه المشهد الأوحد للَّوعة الوتر، والحبِّ الفرد، والقيام الذي لم تشهد له الدنيا شفعا والثورة العظمى التي أنجبها الموت ولم تنجب مثلها حياة أيِّ عظيم؟

لقد صهرت المأساة النفوس فحوَّلتها مذابا صبَّته في قالب الوفاء

الخالد للنهج الخمينيّ، بعد أن نقته ـ بالاحتراق ـ من كلّ شوب، ليعود أصفى من الصفاء وأنقى من النقاء. وذلك ماكان كلّ دأب الامام في سعيه الهمام الى هدفه العظيم، ومأموله الجسيم، وبه كان يأمل أن يصيب منشوده، ويبلغ مقصوده.

أرأيت في معالم تلك الثورة التي انبعثت من أحشاء هذا الموت تلك الأسئلة الكبيرة بحجم الدهشة من مستثارها؟

فيم كان ماكان في تشييع ذلك الجثمان ممّا لم ترَه عين الزمان؟

ما الّذي جمع الصغير والكبير لذلك الخطب العسير؟

ما الّذي ألَّف بين هذه القلوب كلّها في الفاجعة على كلمة الأسى وجعلها تعتصم جميعها بحبل اللَّوعة؟

ما الّذي غرس هذا الشغف في الأفئدة لذلك الرجل الذي لم يطلع على الناس ولم يكلّفهم إلّا بعبء المجاهدة الدائبة الوحيدة، ولوازمها الفريدة، فابتلوا بالمسير معه على طريقه الصعب المستصعب بفنون البلاء وصنوف العناء، فعاد آسر النفوس بحبِّه، ومكبّل القلوب بأغلال عشقه، لكأنَّه بنار تلك البلايا كان ينقّي تِبر الوداد من ألواثه؟

بأيِّ سلطان استطاع ذلك القائد على طريقه الدامي أن ينفذ في أقطار القلوب والأرواح ليفتحها فتح الظافرين؟

ما الّذي صيّر الموت بأمره على نهجه أشهى المنى؟ وأحال المعاناة له وفيه غاية المرتجى؟

أيُّ سرٍّ كان وراء الاقتدار لكلماته على الأخذ بزمام هذه الأُمة حيث يشاء من متوائم الأُمور ومتضادّها، ومتناغم المطالب ومتنافرها وفيها تسلِّم الأمة تسليم الأولياء لمشيئة الأنبياء ووحي السماء؟

ولا تستطيع تحليلات الدارسين والخبراء أن تجد جواب هذا الأمر العياء في مألوف دراساتهم وتحليلاتهم لمعتاد ما يحضرونه ويبصرونه من شؤون الحياة الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها، ولو أنَّها نظرت الى الإيمان بالغيب،

والظاهرة الدينية لوجدت فيها لألاءً مضيئا مايفكُّ عنها طوق الحيرة وهي تبحث في المتاهة عن الجواب.

وعرفان هذه الحقيقة (دور الدين وتأثيره) هو غاية ماكان يسعى الخمينيُّ الى أن تدركه العقول، وتذعن له القلوب في هذه الدنيا، وما يستلزمه ذلك العرفان من قتل الأمل الباسم لأعداء الإسلام — فيما بعد الموت — لرافع لواء الصحوة الصاعدة والعودة الرائدة، والوقوع في حضيض الخيبة القاتلة، واليأس الخانق من فتل هذه الأُمة أو تحويلها عن مسارها. كلٌّ أُولئك كان معلَماً رفيعاً في معالم الثورة الخمينيَّة بعد موته. ولله هي ما أروعها من ثورة، ولله مفجِّرها ما أعظمه من ثائر.

لقد غاب أُولئك الجاهلون أو المتجاهلون عن حقيقة الإيمان بالله والغيب وعقيدة الأُمة بدينها، ووعيها برسالتها، ومعرفتها بقيادتها، ولزوم طاعتها لولايتها، وماوجدته في تلك القيادة من شمائلها الإلٰهية وفضائلها الربّانية، ومحاسنها النابعة من روح الاسلام وسموِّه وبهائه، فغابوا بذلك عن السِّر فيما حسبوه طلاسم ليس لها في أذهانهم ما يكشف عن عيونهم أستار العمى عن معرفة أسرارها، ويزوِّدهم بما يرفع عنهم كبول الونى عن حلِّ رموزها وعقدها، وليس هذا السرُّ إلّا كلمات ثلاث: (الإيمان، المعرفة، الواقع المجسِّد للقيادة السامية)، ومن هنا ينطلق العشق يبيح للمعشوق حمى القلب، ويعطيه مقوده.

أرأيت ذلك العابد المتبتِّل في محراب الخشوع والضراعة قد وجَّه وجهه شطر ربِّه، وتعلَّق قلبه به، في ذلك السحر المهيب، يصلِّي صلاة اللَّيل على فراش المرض قد أنشبت به المنيَّة مخالبها تنازعها عليه هذه الآلات والأدوات التي ظنَّها الأطبّاء هي التمائم النافعة أمام سطوة الموت؟

لقد والله رأيته فتذكَّرت به — وكنت قبلها أحار في الرسم والتلوين — أُولئك الصدِّيقين من الأنبياء والأولياء في محاريب الخشوع بين يدي ربِّهم يناجون ويبكون.

أرأيت ذلك النشيج الخفيّ لتلك الشيبة الناصعة البيضاء بياض القلب الذي أسهره عشقه وتقواه مع ربّه فأقامه بين يديه في ليل هو أحوج مايكون فيه — وهو العليل المنهك — الى النوم والراحة؟ فأين العازفون أو الغافلون عن سبحات السَّحر وقدسه وأنواره؟

هلمُّوا وانظروا شيخ التقى والعرفان على فراش الموت قد صرف عن عينيه طائر الكرى وسلب نفسه عذوبة الرقاد؛ فأيقظها لنجاء الحبيب الأسمى في أعذب ساعات العاشقين وأحلى أوقات المدلهين، وأطيب حالات الوصال في رحاب الوله الأقدس.

أسمعت النبأ الكبير من آخر من كانوا معه قبل أن يودِّع الدنيا كيف لم يفتأ يذكر الله ويقدِّسه بلسانه، لايفتر عن ذلك وهو في آخر لحظات حياته؟ بل كيف أنه وهو العارف الذائب الذي لم يزل حلس محراب العبادة العارفة حين أعياه أن يقوم بين يدي بارئه قيامه المعهود — وقد احتبلته شراك الموت وراح قلبه الكريم يذوي رويدا — يصلي لربّه لايغادر صلاته له حتى في ملمِّ الموت وساعة المنعطف العظيم، وحالة الانتقال من هذه الدنيا الفانية الى تلك الدار الباقية؟ وصلاته هذه المرَّة بإشارة الإصبع حين عجز عن سبيلٍ غيرها يجسِّدبها صلاة قلبه وروحه، كأنَّه يشير بتلك الإصبع الى معشوقه العظيم، يقول له أنت وحدك أيُّها الحبيب قد حميت حمى النفس فليست هي إلّا مرتع هواك ، وأنت وحدك أيُّها المعشوق شغلها الشاغل قد تمحّضت انصرافا اليك حتى حين غدت سطوة الموت تمزِّع هذا القلب أوصالا كأنَّه لايحسُّ بها تفعل به ماتفعل. وإليك يا مهوى الفؤاد رحلة هذا النابض الذي لم يزل هواك خفقه الثمانيني، ودمه الدائب يجري في عروق البدن الناصب يسعى اليك جاهدا يطلب وصلك من ذروة الاحتراق ليجدك في ذروة البهاء والجمال.

يقول معالجوه:مارأيناه على ما هو فيه إلّا متطهرا، مستقبلا القبلة حتى حين وضوئه، عابدا مشغولا بذكر ربِّه، يلهج لسانه — حتى آخر لحظة من عمره

الشريف – بالتسبيح، ولم يدع النوافل قطُّ وهو في ذلك الضعف المشهود في البدن. وقد رآه أحبّاؤه في اليوم الذي فارق فيه الدنيا قد أدّى الى ربّه فرائضه ونوافلها بنشاط روح فتيَّة مقتدرة بالإيمان والتقوى والهيام الالهي، قد حرّكت باقتدار حبّها وعشقها ذلك الجسد المريض الواهن فهبَّ للعبادة التي لم يفارقها ولم يسأمها ولم يضعف فيها.

وكان في تلك الأيّام والساعات في عادية المرض افتضاح العشق الخميني لبارئه أمام الأشهاد، وقد كان يضمره ويخفيه، ويستر بصدقه وخلوصه عن العيون والأسماع مشاهده الفريدة وقصصه الرائعة. وإنه للعرفان العجب ذلك الذي كان ينهض بالشيخ العليل على وشك الرحيل في عبادة جاهدة نشيطة لا ينهض بها الشباب وذوو العافية من أهل الإيمان. وإنها للعلقة الفريدة أسهرت عينه، وسلبته طعم السبات وقد هبَّت دواعي المرض تسأله الغفوة المريحة. وإنها للروح الخمينيَّة الوالهة التي لم تجسِّد روح سواها هذا الزمان ولهها ذلك التجسيد الذي أخذ عليها دهرها وسعيها ونشاطها وفكرها وقلمها ولسانها، فساعاتها وله وصبابة وهيام، ونشاطها تركاض في دروب الهوى والحبّ والغرام، وفكرها ذوب بنار الجوى لعشقها العجيب، وقلمها ولسانها وقف على ذكر ذلك الحبيب.

لقد كان أمران عظيمان هما آخر المرئي والمسموع في حياة الإمام، يطويان بالقلب صحف الزمان الغابر، ليطلّا به على أروع صفحاتها، وتلك مشاهد الأنبياء والصلحاء يودّعون الدنيا بأهازيج العشق على زجل الملائكة المرحّبين ويغادرون هذه الحياة الفانية متأهّبين للّقاء الأسمى بالذكر والتسبيح والثناء، ويرنُّ في السمع نداء للوله المحمديِّ (بل الرفيق الاعلى)، وكان مشهد الذكر البديع بالتسبيحات الأربع ووصية الفعل الرفيع بصلاة الإصبع آخر ما رأته عين الدنيا من شؤون ذلك المحتضر المقدّس في المستشفى، كأنَّه يقول بذكره مقالة جدّه المصطفى قبل عروجه الأسمى، وينادي بنداء الهوى القدسي، بالوصيّة بمجسّم الحبّ العليّ.

وتفيض الروح الطاهرة راضية مرضيَّة الى بارئها الرحيم، وتفد مأنوسة محبورة على ربِّها الكريم.وها هي المواكب الإلٰهيّة — التي كانت تنتظر أوبة الروح العظيمة الى الحقيقة وعودها الى عالم التجلِّي والمثول، ومصيرها الى حياة الصدق في بهجة الخلود ورخاء العيش الآمن الدائم — تحفُّ بها تكرمة وإجلالا، تشيّعها الى ربِّها على زجل الصلوات وحال البخوع، وأعظم بما يستقبل به الرحمن وافده الصبَّ المضام، وأجمل ما يطلع به على قاصده العاشق المستهام.

ومن العجب لدى هذه الملايين من القلوب التي حسبت إمامها ومعشوقها — الذي أخذ عليها أقطار وجودها — جزءاً من ناموس هذا الكون أن يستمسك هذا الكون وقد ٱختلَّ ناموسه فلا يتزلزل ويبيد، وتثبت قدم الأرض فلا تهتزُّ وتميد، ومن محيِّر العقول لدى هذه النفوس الولهى التي ظنَّت حبيبها كلَّ شيء في وجودها أن الأشياء من حول الخمينيِّ وهو يفارق الدنيا لا تفارق شؤونها، فالسماء قائمة على عمدها لا تقع على الأرض، والأرض متجاذبة الأنحاء لا تتقطع أشلاء، والجبال على رسوخها فلا تتدكدك على السهول، والطيور صافّات فلا تقيئ حواصلها، والشجر قائم على أُصوله لا يخرُّ لفتكة الذبول، والماء معين لا يغيض، والنسيم رُخاء لم يعصف ولم يتضرَّم.

وهكذا انطوت صفحة الجسد الخمينيِّ من الوجود، وغاب عنه وجهه المشرق الودود، وبقيت روحه الرافعة تظلِّل بجناحها البرِّ الرحيم، وتفيض دفء الحياة الحانية الرؤوم، وتنشر من سراجها الوهّاج أنوار المحامد البهيّة والفضائل العليّة، تعشب بها قلوب المسلمين، وتمرع أرواح المؤمنين، وتهفو الى المعالي والمكارم نفوس الطيِّبين.

وبقي صوته برافع النداء طريقا الى المجد والعلاء، ودليلا الى العزِّ والارتقاء، وبقي نهجه نهج الثائرين الكُماة، ودربه درب الرافضين الأُباة، وظلت أُمة الإسلام من بعده تستنير بهديه الوضّاء، وتقتفي أثر خطاه

على طريق السماء. وظلّت إيران روح الله معقل الهدى والدين، ومستثار الصولة العظمى على عروش المستكبرين، وبقي الوفاء للخمينيّ رخيّا حالما كروح الندى في السحر، وظلّ حبُّه الشذيُّ المقتدر يلوي أزمّة القلوب الى كعبتها، وظلّ قبره المشهود قبلة النفوس تنحو شطرها تصلّي صلاة الحبّ والإكبار.

ولم يعتم ذلك اللّقب الكريم (الخمينيّ) عنوان الثورة والجهاد والإباء، ورمز القيام والتضحية والفداء، ومبعث الصحوة الكبرى في كثافات الهمود، وبركان الرعب والغضب يدكُّ معاقل الظلم والجحود، ولم تفتأ يده الزاكية البيضاء تشير للعباد الى طريق الخلاص من الكبول والأصفاد، والمحن الشداد في غمرة الشرّ والفساد. ●

الفهرست



السعر: ٦٠٠ ريال

